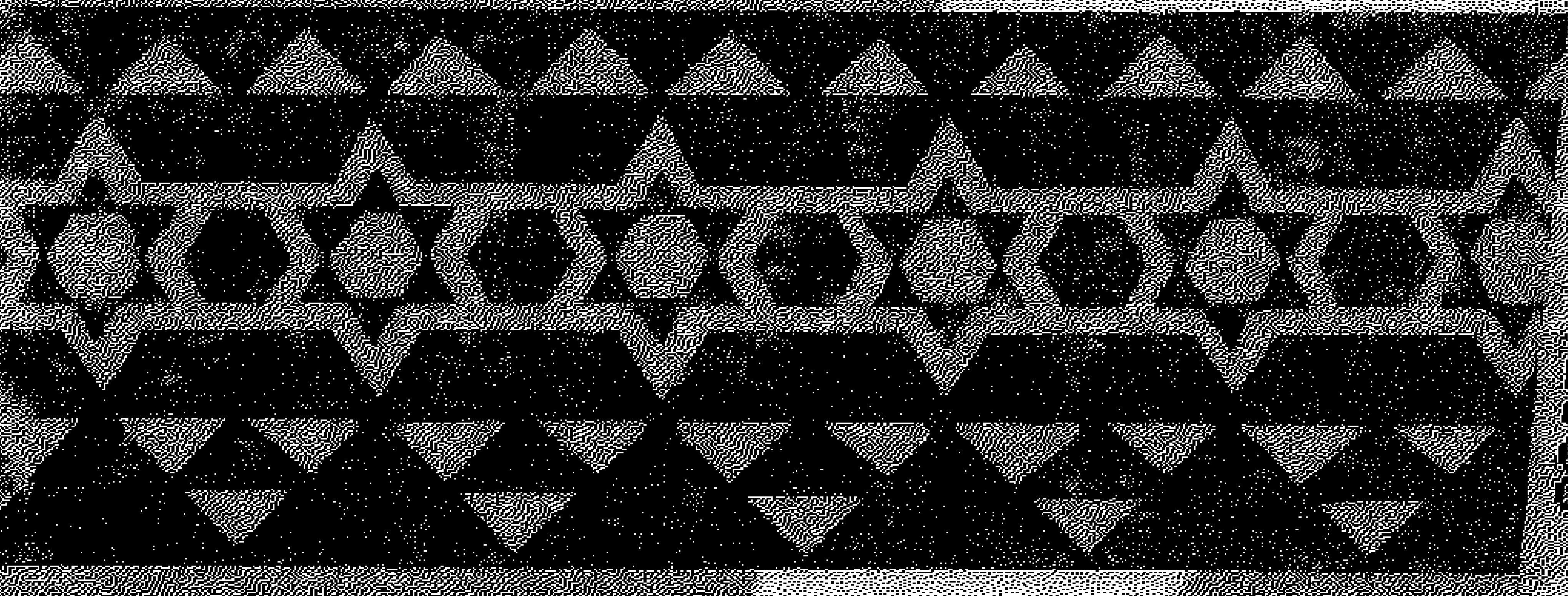
د. نعمات أحمد فؤاد

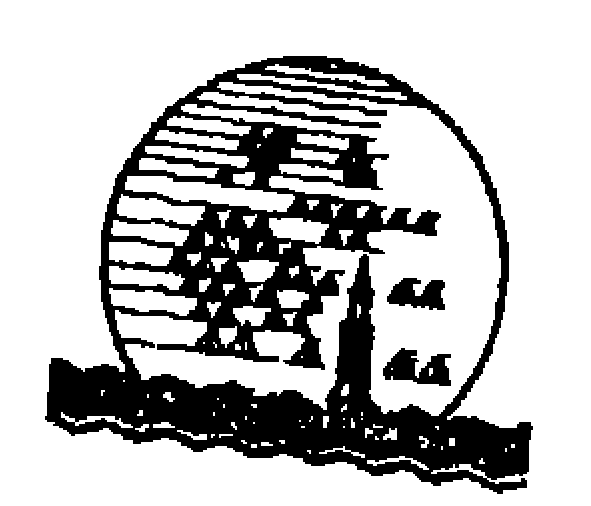
من عبقرية الإسلام



دار المعارف

د. نعمات أحمد فؤاد

مِن عَبقَريّة الإسلام





دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب

كم قرأت لأكتب هذا الكتاب

كم حققت . . وكم وثقت

كم تأملت وكم تمليت . .

كتبت كثيرًا قبله كتبًا وصفحات ، حتى غدت الكتابة كالقراءة خبزى اليومى . . . وألِفَت يدى القلم ، فى ودٍّ حميم ، وحب كبير وكريم . . . . غدا القلم جزءًا منها ، وبضعة منى . . . ومع هذا كله ، كنت أكتبه متهيبة ! وبعض هذا التهيب ، اختيارى اسمه مسبوقًا بكلمة « من » التى تفيد « الجزئية » هنا . . .

(من عبقرية الإسلام) أى لمحة من هذه العبقرية فحسب . . . ومن ذا الذى يحيط بعبقرية الإسلام ؟ .

لقد كتب الكاتبون ، مسلمون ومستشرقون عن الإسلام . . . على مسيرة أربعة عشر قرنًا . . . فهل قال قائلهم ، الكلمة الأخيرة ؟ .

لن تقال ، فالإسلام دين وحضارة وثقافة ، وإنسانية ذات أبعاد بعيَدة المدى تتجدد العصور وتتجدد معها الرؤية ، ، ، وتتعدد الرؤى ، ويثبت على التمحيص بعضٌ ويذهب الآخر ، وتظل الكلمة الأخيرة لم تقل بعد .

امتلائى بهذه الحقيقة ، ملأنى بالتهيب ... بالتحرز ... بالتحسب ... بالتحسس . وقد يبدو غريبًا ، ملأنى بالإقبال أيضًا .... ألست مسلمة .؟ أليست لى رؤية لدينى ، ولا سيما أننى درست الفقه الإسلامى فى الجامعة ، وحفظت القرآن الكريم طفلة ، وقرأت فى الأديان الأخرى ، وعنها ، كواجب محبى الثقافة بل محبى الإسلام .. فأنا لا أرضى لنفسى وللإسلام أن أنتمى إليه بشهادة الميلاد ، ولكن بيقين العقل .. وحب القلب ... وسلام الروح .

....

كم قرأت لأكتب هذا الكتاب عن الإسلام .

كم تأملت وكم تمليت

كم وعيت وكم استوحيت

وبعد هذا كله ، جاء مجرد لمحة من نوره ، ونفحة من هداه ، وروْحة من شذاه سميتها فى وفاء وعلى استحياء :

« من عبقرية الإسلام »

القاهرة : ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣ م

نعمات أحمد فؤاد

الإسلام والحياة

كل حضارة لها رؤية من الرؤى : فزهد المسيحية كان ردًّا على المادية الرومانية الممعنة فى التردى . . فكانت المسيحية رد الفعل الذى يمثل الطرف الآخر . . .

نشدت المسيحية عمارة الداخل . . . عمارة القلب . . لكنها فكرة تجريدية فى سموها . . وراقها التجريد حتى تجردت من متع الحياة وانتهت إلى الزهد .

الإسلام كان أكبر أملاً . . . دعا إلى عمارة الداخل والخارج . . عمارة الروح والجسم .

توهج الإسلام بحب الحياة فاعترف بمتاعها ومتعتها . أقر زينتها وطيباتها وطيبوها . فلا انطوائية ولا قوقعة ولا زهد ولا رهبنة . زهاده اختيار ، وأسلوب شخصية .

الإسلام أنيق يحب الجمال والزينة والنظافة. أوجب طهارة الجسم كالروح ، وزكَّى الطِّيب والخضاب ، وأباح التزيُّن ، وأتاح المتعة فى غير حرام ، وأوجب الوضوء والاغتسال .. فكان نظامًا جامعًا للدين والدنيا .

ويفرض هذا نصًّا . . وطقسًا . . ثم بالإيحاء أو الإغراء أو الاقتداء حين يبثه فى ثنايا أقوال ومعانٍ كثيرة ، ولكن بدون إسراف . . .

لقد أفسد خلفاءَ الإسلام قصورُهم الباذخة . فلم يرتفع المأمون بكل كنوزه إلى أعتاب عمر بن الخطاب بجلبابه البسيط الزاهد .

إن الإسلام فى عصر نقائه ، لم يدع البهرج ، ولكنه قال إنه دين الفطرة . . . (**شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى**)[1] .

اليهودية الحقَّة إسلام .

والمسيحية إسلام .

إن الحضارة المصرية على أصالتها ورسوخها كانت (مثالية وطنية) . . حتى إشعاعاتها الخارجية ، كانت تنبع من المثالية الوطنية ، أما حضارة الإسلام فمثاليتها عالمية . ويوم قال النبى : « بعثت إلى الناس كافة » ، كان يطوى قلبه على أمل وحدة العالم .

كل حضارة لها رؤية من الرؤى .

الحضارة المصرية كانت إنسانية ، لأنها أصلاً حضارة زراعية . ومصر عرفت الزراعة تحضيرًا للأرض وزراعة للنفس . . . زراعة للأثر والحجر . . . زراعة للمعنى فى الفكر . . وزراعة للحب فى القلب . . .

وزراعة للرحمة تلف الإنسان والحيوان والنبات فى وحدة .

والذى يسهر طويلاً ، ينام .

وأغفت مصر .

وجاء الأغريق .

كان عصر الإغريق نهضة ذهنية إنسانية .

وكان عصر الرومان مع تبعيته للإغريق ، دون نباهة الذهن الإغريقى ، أو

---

(١) سورة الشورى – الآية : ١٣

إنسانية الفكر – نزوعًا علميًّا نحو ضرورات الحياة المعتادة .

ونحن اليوم نعيش عصرًا رومانيًّا جديدًا ، اهتماماته أكل وشرب ولعب وضرب وحرب .

وجاءت المسيحية بعد الرومان ، وهى إنسانية روحية . ولكنها لم تفهم على طبيعتها ، حتى حرص القديسون ، على طهارة الروح ، وفصلوا بينها وبين طهارة الجسم ، فارتفع المستوى فى واحدة عن الأخرى .

ثم جاء الإسلام ، فيه إنسانية الإنسان ، وكونية الكون ، وقدسية الروح .

عالمية الإسلام :

إن الإسلام لا يرفض إلا الإلحاد . لقد اعترف الإسلام بالكتب السماوية قبله فى صورتها الأولى ، كما أنزلت ، قبل أن يمسسها تغيير من أى حجم وصفة . فالملحدون فى رأيه وتعبيره ، لا يساوون عند الله جناح بعوضة (**إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له . وإن يسلبهم الذباب شيئًا لايستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب**)[1] .

وغير هذا عنصرية اليهود . إنها قبلية هابطة ، فأن يكون الله إلههم وحدهم ، وأن يكونوا هم شعبه المختار ، وغيرهم شعبه المحتار ، نظرة طبقية قبلية منافية للإنسانية .

إن الإسلام حين يقول (**كنتم خير أمة أخرجت للناس**) ، يشترط هذا بقوله فى تمام الآية : (**تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر**) . . . كل من يأمر بالمعروف

---

(١) سورة الحج – الآية : ٧٣ .

وينهى عن المنكر ، فهو فى عداد الخيرين الأخيار .

والإسلام حين يقول : (**إن الدين عند الله الإسلام**) بما هو دين الفطرة السليمة ، حتى ليعد كل من سبقوه ممن سلمت فطرتهم ولسانهم وأعمالهم مسلمين .

(ومن أحسن دينًا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن)[1] .

(فمن أسلم فأولئك تحروا رشدًا)[2] .

(وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين)[3] .

(ما كان إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيفًا مسلمًا)[4] .

واعترافه بالأديان الأخرى ذكاء شديد ، فهو يستقطبها فيه ، ثم يعلو بما هو خاتمها الجامع ، وختامها العاطر .

واعترافه بالأديان الأخرى ذكاء شديد **يقفل الباب أمام الردة عنه** ، إذ فيم الرجوع وإلى أين ؟ إلى المسيحية ؟ إنه يعترف بها . . .

إلى اليهودية ؟ إنه يعترف بها .

إن الاعتراف بالأديان الأخرى ، حظ كبير للإسلام ينفرد به ، ونبعة **تسامح تحفظ عليه بشره وقوته وسط كل الظروف** .

وهى دليل **قوة شخصية ووثوق** .

ولعل هذا سر تمسك المسلم تمسكًا غريبًا بالإسلام ، حتى ليستحيل تحوله إلى

---

(١) سورة النساء – الآية : ١٢٥ .

(٢) سورة الجن – الآية : ١٤ .

(٣) سورة النمل – الآية : ٤٤

(٤) سورة آل عمران – الآية : ٦٧ .

دين آخر ، بينما يدخل أهل الأديان الأخرى فى الإسلام .

وهو سر من أسرار قوته . . قوة جعلته يقوى على حرب لم يواجهها دين آخر . . صلب اليهود المسيح فى رأى المسيحيين ، وخرج المسيح على التوراة فى رأى اليهود . . ولكن اليهود حاربوا الإسلام فى القديم والحديث ، والصليبيون – لا المسيحية – حاربوا الإسلام فى العصر الوسيط . . هو الذى احترم أهل الكتاب جميعًا .

وإذا كان الإيمان يمثله عند اليونان : الرواقية .

ويمثله عند المسيحيين ، الصليب ، رمز التحمل فى سبيل الحق حتى النهاية عندهم .

فإن الإيمان عند المسلمين : **صبر وصلاة . . . . تكامل نفس** . هذا التكامل الذى يجب أن يكون هدف التربية . ولكن الإنسان الحديث ضل طريقه إلى هذا التكامل ، لأنه نسى الله فأنساه نفسه .

يقول كارليل Karlyle فى كتابه « الأبطال » لو لم يكن محمد فيه جانب صدق ، لما استطاع دينه أن يعطى هذه الحضارة كلها .

ليس فى الإسلام « الصراع » الذى يقف وراء « الدراما » اليونانية . حتى القدر عند اليونان يقابل الإنسان . . فالإنسان والقدر يتصارعان . أما الإسلام فإنه بآيته (**قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين**)[1] .

الإسلام من خلال هذه الآية فيه اتجاه إلى الله وتسليم سلامى .

الله الذى لا إله إلا هو قيوم القيم كلها وقيوم السموات والأرض . .

---

(١) سورة الأنعام – الآية : ١٦٢ .

هو الأول والآخر .

القريب كل القرب (**أقرب من حبل الوريد**) . .

البعيد كل البعد .

الرفيع كل الرفعة .

المعجز الأفعال كل الإعجاز ليس كمثله شيء .

الإسلام والتوحيد :

إن التوحيد سر البطولة فالقول « لا غالب إلا الله » ليست تميمة ولكن عقيدة . فيه سمو على الأشياء ، وعلو على الصفات . يصفه العابدون ما يصفون ، ثم يظل أكبر . . مرة أخرى ، ليس كمثله شيء .

ليس الإسلام قاضي الشرع ، ولكن الإسلام تنزيه وتوحيد ، حتى كلمة « عبد » فى الإسلام منتهى الحرية ، لأن « عبد الله » تنفى أن يكون عبد غيره ممن خلق . . من عبيده .

إن الإسلام دين الفطرة . لقد شرح ابن طفيل المسألة عقلانيًا ، ولكن التجربة الدينية بصيرة . . انفتاح . . التجربة الدينية لا تعادى العقل ، ولكنها أبعد منه مدى . . إن الخلد عندها لا يعنى استمرار الزمن ، ولكن يعنى ما وراء الزمن .

كان التوحيد الإسلامى هو المحور الثقافى .

توحيد الذات ، فلا انفصام ولا تشقق .

توحيد المجتمع ، فيبرأ من الشيع والتطاحن .

توحيد العالم نحو القيمة الكبرى أى الله .

ومن هنا يأتى التدين فى الإسلام ، تفسيرات وجدانية ارتفعت على لغو الكلام وعقم الجدل وأترعت بسلام وطمأنينة ، هى حكمة قلب حقق عمليًّا معنى التوحيد ومعانى الرحمة والبناء وعز الكلام والإتقان ونعيم البر بالحرفة ، وأبّهة الخلق المتطلق والمطلق ، وصمت الخاشع المستمع ، وهناءة المستمرئ السعيد .

الإيمان فى الإسلام هو ما استقر فى القلب وصدقه العمل ، فلا يقول قائل (**لا حول ولاقوة إلا بالله**) ، ثم يخاف من إنسان حاكمًا أو محكومًا ... ولا نقول (**إياك نعبد وإياك نستعين**) ثم نتخذ من دونه أربابًا .

ومن هنا ، يكون الإسلام كرامة واعتدادًا . فللّه العزة ولرسوله وللمؤمنين . حدثت مجاعة فى أيام الشاعر المتصوف فريد الدين العطار . وإذا به يجد فى السوق عبدًا يضحك ، فسأله فى دهشة الغضب : تضحك وسط الجوع ؟. فقال العبد : سيدى غنى .

وهنا خجل فريد الدين العطار ، لأن الله هو خالق سيد العبد الضاحك ، وصاحب الفضل فى غناه . ولا يقاس غنى المخلوق بغنى الخالق . فكيف هزت المجاعة الشاعر العطار وهو يعلم أن سيده الله جل جلاله ؟. هنا أحس بالذنب .

إن التنزيه فى الإسلام ، إفراد الله بالقدرة والجلال ، فكل ما عداه صغير مهما انبعج .

قارون غنى .. الله أكبر
هولاكو طاغية .. الله أكبر
سليمان ملك .. الله أكبر
لقمان حكيم .. الله أكبر

ولكنه غرور الإنسان ، كلما اشتد إحساسه بالضعف فى قرارة نفسه الأمارة بالسوء .

ولأمر ما ، يستهل قارئ القرآن الكريم بقوله (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) .

الشيطان هو السوء والشر والتفرقة . . . كل ما يعارض أو يتعارض مع الصفات الكريمة التى يعمل القرآن على ترسيخها .

« أعوذ بالله من الشيطان الرجيم »

لكأنها تنقية للنفس مما يشوب ، وتهيئة لها لتتلقى سيال الرحمة من الآيات .

دين الرحمة :

إنها رحمة أن يضاعف الإسلام الجزاء فى الحسنة ، ويقصره على المثل فى السيئة .

لقد كرم الله الإنسان ، حين استهل كتابه الأكبر بفاتحة تقتصر من دون الموضوعات الكبرى على **ما بين الله والإنسان** ، متوجًا هذه العلاقة **بالرحمة** تظلل الإنسان بالطمأنينة من لدن **الرحمن الرحيم** .

بينما التوراة قلما ذكرت الرحمة . حتى حين ذكرت الرحمة ، وردت فى سفر التثنية « السفر الخامس » الذى يعزو ، الدكتور فؤاد حسين ، وضعه إلى محاولة إنقاذ مملكة يهوذا ، أى أنه مستحدث لغرض . ولهذا يخالف الأسفار السابقة . . حتى الوصايا العشر ، عرضها عرضًا جديدًا يخالف العرض الآخر الذى ورد فى « سفر الخروج » .

والرحمة فى المسيحية **تلتمس** من الله ، ولكنها فى الإسلام **وعد** من الله ، أى أمر محقق أو« حق » ، كما يقول الدكتور كامل حسين فى كتابه (الذكر الحكيم) أمل مطروح ومفتوح ، وهو شعور يزيد فى طمأنينة النفس المسلمة .

من ميزة الإسلام أنه أسلوب حياة . . نمط سلوك من أبسط الأشياء إلى أعلى الأشياء .

دين الإتقان تجويدًا للقرآن

وتجريدًا للخط العربى حتى غدا تسعين قلمًا .

دين البساطة الخالية من التعقيد .

« إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر» .

وفى رواية أخرى : **« وإذا أتيتكم بشىء من أمر دنياكم ؟ فأنتم أعلم بأمر دنياكم » أو ما معناه .**

وهو درس فى احترام الإنسان وعقله . . . فالمنزه وحده هو الله سبحانه وتعالى .

سلام الإسلام :

الإسلام سلام فى الروح وسلام على الأرض ، إنه سلام يوم أعاد بناء الإنسان على أرض الجزيرة ، فأعطى وساد . . كل شىء يسكب الصفاء على النفس فهو إسلامى الانتماء . وهو سلام حين دعا إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة ، لا بالسيف كما يزعم المغرضون .

(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة)[1]
(ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما أتاكم)[2] .
(ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظًا)[3] .
(ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون)[4] .
(وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)[5] .
(لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى)[6] .
(وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا)[7] .

إن السلام حلم الإسلام الأبدى ، وحسبه حبًّا للسلام أن أعاده إلى نفوس تفرقت أشتاتًا .

فالإسلام شهر السيف فى وجه الدولتين الكبيرتين فى إبان ظهوره ، وكانتا تهددان وجوده الجديد . . . وهما الروم والفرس . . . وكان فى قتاله فى حالة **دفاع عن النفس** . . . وكم من حروب أشعلها وخاضها المسيحيون وباسم المسيحية السمحة ذات الخد الأيسر ، فلم يحمل ذنبهم على المسيحية السلامية .

الإسلام يتضمن « السلام » حرفًا ومعنى . فالإسلام فيه ، « السلام » تحية الله لعباده الصالحين (**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم**

---

(١) سورة النحل – الآية : ١٢٥ .
(٢) سورة المائدة – الآية : ٤٨ .
(٣) سورة الأنعام – الآية : ١٠٧ .
(٤) سورة الأنعام – الآية : ١١٢ .
(٥) سورة الكهف – الآية : ٢٩ .
(٦) سورة البقرة – الآية : ٢٥٦ .
(٧) سورة البقرة – الآية : ١٩٠ .

تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام)[1] .

والإسلام جعل السلام تحية المؤمنين لنبيهم عليه السلام .

(إن الله وملائكته يصلون على النبي ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليمًا)[2] .

والإسلام جعل السلام تحية المؤمنين بعضهم لبعض : يقول الله تعالى فى أدب الزيارة (لا تدخلوا بيوتًا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها)[3] .

وجعل الله السلام تحية لجميع رسله :

(سلام على نوح فى العالمين) . . (سلام على إبراهيم) . (وسلام على المرسلين)[4] .

وجعل الله السلام اسمًا لدار كرامته ونعيمه :

(لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون)[5] .

ورفع الله السلام وجعله اسمًا لذاته العلية :

(هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن)[6] .

وقد دعا الإسلام إلى المسالمة فى المعاملة :

---

(١) سورة يونس – الآية : ٩ ، ١٠ .

(٢) سورة الأحزاب – الآية : ٥٦ .

(٣) سورة النور – الآية : ٢٧ .

(٤) سورة الصافات – الآية : ١٧٩ ، ١٠٩ ، ١٨١ .

(٥) سورة الأنعام – الآية : ١٢٧ .

(٦) سورة الحشر – الآية : ٢٣ .

(ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم)[1] .

ودعا الإسلام إلى العفو :

(خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين)[2] .

ويقول : **(وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا)**[3] .

ولكن الإسلام الذى يشيع السلام ، يعترف بالحرب حيث لا تنفع الحجة والبرهان وسيلة إلى درء العدوان . **(فقاتل فى سبيل الله)**[4] .

(فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإمَّا منًّا بعد ، وإمَّا فداءً حتى تضع الحرب أوزارها)[5] .

ودعا الإسلام إلى التأهب والاستعداد **(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)**[6] .

وتركت الآية القوة بغير تحديد عمدًا ، لتجعل للمسلمين فى كل عصر تكييف « **القوة** » وفق مقتضيات العصر الذى يعيشون فيه ، فالقوة التى يجب أن يتحصن بها المسلمون اليوم هى أحدث ما يعرفه عصرنا من وسائل الهجوم والدفاع فى البر والبحر والجو . . .

---

(١) سورة فصلت – الآية : ٣٤ .

(٢) سورة الأعراف – الآية : ٢٠٠ .

(٣) سورة الفرقان – الآية : ٦٣ .

(٤) سورة النساء – الآية : ٨٤ .

(٥) سورة محمد – الآية : ٤ .

(٦) سورة الأنفال – الآية ٦٠ .

ودعا الإسلام إلى الصبر والمصابرة (**يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون**)[1] .

دعا الإسلام إلى التحام الصف فى المعركة (**إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفًّا كأنهم بنيان مرصوص**)[2] .

والإسلام حين يشرع الحرب دفعًا للظلم ، يحوطها بالتشريع ويضع لها من التقاليد والحرمات ما يليق بدين الشرائع المثلى . فهو يحرم التمثيل بالميت أو قتل النساء والأطفال أو بقر البطون ، مما ترتكبه الحروب الحديثة على الرغم من التشدق بحقوق الإنسان ومبادئ السلام .

كتب عمر إلى قائده سعد رسالة ، ما أحوجنا إليها اليوم فى امتحان البقاء أو الفناء الذى تجتازه الأمة العربية اليوم ، لتكون لنا دستورًا على أرض المعركة . . .

(إنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيدة فى الحرب . . . وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسًا من المعاصى منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم . . . وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله . . . ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا فى المعصية ، كان لهم الفضل علينا فى القوة . . وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا ، فاعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون . . .) .

ثم مضت الرسالة ترسم للنصر طريقه . . .

---

(١) سورة آل عمران – الآية : ٢٠٠ .

(٢) سورة الصف – الآية : ٤ .

جهلوا الإسلام فهاجموه ، والناس أعداء ما جهلوا ، حتى لقد اعترفت وثيقة الفاتيكان – تم طبعها إثر اجتماع مجمع الفاتيكان الثانى والتى طبعت للمرة الثالثة سنة ١٩٧٠ –

Orientations pour un Dialogue entre Chretiens et Muslums

التى تناشد العالم المسيحى إقامة حوار بينه وبين المسلمين ... اعترفت وثيقة الفاتيكان « بمظالم الماضى التى ارتكبها الغرب ذو التربية المسيحية فى حق المسلمين » .. ودعت الوثيقة فى روح إنصاف ، إلى استبعاد « تلك الصورة البالية التى ورَّثنا الماضى إياها أو شوهتها الافتراءات والأحكام المسبقة » .

صمود الإسلام :

لقد قوى الإسلام بعد الحرب المادية على حرب معنوية لم يواجهها دين آخر أيضًا ... ولكن الحرب هنا لون من التقدير المعكوف أو المدح الملفوف كما يقول الأستاذ العقاد فى العداوة .

إن « دانتى » على شدة عداوته للإسلام من منطلق عصره الوسيط ، والحروب الصليبية ، مع إقرار الكثيرين من الباحثين بتأثره بالتراث الإسلامى ، بل بالإسراء والمعراج فى ملحمته « الكوميديا الإلهية » ... دانتى هذا ، لم يقو على إنكار تقديره للفلسفة الإسلامية وفلاسفتها ، خاصة ابن سينا ، وابن رشد ، اللذين أنزلها منزلة فكرية عالمية تركت بصمتها على الفكر الإنسانى .

ومن الطريف ، أنه حين أقر فلسفتهما ، أنكر عقيدتهما ! ! حتى أدخلهما الجحيم ولكن فى أولى مراتبه حيث لا عذاب ولا دموع ، ولكن زفرات وحسرات ! !

لقد وقع دانتى فى « الإسقاط » فتحسر على أنهما لم يكونا مسيحيين حسرة كبيرة بحجم قدرهما ، فتخفف من حسرته بإسقاطها . فجعل رَجُلينا : ابن سينا وابن رشد يتحسران ! !

لقد شُبّه له . . . .

إن المسيحية التى تدعو إلى الإخاء والمساواة ، والتى أجهد الدعاة والبعثات التبشيرية أنفسهم فى الدعوة إليها ، لا تعترف فى المجتمعات المتخلفة للمسيحيين الملونين بالمساواة الكاملة ، ففى بعض مناطق أفريقيا الغربية ، كانت تقام كنائس للسود وأخرى للبيض .

إلى هذا الحد بلغ الغرور الحضارى للغرب .

إن الدين عنده قشرة خارجية . يتجبر أهله ويتكبرون ويسفكون الدماء فى الحروب الصليبية فى مختلف العصور باسم الصليب ! ! ونبى الله عيسى عليه السلام ، حنا حتى على الخطيئة والخاطئة ، وقال بإمالة الخد الأيسر ، إمعانًا فى التسامح ولين الجانب من « السيد » ، الذى ينقلب إعلانًا عن التميز من الأتباع ! ! ولعل هذا أحد أسباب تفسر هذه الظاهرة ، وهى أن موجة الإسلام حين تأخذ هذه الأيام فى المد على إثر العودة إليه ، تجد إنسان الغرب المسيحى ، يقع تحت ثقل كبير من كتب كثيرة ظهرت فى عالمه تجاهر بالسخرية من التدين ومن الكنيسة . يقول بهذا كُتّابه . . فالكاتب Basil Willeh يصور هذا فى كتابه : «Religion To Day» كما يصور الدكتور جون روبنسون البريطانى John Robinson الخطر الداهم الذى تتعرض له المسيحية فى كتابه .
Christian Freedom in a Permissive Society S.C.M. Press.

المساواة فى الإسلام :

حارب الإسلام العلو فى الأرض ، فالمساواة دعوته (**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**) . بينما الأمم المتحدة اليوم ، تعترف بشريعة الغاب قوم أعطت الدول الكبرى (حق الفيتو) لمجرد أنها قوية . . . أى مرخص لها بالبطش والافتراس . ومن يعترض تستعمل « حق » الفيتو أو استثناء الفيتو بتعبير أصح . . .

هذا حين احترم الإسلام الإنسان ورفعه على الملائكة ، وهو تكريم فيه إشارة إلى ضرورة كرامته وحريته بالتالى . . . الكرامة والحرية لا تتوفران إلا فى المساواة فى الحق والإنسانية .

وكما احترم الإسلام الإنسان ، توطدت الأخوة الإسلامية فى القرآن الكريم فى بضع آيات ، فضلاً عما فيه من آيات كثيرة مؤيدة لها بصورة عامة : (**واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا**) .

وقوله تباركت أسماؤه (**إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون**) .

أما المساواة ، فقد تقررت ضمنًا حين آخى بين المسلمين .

وتقررت ضمنًا حين سوى بينهم فى الحقوق والواجبات . وتقررت صراحة فى روعة بالغة حين قال:(**ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**) .

وهكذا رفع الإسلام راية الحرية والإخاء والمساواة ، قبل الدساتير الحديثة فى الغرب بعدة قرون .

يسر الإسلام :

عبقرية الإسلام فى شخصيته المؤثرة والمغيرة ، وهى الثابتة لا تتغير ، بثبوت كتابه بلا مساس دون سائر الكتب المنزلة . فالتوراة مسخت ونسخت بأيدى اليهود .

عبقرية الإسلام فى يسره ، فالبساطة التى تجعل الله فيه بدون وساطة ، سر من أسرار محبته ، حين يحيط المسيحية أهلها بالتهاويل ، مع تواضع المسيح وزهده زهدًا لا يتناسب مع أطنان الذهب التى تكسو جدران الكنائس ، وأطنان الذهب الأخرى التى تتكدس فى البنوك باسم آباء الكنيسة حتى لتقترض الدول ذات الميزانيات من الفاتيكان . . كيف يتفق زهد المسيح مع ثراء الكنيسة وزخارفها ورفافها وتهاويلها وطيلسانها ؟ كيف يغسل المسيح أرجل حوارييه تواضعًا ، ويعطى القسس أيديهم للناس يقبلونها . . ؟ !

لست أنتقد ، فما هذا عيب المسيحية او ذنبها . . . ولست أتعصب ، فواجبنا أن ننتمى إلى الإسلام والمسيحية ثقافيًّا ، لا أن نتعصب لها اسميًّا أو شعائريًّا .

توخى الإسلام خير الإنسان فى كل ما أمر به ونهى عنه فى غير عنت أو إرهاق ، فهو لم يكن يومًا قيدًا للمؤمن به ، بل كان أمنًا وسلامًا نفسيًّا وهو يسر سمح (**يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر**) ويقول الله تعالى : (**لايكلف الله نفسًا إلا وسعها . .**) .

حتى الوحدانية ، اكتفى فيها بإشارة السبابة إلى السماء ، ولم يكلف فى أمرها ما فيه تعقيد أو التواء . .

وفى العبادة اكتفى من المؤمنين فى طهارة الصلاة بالتيمم إذا خافوا استعمال الماء .

وفى القيام للصلاة ، اكتفى بالإيماء إذا شق عليهم القيام والقعود .

وفى الصوم أباح الإفطار فى حالتى المرض والسفر .

بل أباح المحظورات عند الضرورات .

لم يكن الإسلام يومًا يعنى بالحرفيات ، فالصلاة فيه ليست القيام والقعود ، بل هى رباط بين العبد وربه ، يقف فيها بين يديه خاشعًا ضارعًا يناجيه مستشعرًا عظمته مستحضرًا جلاله ملتمسًا عفوه ورضاه ، فتسمو نفسه وتزكو روحه وترتفع همته عن ذل الخضوع لغير الله :

(إياك نعبد وإياك نستعين)

والصلاة عصمة من الشر إذا أديت على الوجه الأكمل . . يقول الله تعالى **(اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون)**[1] .

ومما لا ريب فيه ، أن الصلاة الخالصة تحمل المصلى على التفكير فى الله وما أمر به وما نهى عنه . كما تحمل على الحياء من اقتراف الآثام بعد أن كان ماثلاً بين يدى الله .

ومجتمع يفرض على أفراده كافة ، من رجال ونساء ، أن تكون لهم هذه الوسيلة الروحية خمس مرات كل يوم ، جدير بأن تسود فيه الأخلاق الطاهرة وتنتفى أو تقل فيه المنكرات إذا أديت الصلاة فى فهم وخشوع .

---

(١) سورة العنكبوت – الآية ٤٥ .

الوضوء فى الإسلام وضاءة نفس قبل أن يكون غسل الأطراف .

والصلاة صلة بين المحدود « الإنسان » وبين الكمال المطلق « الله » . ولعل هذا ، السر ، فى فرض الصلاة خمس مرات فى اليوم ، لعل واحدة منها تنجح فى تحقيق هذا المعنى

الصلاة فى الإسلام ، تطهير للذات وانفتاح بها للنور . ورفع اليدين فى الصلاة استشراف إلى العالى . . إلى السامى فى عملية مجاهدة وخلوص .

والسجود ، سجود القلب حين يتجرد من الصلف ، لا وضع الجبهة على الأرض . وهذا يفسر الآية الكريمة :

(ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) . . .

لماذا ؟ بفضل هذا النور .

وحرص الإسلام على « الخلوص » ، تمكين لحواس النفس الداخلية أن تمتح من الأعماق . الإسلام صلاته صلة ، وبره محبة .

(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) [1] .

ويلاحظ أن أسلوب الآيات ، سواء فى سورة البقرة – هنا – وفى سورة الرعد « الآيات ١٩ – ٢٥ » أو فى سورة النحل « الآيات ٩٠ – ٩٧ » ،

---

(١) سورة البقرة – الآية : ١٧٧ .

أسلوب تقريرى ، مما يدل على أن المؤمن مطالب بما جاء فيها **بصفة الوجوب** .

وكما أوجب الإسلام هذه الصفات الجامعة بالأسلوب التقريرى ، أوجب غيرها بأسلوب النهى أو الأمر ، فأغرى بالتواضع وحض على الاحتشام فى قوله عز وجل :

(ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحًا إن الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد فى مشيك واغضض من صوتك)[1] .

وقوله جل شأنه : **(ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً ، ولا تمش فى الأرض مرحًا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً)**[2] .

ومع الوجوب والنهى ، احترم الإسلام حرية الإنسان . فليس لحريته فى الإسلام حدود إلا المحرمات والواجبات الدينية . والأولى تعنى كل خبيث ورجس ومنكر ، والأخرى تتناول القيام بأركان الإسلام والتزام الحق والعدل والخير .

وهكذا ، احترم الإسلام الشخصية الإنسانية ، فلم يقيدها إلا بأنفع ما يمكن من قيود الحق والمصلحة العامة والخاصة المشروعة . . احترم الشخصية الإنسانية حين نعَّم الجسم وكرمه بإباحة الطيبات ، وكرَّم الروح بالحث على تزويدها بالعلم وتحليتها بمكارم الأخلاق .

السجود الحقيقى فى الإسلام ، إيمان القلب بالقدرة ، وشهادة للخالق

---

(١) سورة لقمان – الآية : ١٨ ، ١٩ .

(٢) سورةالإسراء – الآية : ٣٦ ، ٣٧

بالتفرد حين ينبهر الإنسان المحدود بالكون الشامل فيقول بالحركة (**ولم يكن له كفوًا أحد**) .

والزكاة ، رباط بين الغنى والفقير لصالح المجتمع كله ؛ حتى يشيع التعاطف بين الواجد والفاقد فيتراحمان ، لا يقسو الغنى ولا ينفس الفقير أو يحقد أو يصير فريسة للمبادئ الهدامة . . لقد تلافى الإسلام هذا كله وتحاشاه منذ البداية ، فجعل فى أموال القادر حقًّا معلومًا للسائل والمحروم ، يؤديه عن رضى واقتناع . يطهر المال ويزكيه ويقيه شر الفتن الهوجاء .

إن الإسلام يعلم حب النفس للمال . ويعلم أن الاستيلاء عليه عنوة من أصحابه يورث نفوسهم معانى القهر والغضب . . كما أن ترك الفقير بلا مشاركة وجدانية ومادية ، يورثه الحقد والألم .

لهذا ، أوصى الإسلام بالبذل فى صور شتى ، تمتزج فيها المادة بالروح ، حيث العطف اللفظى وحده لا يسمن من جوع . . . . والمادة وحدها لا تؤمن من خوف .

ولعل كتاب « تمرينات رياضية » لشاعر اليونان الحديث « نيقوس كازنتاكيس » ، الذى عرض له الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه « الشطرنج » . . لعله تمرينات روحية بفلسفته ومثيلاتها فى الثقافة الغربية ، يفضى بنا كما يقول الأستاذ العقاد ، إلى نتيجة محققة واضحة ، تستحق عناء البحث عنها ، ، والتأمل فيها ، وهى : أن الفكر الغربى يشعر بإفلاس العقيدة المادية ، ويكفر بها بعد اطمئنانه إليها ، وأنه يرى المحاولة الروحية خيرا من الاستقرار على الإيمان بالمادة العمياء ، وإن لم تكن لتلك المحاولة نهاية استقرار .

والكفر بالمادة كما يعكسه كتاب « التمرينات الرياضية » قرار نلتقى عنده كما يقول الأستاذ العقاد بالشاعر اليونانى الكبير ، وبأمثاله من الحائرين بين المفكرين ، وإنه لقرار أثبت من القرار الذى اطمأنوا إليه قبل قرن واحد ، وظنوا أنهم مطمئنون إليه – أى الشيوعية – مدى الزمان . . ولم يكن لهم مذهب وراءه إلى غير ظلام .

من أدب الإسلام :

لقد احتضن الإسلام الفقير والمسكين وعطَّف الوجدان الإنسانى عليهما ، إن القرآن الكريم لا تكاد تخلو سورة من سوره من ذكرهما أو ذكر أحدهما .

جعل لهما حقًّا فى الصدقات المفروضة . .
جعل لهما حقًّا فى الغنيمة . .
جعل لهما حقًّا فى المال إذا اقتسمه أربابه بمحضر منهما .
جعل لهما كفارة اليمين .
جعل لهما فدية الإفطار فى نهار رمضان .
جعل لهما كفارة اعتداء المُحرم على الصيد .

وغير هذا كثير . . . بل بلغ من سماحة الإسلام أن شمل بالعطف الفقير من الأديان الأخرى ، إذا أخذنا بقول أبى يوسف صاحب كتاب الخراج الذى يفسر الآية (**إنما الصدقات للفقراء والمساكين**) بأن الفقراء هم فقراء المسلمين ، والمساكين هم فقراء أهل الكتاب .

ثم أغرى بالعطف عليهما والتعاطف معهما حبًّا وكرامة فقال تعالى : (**وآتى**

المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب)[1] .

وضرب مثلا رفيعًا فى الأدب النفسى ، حين يكون العطاء فى الخفاء بعيدًا عن التظاهر والمن . يقول سبحانه وتعالى :

(إن تبدو الصدقات فنعما هى ، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم)[2] .

لقد قرن العطف على الفقراء بالتوحيد والإحسان إلى الوالدين .

(واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا وبذى القربى واليتامى والمساكين)[3] .

(وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانًا) ثم يقول : **(وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل)**[4] .

لقد جعل الإسلام إرضاء الفقير طريق السعادة ، فرضاؤه اقتحام العقبة فى قوله تعالى : **(فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيمًا ذا مقربة أو مسكينًا ذا متربة ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة)**[5] .

---

(١) سورة البقرة – الآية : ١٧٧ .
(٢) سورة البقرة – الآية : ٢٧١ .
(٣) سورة النساء – الآية : ٣٦ .
(٤) سورة الإسراء – الآية : ٢٣ ، ٢٦ .
(٥) سورة البلد – الآية : (١١ – ١٨) .

من أدب الإسلام : الترابط

وإذا كانت الزكاة رباطًا بين الغنى والفقير ، فإن الحج رباط بين المسلمين جميعًا ، يجمعهم على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم إخوانًا فى العقيدة والدين والإيمان والهدف والغاية ، يتعارفون ويتقاربون ويتشاورون ويقدرون مسئولياتهم المشتركة ويتعاهدون ، فهو مؤتمر إسلامى كبير .

وإذا كانت مناسك الحج وأفعاله فيما يعرف الناس هى التجرد من المخيط والمفصل والطواف ببيت الله الحرام والسعى بين الصفا والمروة والوقوف بعرفات ورمى الجمرات وذبح الضحايا ، فإن المقصود من هذه الأفعال أبعد مدى من ظاهرها . فالإحرام ، تجرد من شهوات النفس والهوى وغرور الإنسان .

والطواف ، إنما هو التفاف القلوب حول قدسية الله .

والسعى ، بعد الطواف ، هو استمطار للرحمة والتماس للمغفرة والرضوان .

والوقوف بعرفة ، بعد السعى ، ضراعة قلب مملوء بالخشية والدعاء . .

والرمى ، تعبير عن مقت عوامل الشر واحتقار نزعات الأنفس الأمارة بالسوء وطرد وساوس الشيطان .

والتلبية ، خلوص وإخلاص وتجرد وابتهال ودعاء .

فالحج تحية لمشرق الإيمان حيث ولد الهدى ، وحيث تترطب ألسنة المؤمنين بهذا الابتهال . .

ولبيك اللهم لبيك . . لا شريك لك لبيك . . . إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك . .

وهكذا يقف الإسلام بعباداته وتعاليمه وشعائره وراء معانى الخير والحق ،

بما يشيع السلام فى نفس الفرد والوئام فى حياة المجتمع إذا تغيا أخلاقياته وقيمه ، وتهيا للنفاذ إلى جوهرها بصفاء الروح ونقاء الضمير .

من أدب الإسلام : الصدق :

أعلى الإسلام قيمة الصدق . حقًّا إنه جاء فى الوصايا العشر لا تكذب . . . ولكن أن تقول لا تكذب ضمن « لالات » عشرة غير أن تقول :

(ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا أو كذب بالحق لما جاءه)[1] .

(والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات)[2] .

هنا الصدق أذن سميعة ، ولسان مبين ، ونور يهدى ، ورؤية محققة . . ورأسمال حيوى وقيمى . وحين سمى الرسول صفيَّه ونجيه فى الغار « الصديق » ، كان يستهدف هذه المعانى كلها . فقد كان أبو بكر صادقًا وصديقًا ، وهو من صدقه امتداد لنفسه فى حياته ، وامتداد لدعوته وخلافته بعد الحياة .

طلب أعرابى من الرسول (ﷺ) فى محاولة للتوبة والاستقامة ، أن يدعو له بالتوفيق فى الحياة ، فقال له النبى الكريم :

– هل تعاهدنى على ترك الكذب ؟

تأييد حكيم لقيمة الصدق وبعده البعيد فى صلاح الدنيا والآخرة . . . . رؤية إسلامية ، ما لبث شيوخ الإسلام الثقات أن جعلوها لهم دستورًا غير مكتوب .

---

(١) سورة العنكبوت – الآية : ٦٨ .

(٢) سورة الأنعام – الآية : ٣٩ .

فر مصرى مذعورًا من حاكمه التركى ، وانتهت به ساقاه وعقله الباطن معًا إلى الشيخ على الخواص وأمامه الخوص يشكله . فقال له : أجرنى .

قال الشيخ : اختبئ يابنى فى الخوص .

وبعد وقت قصير إذا بالشيخ يجد على رأسه « الجندى » يسأله عن الهارب .

– فين المصرى البلبوص ؟

فقال الشيخ فى هدوء المؤمن :

– فى الخوص .

فلم يصدق ومضى يلتمس طريقًا آخر يبحث فيه عن طلبته .

وخرج الرجل من الخوص يقول للشيخ فى عتاب حيى :

– كيف تدل على مكانى ياأبتى ؟

فقال الشيخ : هذا الصدق هو الذى نجاك ياولدى .

استطاع الإسلام أن يؤثر هذا الأثر ، حين كذب أصحاب الوصايا العشر على الناس بل على الأنبياء ، ففريقًا كذبوا وفريقًا قتلوا حتى جاء فى يوحنا « أن اليهود لم يعودوا شعب الله بل شعب إبليس » .

(٨ : ٤٤ – ٤٧) .

قدسية العمل فى الإسلام :

يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « من عمل فأخطأ فله أجر ومن أصاب فله أجران » .

وهى دعوة للمحاولة والاجتهاد مع جواز خطأ التجريب . . وحين قدس الدين العمل ، حنا على الخطأ الذى يعنى « التجربة » . فليس من الدين الوعيد

والتهديد بعذاب الآخرة فى الخطب المنبرية المحفوظة أو المنقولة من الأوراق الصفراء البالية ، فإن هروبنا الحاضر من المسئولية ، سببه تركيزنا على خطورة الخطأ عند الأطفال فى المدارس ، وعند الكبار فى المساجد . . كل خطأ عيب وخطير وجسيم ، لماذا ؟ إن الخطأ طبيعى . . . والتجارب والخبرات مجموعة أخطاء . . ولهذا فطفلنا عندما يكبر ، يخاف من المبادرة والعمل حتى لا يخطئ لأنه طبع على جرم الخطأ .

ليس لنا أن نخاف من الخطأ أو حتى الفشل ، فما التجربة والخبرة إلا مجموعة أخطاء سابقة تعلم منها أصحابها الصواب .

وحين يعمل الإنسان آمنًا من الرهبوت والطاغوت ، فإنه يقبل على عمله فى حماسة وفرحة .

إن الإعلام يركز على القيمة الاقتصادية ، وينسى دائمًا **القيمة الإنسانية** للعمل . . العمل المترع ببشرية العامل ، أى حب صاحبه له ، لا العمل الذى تستطيع الآلة الإليكترونية أن تؤدى أضعافه .

والعمل الذى حث عليه الدين ، له آداب مرعية . فالذى يتكلم أثناء العمل لا يعرف للعمل كرامته . . آداب العمل هى الخلوص له . . والخلوص نقطة لا تُرى . . نقطة تلاقى الكيان الإنسانى بمذخوره ، مجمعًا ، فى سن القلم أو الريشة عند ملامستها للصفحة أو اللوحة .

حكى ألدس هكسلى عن « تشنك » النجار الصينى الذى نحت من الخشب حاملا موسيقيًّا رائعًا . ولما سأله الأمير مبهورًا : كيف صنعت هذا ؟ قال : عندما أكون على وشك البدء فى عمل مثل هذا ، أخلص نفسى من كل

مايتنقص من حيويتى «معسكر شخصى» وأمضى أيامًا فى هدوء لأخلص عقلى.

ثم أيامًا أخرى أنسى فيها الأجر.

ثم أنسى الشهرة . .

ثم أفقد إحساسى بأطرافى الأربعة !

ثم أنسى « البلاط » .

ثم تتجمع خبرتى وتتمركز.

وأخرج إلى الغابة **وأستحضر قدراتى فى مناسبة قدرات الخشب** « زواج بين المادة والإنسان » . ثم . . . أبدأ . . .

خلوص :

إن الصمت فى العمل سبيل إلى التجويد . إن الإنسان المذياع والمزياط لا يسمع نفسه . محروم من الهواتف النفسية . . . من الأصوات الداخلية المشحونة ليصحح رؤيته ويراجع عمله .

الصمت فى العمل جمع للنفس وميلاد للقيمة . إن حياة كل يوم تختزل وجود الإنسان حين توزعه فى الاهتمامات الصغيرة ، ولكن الإنسان حين يقبل على عمله خالصًا له ، يعيش إنسانيته كلها ، يعود إنسانًا كاملا ، وكان جزءًا من إنسان .

إن العمل خير مربٍ حين يقوم على طاقات الصبر والتجويد والخبرة . حكى الإمام الغزالى : أن أناسًا سألوا الرسول عن خير العمل فقال : **العلم** . فعادوا يسألون من جديد فى محاولة استيقان ، فقال : العلم . . . . أو كما قال .

فليس من العلم ، العشوائية أو أمية الوسيلة . والقولة الشعبية التى تجعل بطل

القصة يقول (لا أعمل كذا حتى ييجى التاجر والتاجر فوق السطوح والسطوح عاوز سلم والسلم عند النجار . . . إلخ) .

يقول الجبرتى : إن شيخه محمد الزهار فسرها له ، بأن « **المقصد لا يتم بلا وسيلة** ، والسالك قبل كل شيء يحصل دليله «حتى ييجى التاجر » **أى المرشد الكامل والمربى الواصل** . ومن تقاليدنا فى العمل « المعلمانية » . فأستاذ الصنعة « معلم » والصبى يناديه « ياعمى » فى وعى حساس بأن العمل قرابة وقربى .

نعود إلى القصة الشعبية « والتاجر فوق السطوح » يتلقى معارج الروح لا يذهب ولا يروح بل إليه يراح وبه تنتعش الأرواح .

« والسطوح عاوز سلم » يتوصل به إليه ، حيث أن المدار عليه إذ لا يمكن صعود بلا معراج .

إن العمل أساس الاجتماع ، ووفقًا لنوعيته تتحدد نوعية الاجتماع بكل ما فيه من قيم . . ولا أدل على هذا من رؤية الإسلام للعمل ، إنه « لوجه الله » . وهو بهذا يرتفع به على الجزاء ويرفعه على الأجر المادى مهما بلغ . إنه أكبر منه .

إن العمل أعلى درجات الاقتصاد ، بما هو اقتصاد طاقات الإنسان وسداد توجيهها . .

إن الثقافة الدينية جزء منسى من تربية الإنسان فى هذا العصر ، ثم نعجب كيف ينحرف الشباب . إن إهمال التربية الدينية هو قص من جذور الشجرة ، ثم نتساءل عن سبب اصفرار الأوراق .

إن العمل إيمان . . والإيمان عمل . . وفى عصور الكلال ، كان الكلل يتسرب إلى الدين فيغدو ظاهرًا ومظهرًا . . . وإلى العمل فيغدو مسخًا وقميئًا .

أن يكون الفرد منا إنسانًا ، يتحتم عليه أن **يضيف** بما حمل من مسئولية الخلق وأمانة الخالق . . هنا يتدين العامل لأن عمله فى ذاته ورع وتقى .

لقد أكد الإسلام العمل كما لم يؤكده دين قبله .

وفى كتاب « الفروسية » لابن القيم ، قصة صغيرة تدل على تقديس أهله للعمل . فقد نودى للصلاة ، والشباب يزاولون « الرمى » . وارتفع صوت يقول : حانت الصلاة فجاءه الجواب :

دعهم . . . إنهم فى صلاة . مع تسليم ابن القيم ككل مؤمن بوجوب الصلاة ولزوم أدائها عند النداء .

(أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى)[1] .

(إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه)[2] .

(إنا لانضيع أجر من أحسن عملا)[3] .

نداءات للدين تترى .

وقد ورد لفظ العمل ما بين اسم وفعل فى ثلاثمائة وخمسين موضعًا ونيف .

وهو احتفاء بالعمل ، واحتفال بدلالته ومعناه ، ودوره فى حياة الإنسان والأديان .

الإسلام والإنسان :

الإسلام لكل الإنسان ولكل إنسان .

---

(١) سورة آل عمران – الآية . ١٩٥ .

(٢) سورة فاطر – الآية : ١٠ .

(٣) سورة الكهف – الآية : ٣٠ .

احتفل بالبناء النفسى للإنسان ، عاطفته وجسمه وعقله ، فى رعاية لكيانه كله . .

إن تراث الإنسان كله صور مرئية منه .

إنه أمانة من عند الله ، ولهذا أيضًا حمله الأمانة .

وهو إنسان حين **يزكو** .. فالله حين يصف النفس وصاحبها يقول : (**قد أفلح من زكاها**) .

كرم الله الإنسان حين جعل روحه سرًا من أمره . . سرًا مودعًا فى كيان الإنسان وفى علم الله . حتى الموت يقف عند الأعضاء التى هى آلات للروح تستعملها . . أما الإنسان ، فهو المعنى المدرك للعلوم والآلات واللذات ، وهو بهذا المعنى لا يموت . .

الموت نقل الإنسان إلى عالم آخر ، ينكشف له فيه ما لم ينكشف له فى الحياة . وهنا نلمح الحديث « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » الموت عند الإمام الغزالى فى (إحياء علوم الدين) معناه تغير الحال فقط .

هذه نظرة الإسلام بما فيه من حديث البعث والآخرة ، إلى الموت . والذين ظنوا الموت عدمًا بلا نشر ولا حشر ، ملحدون ، كما يقول الغزالى . والإسلام بهذا المفهوم للموت ، يحض الإنسان على العمل وتجويده فى السلم ، ويدعو إلى الفداء والاستشهاد فى الحرب . .

نظرة الإسلام إلى الموت :

إن سرًّا من أسرار الإسلام ولمحة من عبقريته ، **نظرته إلى الموت** . فالموت فى نظر أتباعه إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة .

هذه الرؤية للموت ، سر من أسرار عظمة الإسلام ، إذ أقبل معتنقوه على محاربة الفرس والروم غير هيابين أو خائفين .

سئل عمرو بن العاص عن أحوال جنده عند فتح حصن بابليون فقال :

– كان معى قوم الموت أحب إليهم من الحياة .

إن سرًا من أسرار الإسلام ، إيمانه باللا محدود . ومن هنا تكون الحياة مهما كانت « مغرياتها » محدودًا فى النهاية ، وتكون الآخرة « لا محدودا » .

إن الموت من الناحية السيكولوجية أيضًا ، هو الولادة فى الأهمية . . إنه هدف للحياة الكبرى على مستوى الكون لا المستوى الفردى .

إنه نقطة التمام لا النهاية فى أحد الآراء . ولهذا يجب أن يحقق الإنسان ذاته وعمله قبله . ومن هنا نفهم الآية ونفهم فهم الرسول لها (**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينًا**) .

المتصوفة يدينون بالقول (مت لتحيا) . ويسمون الموت قطع العلائق فالذى خرج من الحياة ، ميت فى الظاهر ، ولكنه فى الحقيقة تجرد من الدنيا ، وتجرد فوقها . . يعرفها من عالم الروح . حتى الجسم يتخلص من أوصابه .

ومادام الموت نقطة التمام لمن عاش حياته فى وفاء بمعانيها ، وامتلاء ، ففيم الحزن إلا على فراق ؟ حضرت الوفاة بلالا فارتسم على وجهه سلام الرضا ، فسأله أهله سره فقال :

غدًا ألقى الأحبة ، محمدًا وصحبه . .

وفى القرآن الكريم (**ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون**) .

الأمل والتفاؤل من سمات الإسلام حتى الموت : فهو يقابل مخاوف الإنسان

الكبرى (الموت والمجهول) بحياة البرزخ ونعيم الآخرة .

ولعله سر من أسرار الإسلام ، ذلك التسكاب من العزاء والسلوى .

علاقة الإنسان بخالقه فى الإسلام :

وإعزازًا للفرد ، واعتزازًا بالإنسان ، جعل الله الصلة بينه وبين المرء صلة مباشرة دون وسيط يتلقى الاعتراف ، أو يستنزل الغفران . (**وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان**)[1] .

الناس فى شرعة الإسلام ، سواء . . . أقربهم إلى الله أدناهم من طاعة وأبعدهم عن معصية ، وأحسنهم إلى الناس وأوفاهم أمانة وعهدًا . فلا دين لمن لا أمانة له . . ولا دين لمن لا عهد له . . ولا دين لمن لا خلق له ، وإن صام وصلى وهمهم وانتمى .

(**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا . والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون**)[2] .

الإسلام على فطرته دين راق منظم رفيع الأسلوب فى التفكير والتصرف والحديث ، حديث الناس وحديث النفس ، والحديث الأسمى الذى ترقى فيه الكلمات إلى رحاب الله نداءً ودعاءً .

---

(١) سورة البقرة – الآية . ١٨٦ .

(٢) سورة البقرة – الآية . ١٧٧ .

وليس من الدعاء أو العبادة ، التبتل والانقطاع للمناجاة (**ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها**)[1] .

فما كرم الله الإنسان بالعقل إلا ليفكر ويسعى ، ويكون قوة بناءة خالقة تثرى الحياة وتنهض بالمجتمع وتتطور معه .

ويذكر العالم الكبير الشيخ محمود شلتوت ، أنه صح عن النبى عليه السلام أنه قال لقوم أرادوا رفض الدنيا والترهب : « إنما هلك من كان قبلكم بالتشديد . . شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، فأولئك بقاياهم فى الديار والصوامع ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به واستقيموا يستقم بكم » .

وأنه قال : « إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا ، وإن الله أمر المرسلين بما أمر به المؤمنين فقال تعالى (**يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا**) » ، وقال (**يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم**) بل قال (**يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولاتسرفوا إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة**) .

والسر فى ذلك كما يقول عالمنا الجليل : أن الطيبات نعم الله على الإنسان ، والله يحب من عباده أن يقبلوا نعمه التى تدعوا إليها فطرهم ، ويحب أن يرى أثرها عليهم ، ويكره لهم الجناية على فطرهم بمنعها حقها .

والدعاء فى الإسلام له آدابه . . وسمته . . وأوقاته التى ترجى الإجابة فيها ،

---

(١) سورة الحديد – الآية : ٢٧ .

بل أماكنه المستحبة ، واستهلاله والخواتيم . فمن آدابه الطهر وخلوص القلب وتمام التوجه .

ومن آدابه ، استقبال القبلة . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يستقبلها إذا دعا أو صلى .

ومن آدابه ، خفض الصوت حتى يكون بين المخافتة والجهر . حدَّث أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه ، قال : لما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر أو قال : لما توجه رسول الله (ﷺ) ، أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير : الله أكبر ! الله أكبر ! لا إله إلا الله . فقال رسول الله (ﷺ) : « أربعوا على أنفسكم ، إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا ، إنكم تدعون سميعًا قريبًا ، وهو معكم »[1] .

والدعاء بما يحمل من معنى الاتصال بالله ، يكون فى كل وقت وإن كان يطيب فى أوقات حببها إلى الناس ما وقر فى نفوسهم من فضلها وبركتها أو جوها التأثيرى ، منها : ليلة القدر ، ويوم عرفة ، وشهر رمضان ، ويوم الجمعة ، وجوف الليل عندما تسكن الضجات وتهدأ الأصوات ويغفو الشر وترسب فى قاع الظلام ضمائر حرمت النور ، وتسهر نجوم على أبواب السماء المفتوحة لتستقبل سبحات مؤمنة ودعوات ضارعة ، وأخرى متفزعة ليس بينها وبين الله حجاب .

ويكرم الدعاء عند الصف فى سبيل الله . . وفى السجود . ومن توقيته المفضل ، مكان بورك فيه أو تردد بين جنباته ذكر الله بكرة وأصيلا ، كالمسجد

---

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٤ – كتاب المغازى ٣٨ – باب غزوة خيبر كتاب (اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان) ص ٣٩٣ للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى .

الحرام والمسجد الأقصى أو عند مثوى الأعظم العطرات حيث روضة الرسول أحمد الذى كان يدعو ربه « اللهم آت نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها . اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع » .

هكذا كان يدعو الرسول ربه ، وهو الذى أدبه فأحسن تأديبه ، فما ضل وما غوى . . . ودلالة هذا أن الدعاء صلة من صلات تربط بين الإنسان وخالقه ، تطهره وتزكيه . فلفظة الدعاء من ألفاظ السلامة والأمل بما تحمل من معانى اللياذ والرجاء . . . الاستهداء والعطاء . . بما تحمل من معانى الانتصار من ظلم ، أو الانتصار عليه .

(وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدًا أو قائمًا)[1] .

(فإذا مس الإنسان ضر دعانا)[2] .

(أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء)[3] .

وحين استوهب زكريا ربه ، دعا :

(هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة)[4] .

وحين العطاء :

(لهم فيها فاكهة ولهم مايدعون)[5] .

---

(١) سورة يونس – الآية : ١٢ .

(٢) سورة الزمر – الآية : ٤٩ .

(٣) سورة النمل – الآية : ٦٢ .

(٤) سورة آل عمران – الآية : ٣٨ .

(٥) سورة يس – الآية : ٥٧ .

وإذ نفد الصبر :

(**فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون**)[1] .

(**فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر**)[2] .

والدعاء من الألفاظ الدمثة فى اللغة ، ولهذا اقترنت مادته فى القرآن الكريم برسالات الأنبياء والمصلحين ، دعوة وتوددًا إلى القلوب تتفتح عليها مسالك الإصغاء :

(**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين**)[3] .

(**قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارًا**)[4] .

(**وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى**)[5] .

(**قل هذه سبيلى أدعو إلى الله**)[6] .

(**ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم**)[7] .

مادة واسعة متشعبة الذكر فى كتاب العربية الأكبر .

شخصية الفرد فى الإسلام :

وحين احترم الإسلام ، الإنسان ، سحب الغرب أو العصر الحديث السجادة من تحت قدميه . إن أزمة الإنسان المعاصر ، أنه أُبعِد من الصورة .

---

(١) سورة الدخان – الآية : ٢٢ .

(٢) سورة القمر – الآية : ١٠ .

(٣) سورة النحل – الآية : ١٢٥ .

(٤) سورة نوح – الآية : ٥ .

(٥) سورة إبراهيم – الآية : ٢٢ .

(٦) سورة يوسف – الآية : ١٠٨ .

(٧) سورة الأنفال – الآية : ٢٤ .

أصبح إنسانًا **نمطيًا** ،حين لا يميز إنسانًا عن آخر **إلا صفة فريدة فيه** .

الإسلام موهبته أنه مضاد للعقلية الحشرية والحشدية . إن اعتماد الإنسان على الله يشد المرء إلى سلطة أخرى غير سلطة الدنيا . . وبدون مسئولية الفرد أمام الله تصير الأخلاق أمورًا تواضعية . والإنسان الطفل هو الذى يعتمد على الحزب والزعيم والحكومة . . . ومن هنا يكره الممتازون التبعية من أى لون . أما رجل الحشد فيتوهم أن القمة ممثلة فى الحزب ، أو الحكومة تحقق له كل شيء . حالة وهميه أو الحلم الطفلى . . . إنه الارتداد إلى جنة الرعاية الوالدية . . وعندما يسود الوهم بأن الحكومة على كل شيء قديرة ، يكون الطريق إلى الاستبداد ممهدًا . . . وهنا يكون الاستبداد الفردى لاحقًا بالضرورة والمنطق .

الناس فى العصور الوسطى كانت ترى الإنسان عالمًا صغيرًا « ميكروكوزم » وهى نظرة سليمة . إنه يحصل على مطابقة الكون ، بالتأمل ، وبفضل غرائزه التى تربطه ببيئته . . . وإن كانت هذه الغرائز كثيرًا ما تتصارع ، لأن ثمن هذا أن يكبت باقى الرغبات . . . وهو ما تسميه البوذية « التعلق بعشرة آلاف شيء » .

هنا يحتاج « مثالية » الدين الراسخ فى نفس الإنسان مهما جحد .

لا يمكن أن يسلب أحد ، إنسانًا ، إلهه . ومن حاولوا هذا ، أعطوه إلهًا آخر .

فالشيوعية ترفض الدين حتى تنفرد بالسلطة :

إن الرعب الذى أوقعت فيه الديكتاتورية ، الإنسان ، هو قمة الفظائع التى اقترفها الغرب . . . فحمامات الدم التى أغرقت الدول الأوربية فيها بعضها

بعضًا ، والجرائم التى ارتكبها المواطن الأوربى ضد الشعوب السمراء أثناء استعماره لها ، حلقة متصلة .

إن أوربا تقع فى خطأ اسمه « العوامل الخارجية » . كل شىء يأتى من خارج الإنسان ! بينما التغيير الحقيقى هو الذى **يأتى من الداخل** ، أى تغيير نوعية الإنسان كما فعل الإسلام .

الشر القار فى الإنسان ، له أبعاد جسيمة . الإنسان فى محاولة إنقاذ نفسه من وطأة الإحساس به ، يعزوه إلى عوامل خارجية . « إسقاط » مشجب سهل يعلق عليه . . فالشيوعية تتهم الرأسمالية بالمثل .

إن الحركات الجماهيرية تنزلق فى وهم الأعداد الجماهيرية . ووسط صخب الأغلبية يمكن اختطاف الأمانى بالقوة .

سئل يونج عن سر أزمة أوربا فى كتابه The Undiscoverd Self فقال (هى ضياع الفرد) .

ولم يكن « يونج » وحده . فممن نقدوا الحضارة الغربية « برناردشو » ، فى كتابه (دليل المرأة الذكية) ، وديوى فى كتابه عن الفردية القديمة والحديثة Individualism Old and New الذى أشار فيه إلى التشقق فى النفس الأمريكية . و Alexes Karelle الفرنسى فى كتابه « الإنسان ذلك المجهول » .

إن كمال الحضارة أن يكون كل فرد فى المجتمع له مكان لا يغنى غناءه أحد فيه . . . ولكن المناهج الموحدة والإذاعة والوسائل الإعلامية ، من شأنها أن تخلق إنسانًا جماهيريًّا . . . إنسانًا نمطيًّا كاليونفورم . إنسانًا مقيدًا بالحشدية . إنسانًا صفرًا مسلوب الحرية . ومليون صفر متجاورة لا تصنع واحدًا

صحيحًا . . وهنا ضاع الإنسان الحقيقى ، خاصة فى الغرب وسط الأنظمة الظاهرية من دنيوية ودينية . . . إنه تحت سلطة الدولة أو الكنيسة أوكليهما . . . مثل هذا الإنسان من السهل أن ينقلب إلى النقيض ؛ لأنه أصلا لم يحقق ذاته . . . ولم يحقق لها استقلالا خاصًّا فسرعان ما يتعرض لتشقق شخصى وثقافى . . .

والدين ليس المبادئ الأخلاقية أو الوصايا العشر ، وليس العقائد مهما كانت مستقيمة . ليس هذا ولا ذاك ، فكلاهما لا يشكل الأساس لحرية الفرد من أسر « الحشدية » التى هى المجتمع أو الكتلة . فالوصية « لا تكذب » لم يحققها اليهود ، بل كذبوا وكذَّبوا . حتى الرسل قتلوهم وقلبوا الوصايا العشر فحبطت أعمالهم . .

فرق بين العقيدة والدين . فالعقيدة اعتراف بالإيمان ، ولكن **الدين علاقة الفرد بالله فى** توحيد يحرر الإنسان ويحفظ عليه توازنه النفسى ويصله حين القنوط برحمة الله . حتى الجاحد أو من يعبد الله على حرف ، يلجأ فى الخوف وحين البأس إلى القوة العليا .

كان يونج يقول : « نحن الأوربيين نتمنى أن نتسلق قمة ديانة فلسفية ، ولكننا عاجزون لأننا حديثو عهد بالتحضر . قصارى ما نصل إليه ، أن ننمو إليها . . . ننمو فى اتجاهها » . . .

ويتساءل فلهلم Velhilm : لماذا نترجم عن الشرق ونتعرف على الشرق ؟ إنها حاجة الأوربى إلى الجانب الروحى فى نفس الإنسان .

أوربا فى قحطها الروحى ، تجرى وراء إشباع الروح فى اليوجا .

إن الوجودية تبالغ فى تأكيد الفردية . . . حين تبالغ النازية والفاشية فى

مسح الفردية لتأكيد القطيع . أما الإسلام ، فقد فتح باب الأمل والعمل والرزق . يرزق الله من يشاء بغير حساب ، ولكن فى الأموال حق معلوم للسائل والمحروم . وفرض الزكاة وحث على التراحم والتواد ليبنى المجتمع بالمحبة ، والتراضى ، لا بتبطيط المستويات ودكها إلى أسفل بدعوى تحريرها من هموم الضرورة ولقمة العيش . . . وكم من جرائم ارتكبت باسم هذا التحرير ، لأن النظريات شيء آخر غير الاقتراب من الفرد وتفهم احتياجاته الحقيقية .

إن مجرد وجود علم النفس ، دليل على أزمة الإنسان المعاصر المتشقق نفسيًّا فى زحام الشعارات والأجهزة . . .

إن فاتحة كتاب الإسلام دستور للعلاقة بين الله والإنسان ، الله فيها هو الرحمن الرحيم . . . أمل كبير فى **التقبل** والعفو والرحمة تظلل الإنسان بالطمأنينة من لدن (**الرحمن الرحيم**) .

إن الرحمة فى العهد القديم لم تذكر إلا نادرًا . . فى العهد القديم : إن الله حين أراد أن يعذب بنى إسرائيل على جرم ارتكبوه ، وما أكثر ما ارتكبوا ، (أنبه على ذلك موسى) ! ! والتأنيب فى أحسن التبريرات يكون من النظير .

تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا . فمن حقت له العبادة ، يجل عن الحساب بله التأنيب . . ومن ليس له كفوًا أحد ، تعالى عن النظراء .

الله فى القرآن الكريم ذو الجلال والإكرام إلى الحد الذى يبنى فيه فعل الشر للمجهول ويقول (**وأنا لاندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدًا**)[1] .

---

(١) سورة الجن - الآية : ١٠ .

شخصية المجتمع فى الإسلام :

إذا ضممنا آيات الشورى فى القرآن ، إلى آيات المجادلة الحسنة ، فإننا نلمح حض القرآن الكريم على وجوب دور الرأى العام . . وأن الرأى العام كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة فى كتابه « التكافل الاجتماعى فى الإسلام » له **رقابة نفسية** .

ومعنى أن الرأى العام له **رقابة نفسية** ، أنه إذا صلح هذب الآحاد والجموع ، وإذا فسد وتقاعس ، فسد المجتمع . (وإن الجماعة كلها تكون آثمة إذا رأت شرًّا يسير رافعًا رأسه وسكتت عنه . . وإن الأمة كلها تعتبر مشتركة مع الآثمين إذا رأت الإثم ولم تعمل على منعه ، ولقد ذم القرآن الكريم بنى إسرائيل ؛ لأنهم أفسدوا مجتمعهم بترك الآثمين يرتعون فى إثمهم من غير أن ينهوهم . .)

(لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون)[1] .

ووسيلة الإسلام إلى إيجاد مجتمع فاضل : الحياء ، والاستتار ، فالحياء قيد اجتماعى نفسى ، والاستتار حصر للشر . « قد تكون العقوبة علنية ، ولكن الجريمة يجب ألا يعلم أمرها إلا مع عقوبتها ؛ لأن إعلانها يفسد الجو الخلق . . للمجتمع . . ولذلك اعتبر الإسلام من يرتكب جريمة ويعلنها قد ارتكب

---

(١) سورة المائدة – الآية : ٧٨ ، ٧٩ .

جريمتين : جريمة الارتكاب وجريمة الإعلان » ،[1] .

عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن لكل دين خلقًا ، وخلق الإسلام الحياء » .

وعنه عليه الصلاة والسلام قال : « الحياء شعبة من الإيمان ولا إيمان لمن لا حياء له » .

وأنه قال : « الحياء والإيمان قرينان ، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر » .

وذكر الحياء فى مجلسه صلى الله عليه وسلم ، فقال بعض الحاضرين : يا رسول الله . . الحياء من الدين ؛ فقال : بل هو الدين كله .

وهكذا رفع النبى صلى الله عليه وسلم من شأن الحياء فجعله خلق الإسلام ، ثم رفعه فجعله شعبة من الإيمان ، ثم رفعه فجعله قرينًا للإيمان ، إذا رفع أحدهما رفع الآخر ، ثم رفعه فجعله الدين كله .

إن الحياء هو منبع الفضائل . فما الحياء إلا يقظة الضمير ، فالإنسان الحى يراقب الله فى السر والعلن فهو لا يظلم ولا يخون . . إنه يستحى من الله أن يراه خاطئًا أو مذنبًا أو كاذبًا أو مسيئًا إلى خلقه .

يقول الله تعالى (**إنما يخشى الله من عباده العلماءُ**) .

على أنه ليس من الحياء كتمان الشهادة والسكوت عن الحق ، والاستخفاء فى طاعة الله أمام العصاة ، فذلك ضعف فى الشخصية وفى الشجاعة الأدبية . . حقًّا إن القابض على دينه كالقابض على الجمر . . ولكن الواثق من نفسه ، الملتمس رضا ربه وحده ، لا يهمه المخلوق فى سبيل طاعة الخالق .

لقد أرضى الإسلام « الفردية » و« الجماعة » . فهو لا يأخذ بأى النظامين

---

(١) كتاب (التكافل الاجتماعى فى الاسلام) ص ١١ .

جملة أو تفصيلاً ، فهو (لا يمحو الإنتاج الفردى ولا يمكن تلك الحرية من كل شيء ، .

فحرية الإنتاج ، والحرية الشخصية بكل ضروبها ، وحرية الملكية الفردية ، كلها كفلها الإسلام للفرد ، على ألا يضار الغير ، وإلا قيد الحق تقييدًا مدنيًّا .)[1]

والعبادات فى الإسلام وإن كانت فى ظاهرها علاقة العبد بربه ، إلا أن الإسلام قصد بها فيما شرعت له ، **تربية الضمير الاجتماعى** الذى يحكم الميول والنزعات قبل أن يحكمها القانون الوضعى الذى قد يوجد فى النفس ما يبرر مخالفته . فإذا لم تحقق العبادات هذا الهدف البعيد ، غدت قشورًا بلا جوهر وزيفًا خادعًا .

وفى ضوء هذا الفهم العميق ، مضى الشيخ محمد أبو زهرة يتحدث عن أركان الإسلام من صلاة وصوم وحج وزكاة ، وتطرق من هذا إلى حكمة الإسلام فى الكفارات التى هى فى جوهرها تكافل اجتماعى .

إن **الحرية الفردية** تكيفها نفس صاحبها بقيود الواجب قبل أن تقيدها قيود خارجية ، **وشعوره** بحق الناس ووجوب مراعاة مشاعرهم . فإذا لم يتوافر القيدان الداخليان ، تدخل القانون لا لتقييد الحرية ، ولكن لتقييد الفهم الخاطئ لها . . لتقييد الانطلاق فيها بغير مراعاة حقها ، فإن الانطلاق المطلق مقيد للحرية العادلة .

أما **الملكية** باعتبارها « حق أعطاه الله تعالى وحده لعباده فى قيود وحدود » ص٢٣ ، فالإسلام يحترم حق صاحبها فلا تنزع منه .

---

(١) المصدر السابق ص ١٤ .

وقد ناقش الشيخ أبو زهرة ، الرأى القائل بأن الملكية وظيفة اجتماعية ، فأقر هذا التعبير على أن يعرف أنها « بتوظيف الله تعالى لا بتوظيف الحكام ، لأن الحكام ليسوا دائمًا عادلين » .

ولكن ولى الأمر **العادل** « له أنه يتدخل لتقرير القيود على الملكية إن لم يلاحظها المالك . وقد أثر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه تدخل فمنع بقاء الملكية عند المضارة مع تعويض » .

وضرب الشيخ أبو زهرة مثلاً ، واقعة سمرة بن جندب مع الأنصارى فى حضرة الرسول ، وقصة الضحاك ومحمد بن مسلمة فى مجلس عمر .

كما أوضح نقطة هامة ، هى : أن الملكية مع ماكفل لها الإسلام من ثبوت واحترام ، فإن الحقوق التى تجب عليها تتزايد فى الظروف القاهرة كالمجاعة ، بما يقرب من إشاعتها وتعميمها تحقيقًا للتكافل الاجتماعى الذى يستهدفه الإسلام فى أحكامه وعباداته على السواء وهنا ضرب مثلاً « سنة الرمادة » فى عهد عمر ابن الخطاب رضى الله عنه وأرضاه .

إن ملاك الرأى فى الملكية ، أنها حق للآحاد فى الحدود التى أشار إليها الدين ، وهى بهذا من قبيل احترام الشخصية الإنسانية ، حتى لا يكون الآحاد كالجماد ، ويكون البناء الاجتماعى كالأحجار بعضه بجوار بعضه من غير إرادة إنسانية .

إن الإسلام لم يأت لتنظيم الدولة فقط ، أو فرض سلطانها فى كل شىء ، بل جاء لإيجاد مجتمع تتلاقى فيه الإرادات الإنسانية الحرة نحو هدف واحد : وهو إقامة مجتمع سليم قوى ، لا تفنى فيه قوة فى قوة أخرى .

أما عن قيود الملكية المانعة ، فهى الضرر المؤكد الوقوع والضرر الذى يغلب

على الظن وقوعه ، والضرر الكثير غير الغالب . أما إذا كان الضرر الناجم عن الحق الخاص قليلاً ، فالحق باقٍ على أصل المشروعية ، لأن ضرر المنع ضرر مقطوع به بالنسبة لصاحب الحق ، وهو صاحب الإذن الخاص فلا يلتفت إلى الضرر القليل . . والشرع الإسلامى فى مقرراته ، اعتبر غلبة **المصلحة** ، ولم يعتبر ندرة الضرر أو قلته ، ص ٦٦ .

وقد استند المؤلف فى هذا إلى كتاب « الموافقات » للشاطبى . .

ومن حكمة الإسلام ، الميراث « **فالحقوق فى الشريعة الإسلامية تورث** ما دامت قابلة لأن تنتقل من ذمة إلى ذمة ، وتخلف ذمة ، ذمة أخرى فى الأموال » ص٦٧ . وقد « عد النبى عليه السلام ، المواريث نصف العلم الإسلامى » ص٦٧ .

ومن حكمة الشارع الإسلامى ، **جعل الوراثة فى الأسرة مجتمعة مع أولوية بعضها على بعض** وهى حكمة أجل وأكرم من نظرية الشيوعيين ونظرية الأفراديين ، وكلاهما **اطراح للأسرة** .

وقد عالج الإسلام العجز فى الأسرة **بإلزام الوارث بالنفقة** . ومن إنسانية الإسلام « **وجوب النفقة مع اختلاف الدين ، إذا كانت نفقة الأصول والفروع** » « المذهب الحنفى »..

ومن أصالة الإسلام فى هذا الباب ، أن أوجب النفقة على الأسرة أو الدولة لطالب العلم **ذى الموهبة** التى « تمكنه من السير إلى **أقصى** مراحله لأن **المواهب يجب أن تظهر** » ص٧٤ .

ومن نبله فى هذا الباب ، أنه حين عرّف من تجب عليه النفقة بأنه ذو اليسار المكسب ، لم يشترط أن يكون الولد بالنسبة لأبويه متيسرًا لكى يجب أن يعينهما

فى شيخوختهما ، فقط القدرة على العمل . فمن لا يسوِّغ التأفف منهما ، لا يجوز تركهما جائعين .

ومن لفتات التقنين الإسلامى ، أن قضايا النفقات تكون من غير رسوم تدفع ، كما هو المقرر فى الفقه الإسلامى .

وكما أوجب الإسلام النفقة للعاجز على ذوى الفضل من أسرته ، فقد أوجبها على الأسرة الكبرى وهى المجتمع ممثلاً فى الدولة ، إذا لم يكن فى القرابة قاصيها ودانيها من يستطيع الإنفاق على الفقير العاجز . وهنا يقول المؤلف العالم .

(وإذا لم تقم الدولة بواجبها فى ذلك ، فإن القضاء يحكم عليها ويلزمها كما قرر الفقهاء ، وذلك مبدأ لم يُسبق به الإسلام) .

وفى كل ناحية لابدَّ للفقه الإسلامى من لفتة . ولفتته فى باب الزكاة أنها « تصرف فى البلد الذى جمعت فيه ، ولا تنقل إلى غيره من بلاد الدولة الإسلامية ، إلا بما يفيض عن حاجات هذا البلد ، وما يفيض عن المجموع يصرف فى الجهاد فى سبيل الله » .

ليس دينًا فحسب ، ولكنه هدًى وتشريع واجتماع وتحرير الإرادة الإنسانية من رق الاستغلال والاضطرار والقهر والتبعية المادية أو النفسية .

الإسلام ثورة إنسانية :

لقد أحدث الإسلام ثورة فى نفس الإنسان ، تتمثل فى موقف الخنساء من الموت . فحين مات أخوها صخر فى الجاهلية ملأت الدنيا بكاءً ونحيبًا . . وحين مات أولادها الأربعة فى موقعة إسلامية ، احتسبتهم فى صبر نبيل وهى تقول :

« الحمد لله الذى شرفنى بموتهم . . وأرجو أن يلحقنى بهم عما قريب » .

الإسلام ثورة إنسانية ، تتمثل فى النقلة التى حدثت لأبى ذر الغفارى الذى تأثر تأثرًا خاصًا بالعدل والإحسان والمساواة فى الإسلام .

الإسلام ثورة إنسانية ، حين جعل العبادة لله وحده مما أطلق حرية الإنسان ما دام لا إله إلا الله .

هذا المعنى ، يجب أن تلتفت إليه التربية فى البيت والمدرسة ؛ لتستقيم النشأة ويستقيم الإنسان ، فإن الخط المستقيم مركز الثقل فيه داخله ، ولكن الخط « المايل » مركز ثقله ، خارجه . والإنسان الذى داخله خاوٍ بلا يقين يرتكز عليه ولا إيمان يستند إليه ، أو مبدأ يصدر عنه ... إنسان لا يستقيم ولا يستقيم له أمر ... إنسان حاله « مايل » .

وحين يتجوف من المعنى ، أو يتخوف من مخلوق مثله ، أو يتخوى من القيمة ، فهو خاوٍ خابٍ . ولا تستوى الظلمات والنور .

حتى الرسول رجل من رجالنا .. أكد هذا القرآن فى وضوح ، وأكده هو نفسه فى تواضع محبب وبساطة تشع الصدق « أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد » . وبينما ينتسب غير المسلمين إلى أنبيائهم ، فنحن ننتسب إلى الإسلام . فنحن مسلمون ، لا محمديون ، وهو فرق واسع الدلالة ..

لقد غلبوا الفرس والروم ، لا بالسيف ، فما عند الروم والفرس من السلاح أكثر ، ولكن بالتوحيد . وليس التوحيد كلمة لا إله إلا الله تقال حرفية أو ببغاوية ، ولكن رؤية رائعة ، ما دام لا إله غيره ، ولا قوى غيره ، ولا سلطان غيره ، فلا يخشى غيره ... فما عداه صغير وضعيف ومقدور عليه ... ولولا هذا لتهيبوا الإمبراطوريات ولخافوا الأباطرة .

الله أكبر :

هزمت الروم والفرس فى القديم .

وهزمت أمريكا وإسرائيل فى الحديث . .

إن انتشار الدعوة الإسلامية من جنوب الصين إلى جنوب فرنسا ، يقف أمامها الذهن بمنطقه وقياسه مشدوهًا . سيف ؟ لا يمكن أن يصنع السيف هذا . فى أندونيسيا ما يربو على مائة مليون مسلم . هل فتح الإسلام أندونسيا بالسيف ؟

لقد فتح هولاكو بالسيف ، ولم تقم له قائمة ولم يدم له ذكر ، ولم يحبه قلب ، ولم يقتنع به عقل .

إذن ليس السيف .

إن الأمور تقيَّم بالجذور لا بالقشور .

الإسلام ثورة ثقافية :

والإسلام ثورة ثقافية حين دعا إلى التوحيد بعد الأصنام .

وهو ثورة ثقافية ، حين أعاد بناء الإنسان بدءًا بالإنسان البدوى الجاهلى .

وهو ثورة ثقافية وإنسانية معًا ، حين رفع كرامة المرأة بعد الوأد .

وهو ثورة ثقافية ، حين جعل الرسول فدية الأسير تعليم عشرة من الصبيان إيمانًا بالعلم وعملاً على نشره . .

وفى تقريره : « لمن أخطأ أجر ولمن أصاب أجران » دعوة إلى البحث والاجتهاد والتجريب .

وانطلاقًا من هذا الأفق ، حفظ المسلمون الحضارة القديمة حفظ الكريم الذى ينمى ويضيف .

ثورة ثقافية ، تتمثل فى الحديث الكبير ، كما تتمثل فى آية صغيرة (**ولهم آذان لايسمعون بها**) إذن السمع ليس الجهاز السمعى ، ولكن **النفاذ إلى دبيب الصمت** .

من قوة الإسلام ، ووثوقه فى نفسه ، **أنْ دعا إلى التفكير والتأمل** .

ليس فيه ضعف يخيفه ويخفيه بتحريمه المناقشة .

إن الثقافة الإسلامية واعية بالخلفية الروحية للوجود . . . تلك الخلفية التى غابت عن الوعى المعاصر . .

ترى الله حياةَ الحياة ، أى السر الأسمى لها .

وترى إبداع الكون ، فى اتساقه الغريب . .

ومن ثم ، حققت هى الاتساق فى أسلوبها .

كانت المدارس الدينية « الشافعية – المالكية – الحنفية » تدرس مع علوم الدين : الفلك – الهندسة – الموسيقى ، وهى رؤية فى العلاقات المتجانسة بين العلم والدين والفن يسمونها « **العلاقات الفاضلة** » . . .

الإسلام ثورة ثقافية ، حين ربط الإنسان بالكون الرحيب ولم يحصره فى ركن واحد تحت اسم العلم أو المادة أو العصرية . يقول جيرالد هيرد فى كتابه The Third Morality القيمة الخلقية الثالثة : « إن الغرب تعس ومتخلف بتحكيمه القانون العلمى فى كل شىء حتى غدا الإنسان آلة قابلة للتحكيم والتحكم . وما دام كل شىء (ماكينة) فكل شىء لا هدف له ولا أخلاق له ، ولا قيم له » .

كل ما يملك الغرب ، القدرة على التصنيع . . . والقدرة وحدها قد تدمر .
أما الإسلام فهو تحقيق لا بالشفاه ، ولكن بالقلب والعمل معًا .

والمعاصرة ليس معناها الانشغال بالزائف أو حتى بالطرائف ، ولكنها وعى بالمتاح للإنسان المعاصر . وهذا المتاح كثير من شتى ألوان المعرفة فى العلم والفن والصناعة ، ثم تمحيص هذا كله للوصول إلى الحقيقة ، ثم التواصل معها ، ثم وصل الناس بها . . . وكم فى الحقيقة من « صلات » . ولكن عصرنا تجارة ، تعيش على وسائل الحضارة ، ومظاهرها . وتجود اللعبة وتجيد فى البلاد الحديثة الثراء التى « تتحضر بالأدوات » . ولم تعصم الأدوات الحديثة « لبنان » من الحروب والفتن . إن المقولة : « رزق الهبل على المجانين » حقيقة اقتصادية .

وعندما تصبح الحضارة ، زيًّا وأداة ، والديانة نصوصًا وطقوسًا ، يتهاوى الإنسان ثم يهوى هويًّا .

إن السياسة إذا كانت تبريرًا للأخلاقيات ، أو غطاء لها ، فهى بربرية .

إن شفاء النفس بنقد الذات لا الآخرين . .

والإبصار رؤية الأسباب . . . أى منهج لا عشوائية . . .

إن الحياة الشاقة مشوقة وشيقة بالعطاء والبناء والإضافة والأمل ، ثم بالراحة بعد التعب . . . والمعاصرة . شوق إلى الحرية . . موضوعية التفكير . . . عالمية الرؤية . والحرية تكون بمعناها ووجودها لا بالشعار .

إن الهجرة فى تاريخ الإسلام ، ليست توقيتًا ، ولكنها نقلة من أفق إلى أفق . .

والسنة فى الإسلام هى المنهج .

الثقافة تنمية النفس ، فإن لم تثمر المقررات الطويلة والقراءات الطويلة ، تنمية النفس فلا غناء .

ماحك عقلك مثل اجتهادك . .

إن الخط المستقيم بين نقطتين لا خيال فيه ولا خصوصية .

إن قصة يوسف فى القرآن الكريم بما ترسم من أغوار النفس الإنسانية استطاع أحد المشايخ أن يجمعها فى جملتين فى هذه القصة :

رووا أن جمعًا من المشايخ القراء ، أرادوا حين طاب لهم الطعام ، أن يصرفوا زميلاً لهم عنه ، أو يشغلوه على الأقل ليستأثروا بالطعام كله فقالوا له :

– ارو لنا قصة يوسف . .

– وفطن إلى غرضهم فقال :

– ولده تاه وأبوه التقاه . .

ثم انقض معهم على الصحاف دون أن يضيع وقتًا طويلاً . .

فى رد الرجل ذكاء وظرف ، ولكن ليس فيه فن أو جمال التصوير .

الإنسان فى رؤية الإسلام ، هو **الإنسان الشامل** الذى يجمع فى ذاته المحدودة عوالم لا محدودة . . . كل العصور . . كل الأماكن بما دعاه إلى التفكير فى خلق السماء والأرض . . ليس مثل «كانديد» فولتير الذى (علق) على «مفيش» فعنده ليس هناك قلعة غير قلعة كذا . . ليس هناك بنت غير الحبيبة . . . ليس هناك . . إلخ . . .

الإنسان الحقيقى ، **قلب كبير** .

الثقافة ليست التخصص ، لأنه إذا اقتصر ، انغلاق أو جمود عند نقطة واحدة ضيقة . . ولكن الثقافة ، هى **كيف** الحياة فى مجموعها . . هى **إنسانيتها** .

إننا نستخدم عيوننا جهاز إخطار أو إشارات بصرية ، ولكن الإسلام يبارك الرؤية **البصيرية** .

سئلت هيلين كيلر بعد أن ولدت عمياء صماء عما تعتقد أنه أسوأ نكبة يمكن أن تحل بإنسان ما . . . فقالت : « أن تكون له عينان ولا يستطيع أن يرى » .

وهنا نفهم : « والله ولى التوفيق » أى يعطى الاستفادة والنماء مما تحصله الحواس ، فتسمع العين وترى الأذن . إن الأخذ الرشيد عطاء كامل كالنحل يأخذ رحيقًا ويعطى شهدًا . .

تقول المسيحية : « بثمارها تعرف الشجرة » وكذلك الإنسان بنتاجه وإنجازاته يعرف . الإنسان **قلب** هو الجوهر ، **وقالب** هو العلبة . . .

بدون الثقافة يظل القلب الإنسانى بذرة ضامرة . والزراعة Agriculture تنمية البذرة فى عالم النبات ، والثقافة Culture تنمية الذات فى عالم الإنسان . .

لقد أعلن يونج فشل الإنسان المعاصر فى التربية ، طالما لم يحقق الإنسان ذاته . يتباين الأفراد دون تمايز ، لأنه تباين فى الشكل الخارجى لا تباين **الخلق ، والتحقيق ، والشخصية** .

هذا الإنسان يجب أن يفكر ويتفكر . . ولكى يفكر يجب أن لا يخاف . لا يتعصب . حتى يقول الحق ولا يتجمد على الخطأ ، بل يعلنه فى شجاعة العز ابن عبد السلام ، اعتزازًا برؤية دائمة الخضرة .

وقد ننجح فى محو الأمية حتى لا يبقى بيننا أمى واحد . . . قد نبث المدارس والمسارح والمكتبات . . . ومع هذا لا نخلق « الإنسان الكامل » . . بل قد يكون هذا كله ضد هذا الهدف بما نلقنه من أخطاء عامدة أو ساذجة . .

إن الذهن أداة العلم . والغريزة وراء الجسم . ولكن **الروح هى التى تدرك الرباط الجامع لتوازن الحياة كلها** .

إن التقوى هى اتقاء نزعات الشر ونزغات الشيطان . والشيطان هو الجزء الثائر المحروم المنبوذ فى النفس ، والإنسان المتكامل نفسيًّا ، هو الذى اصطلح فى داخله الوعى واللاوعى .. والتكامل يشوق الإنسان ولو لم يدر إلى هذا اللقاء الداخلى . وقد وجدت الديانات لتغذى حنين الروح إلى ذلك التكامل .

لهذا وجدت الديانات . ولهذا عاشت .

الإنسان البدائى يعيش بروح القطيع . ويتملكه الرعب إن خرج على عرف الجماعة التى يعيش فيها ... هنا تأتى الأديان فتنظم نفس الإنسان وتمنحها الاستقلال النفسى . « افعل ما يطمئن إليه قلبك وإن أفتوك وأفتوك » يمنحها الطمأنينة النفسية ، التى تجعل « بلال » يعذبونه أقسى وأقصى العذاب فيقول : أحد ... أحد ... لقد اطمأن إلى عقيدة يهون بعدها كل شىء .

ولأمر ما ، يقول « هوايت هد » فى كتابه « العلوم والعالم المعاصر » .

« ربما إذا تشككنا فيما إذا كان التاريخ يتقدم بالبشرية أم لا ، فإن شيئًا واحدًا مؤكدًا يؤكد التقدم ، هو : **الدين** » .

والثورات يرتهن نجاحها وقيمتها بما تحققه من دفع التاريخ فى عملية إعادة بناء الذات . لا بصعود فرد إلى الحكم .

المسيحية على سلامها ، بهذا المعنى ثورة ، والإسلام ثورة عامة بما أعاد من صياغة مجتمع الجاهلية ، وبما أخرج من إهاب البادية أعلام الهدى .

الثورة الإنسانية دفع التاريخ ، لا برعونة فينكفئ الإنسان ثم تدوسه الأقدام الغوغائية ، ولكن تدفعه دفعًا محسوبًا وراشدًا ونبيلاً .

نحن فى الحياة اليومية نظلم أنفسنا حين نختزلها ونعيش دون مستواها الطبيعى بإغراء السهولة ، وبإغراء الاهتمامات الصغيرة من أغلال المهنة أو ماديات الكسب أو أضواء الشهرة . إنه انتحار جزئى ... انتحار غير محسوس ..

يقول الناقد الإنجليزى ريتشرز صاحب كتاب « أسس النقد الأدبى » : « إننا بحاجة إلى من يذكرنا بالمبادئ الهامة » . أى البديهيات المنسية ..

يصف القرآن الكريم الجنة فى قمتها بقوله : (آتت أكلها ولم تظلم منه شيئًا[1]) أى أعطته حقه فى النضج كما ذكرت .. فالعجلة وعدم الإتقان ، ظلم ...

ماذا لو نهج الإنسان نهج الجنة فأتى أكله لم يظلم منه شيئًا .. لا أن ينهج نهج السطحية فيهين إنسانيته ويهدر آدميته ، بالتفاهة والضحالة والركود والقعود ، ويغدو « همًّا » لا « همَّه » .

ماذا صنع القرآن :

إن القرآن الكريم ، كتابنا الأكبر ، لم ترتفع إليه بعد خطبة الجمعة أو مناهج التعليم فى شتى مراحله ..

إن القرآن الكريم ليس الوعد والوعيد وآيات تصور الجنة وآيات تصور النار ... القرآن الكريم صنع أربعة عشر قرنًا بما فيها من اجتماعات وسياسات .

القرآن الكريم أعاد بناء الإنسان على أرض الجزيرة وما حولها .. كتاب فجَّر كتبًا بل مكتبات . ولم يكن الدين موضوعها الوحيد ، بل الأخلاق والتشريع

---

(١) سورة الكهف — الآية : ٣٣ .

والاجتماع وسياسة الحكم وتقاليد السلم والحرب .

ويتجدد القلب فتتجدد المعانى فيه .

وتتمزق الأمة الإسلامية من الفرقة والتشتت والهوى والخطأ والخطايا أحيانًا ثم لا تموت .. لأن هناك شيئًا خفيًّا وقويًّا يربطها فلا تضيع ، ويمسكها فلا تتهاوى ... هذا الرباط الخفى القوى هو القرآن ...

وقد لا يعرف الناس هذا ، ولكنه واقعهم وحظهم الكبير .. وهذا الرباط لا يستثنى منه **غير المسلمين ممن يعيشون معهم ويلتقون بهم فى جنسية الوطن وعلى أرضه** .. فإن الخلفية الروحية التى صنعها القرآن الكريم ، نفحت الحياة فى البلاد التى تتكلم لغته ، فالتقى الكل على قيمتها بالتسليم والاتفاق حتى ولو لم يكونوا متدينين بالمعنى الحرفى فى نظر سدنة الدين ... أو لم يكونوا مسلمين ..

هذا المعنى الأكبر للقرآن الكريم ، لم يخطر ببال خطب الجمعة فكانت خَطَبًا ... لقد فات السادة الخطباء الذين يتصدرون لهداية الناس وهم يهددون المخطئ بالويل والثبور وعظائم الأمور ، أن القرآن الكريم يقول :

(**وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا**) . إذن الخطأ « جهل » لاجرم ..

لقد نفذ القرآن الكريم ، دونهم ، إلى ما فى البِشر من إيناس .. البشر علامة القدسية والفرح ...

شعاع من الرحمة .. عطاء من الحب .. خصب حتى ليقول الشاعر العربى البسيط :

وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى

ولكنما وجه الكريم خصيب

إلى هذا البشر نسب الله نجاح الدعوة الإسلامية - (**ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضوا من حولك**) . ولهذا كان أقصى وأقسى عتاب للرسول ، الآية : (عبس وتولى) . . . ولأمر ما سميت الإنسانية ، بشرية . . فليس من الدين - التنفير والترهيب والجهامة فى الوجه أو العبارة ، حتى لا ينفض الناس من حول خطبة الجمعة . . .

إن القرآن الكريم برؤيته للبشر والسماحة ، يمنح الحرية والجمال والحب للإنسان .

يقول القرآن الكريم : (**اقرأ باسم ربك الذى خلق**) .

لقد حفظت هذه الآية فى المدرسة الابتدائية والثانوية على أنها مفاجأة للرسول . كيف يقرأ من ليس بقارئ . . ولكنى اليوم حين أعيد قراءة القرآن لنفسى ، أرى كلمة (اقرأ) خطًّا فاصلاً كبيرًا بين مرحلتين من شخصية الرسول عليه السلام . فمحمد صلى الله عليه وسلم قبل الوحى غير محمد بعد الوحى . . .

محمد قبل الوحى تاجر قرشى يعمل لحساب الثرية السيدة خديجة . . كان أمينًا لها . . . وكان أمينًا للبشرية حين كان يعتكف شهرًا فى العام . . فى الغار يتفكر ويتأمل ويتعبد ، ولكنه حين قرأ باسم الله الذى خلق ، انتقل إلى أفق المعنى ، وخلف التجارة إلى أفق المعنى ، وخلف التجارة إلى الهدى والحق والتوحيد والسلام وتنمية النفس البشرية بعد المال . . خلف التجارة إلى الزراعة . . . زراعة النفس لتزكو . . .

هنا تكريم القرآن للقراءة والعلم بها . . .

كما كرم الكتابة حين أقسم بالقلم وما يسطرون . .

إنه العلم الذى يصفى نفس الإنسان ويقطّر وجوده . .

ما معنى (**وعلم آدم الأسماء كلها**) ...

أى علمه التعاطف مع الوجود كله ...

كما كان الرسول يعطف على الهرة ويسمى الأشياء التى يستعملها بأسماء جميلة .. إن العلم الحقيقى ليس الشهادات ولكن عملية **مصادقة للموجودات بهدف تحرير الإنسان . إن الإنسان فى رحلته الأولى التى بدأت من عصور ما قبل التاريخ ، شرع (يتريض) الرياضة العقلية فى حدود ما أتيح له من حقائق .. أى يتكيف داخليًا ..**

والعلم يحقق إنسانية الإنسان ويدل عليها .. فمن العسير والمستحيل أن تعلم الثور .. إذن الإنسان فى داخله استعداد للعلم ، وهذه أفضليته . والأفضليات أى القدرات الخاصة التى تحرره من الجانب الحيوانى المشترك مع الكائنات الدنيا .. الإنسان فيه من النبات والحيوان ولكنه إنسان بما يزيد على الحيوان والنبات ... إنه إنسان بالعلويات .

ومن هذا حمله الله الأمانة التى فزعت منها الجبال ..

هل يليق بعد هذه الإشعاعات التى يهديها القرآن ، أن نقصره فى عين المتعبد على الوعيد والتهديد ؟ وفى يوم الجمعة ؟

ماذا وراء الآيات :

القرآن الكريم فيه تقرير وفيه نفى يرتفع على المحدودية منطلقًا بلا حدود . لقد ذكر الإسلام لله ٩٩ اسمًا ، فهو اللطيف الرحيم ... وهو المنتقم .. وهو العليم .. وهو ... وهو ... ولكن فى النهاية ارتفع الوصف إلى أعلى القمم حين قال : (**ليس كمثله شىء**) .

الله فوق كل تعريف وفوق كل اسم .. إنه أظهر ما فى الكون عند « أهل البصيرة » وإنه أخفى ما فى الكون عند (البَصَرِيين) ..

كان ابن الفارض يقول : كل الصفات مجرد أسماء ، ولكنك أنت المسمى الحقيق . معنى طبقه الفن الإسلامى الذى سأتحدث عنه بعد قليل حديثًا موسعًا .

فى القرآن الكريم توجيه للفنون ، فهو بالنسبة إلى الأدب أعلى مجلى من مجاليه .. وبالنسبة للتشكيل علامة طريق .. أبدأ بأدب الطبيعة فى القرآن الكريم .

أدب الطبيعة فى القرآن الكريم

فى القرآن الكريم « لوحات » تعجز أمامها الكلمات . لقد وصف الأدب العربى « العاصفة » فى البحر وأطال مما سجله « نفح الطيب » وابن جبير فى رحلته حين هبت عليه ريح بالقرب من صقلية فى خلال رجوعه إلى غرناطة كادت تطيح بمركبه . ولكن يبدو أنها لم تثر خياله فخرج وصفه لها على هذه الصورة الباهتة : « ثم انقلبت الريح غربية وأنشأت سحابة فيها رعد قاصف وزجتها ريح عاصف وتقدمها برق خاطف فأرسلت حاصبا من البرد صبته علينا فى المركب شآبيب متداركة ، فارتاعت له النفوس ثم أسرع انقشاعها وانجلى عن الأنفس ارتياعها . » .

ولكنه لم يلبث أن قال : « ضربت فى وجوهنا ريح أنكصتنا على الأعقاب ، وحالت بين الأبصار والارتقاب ، وما زالت تعصف حتى كادت تنسف وتقصف .. فحطت الشرع عن صواريها ، واستسلمت النفوس لباريها .

وتركنا السفينة ومجريها ، وتتابعت علينا عوارض ديم حصلنا منها ومن الليل والبحر فى ثلاث ظلم ، وعباب الموج تتوالى صدماته وتطفر الألباب وجفاته . . » .

واستمر فى السجع حتى المساء عندما « فترت الريح ولان متن البحر ، وأسفر وجه الجو » .

ولو أطلق ابن جبير نفسه على سجيتها كما قلت فى كتابى عن النيل فى الأدب ، لو فعل ، خاصة فى هذا الموقف الذى تمتلئ فيه النفس بمعانى الخوف والرجاء واليأس والأمل والموت والحياة ، هذا الموقف الذى تتطهر فيه النفس وتشرئب إلى السماء بقلب ضارع حتى الجاحد يفيق ويعود . . . إلى الله . . . أقول وأردد :

أين هذا من « لوحة العاصفة » التى أبدعها الفنان الأعظم فى كتابه الكريم إذ الموقف (**كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها**) .

انظر « **لجى** » وانفرادها فى مكانها وترفعها على فضول السجع أو التكثر بالمترادفات . . . انفراد الشموخ التعبيرى هذا . يعطيها طاقة خارقة على تصوير الزخر والجيشان . ثم « **يغشاه** » هذه بما تتضمنه من معانى الغمر وحركة التغطية الواسعة التى تلف كل شىء فى طياتها . . . فى طيات الموج . . . موج من فوقه موج . . . حركة سريعة متدافعة فى تتابع وغلبة . . . فى تلاحق وجلبة . . موج عال بلغ السحاب أو هكذا يشبه لرائيه . . موج من فوقه موج من فوقه سحاب . . . لم يعد هناك فاصل . . . هنا التحام فقد انطبقت السماء على الأرض فى جملة واحدة . . . فى نصف سطر . . . . وهذه « الفوقية » وحدها

« موج من فوقه سحاب .. تصور حالة الغيم النفسى ... تصور اللهث ... الكرب ... زهق البصر والأنفاس حتى إذا كرب المرء الضيق ، وآده الظلام ثم تحسس من القلق ، ... والوهم يستبد به مع الظلمات ، ... يده ليراها فلا يرى ... شيئًا ... انطمست الرؤية وغامت المرئيات .

أنا لا أفسر هنا الآية ، فأى تفسير لها مهما تسامى إليها .. مهما حاول الارتفاع إلى مستواها ، يفسد جوها الفنى الغنى بالحركة ، المشحون بالانفعال ، المنور بالظلال ... القادر بالشمول .

أدب الطبيعة فى القرآن الكريم تخرج فيه الألفاظ عن نطاق الحروف لتؤدى مهام كبيرة من الإيحاء والإملاء والإقناع والتصوير . (**إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون**) .

أقف عند الريح كمثال .. ومن الطريف أن أوصاف الريح فى القرآن الكريم ، تدنيها من عالم المرأة . وفى المخصص لابن سيده : « الريح نسيم الهواء أنثى ، والجمع أرواح » .

وهى كالمرأة تُطلب يدها ويُخطب ودها « فالتروح والاستراحة استجلاب الريح » . والريح الريدانة هى اللينة كالمرأة الرود ... وكذلك الريح توصف بأنها ريدة ورادة إذا كانت لينة الهبوب رخاء .

والريح الحنون ، التى لها حنين مثل حنين الإبل فهى حنانة وهتوف كما تهتف أم بأسماء أعزائها الصغار .

وفى الريح خيلاء المرأة « فالدروج » منها التى يدرج مؤخرها حتى ترى لها مثل ذيل الرش فى الرمل .

وللريح مثل المرأة دلال ، فالريح « الهفافة والهفهافة سريعة المر » . كأنها توقظ الشوق ثم تنام .

والريح كالمرأة ، صناع لها ولع بالوشى والتمنمة والتفويف على تفاوت فى الدرجة والأثر . . . فكما تنمنم أنامل المرأة ، الحرير ، يقال – مع الفارق – « نمنمت الريح التراب إذا خطته وتركت عليه أثرًا يشبه الكتابة . . » .

والريح أيضًا مثل المرأة تسوء إذا تجاذبتها التيارات ولعبت بها الأهواء ، فالريح النكباء « التى بين الصبا والشمال تنكب نكوبًا » .

والريح الهوجاء المتداركة الهبوب كالمرأة الخفيفة النزقة .

والريح فى القرآن الكريم :

طيبة ، وعاصف ، وخصبة ، وبشرى ، وطيعة ، ورسول رحمة ، وإحياء ، ولينة رخاء ، وشديدة مدمرة . . . وكأن (تصريف الرياح) تصرفات المرأة فى غضبها ورضاها . . .

(هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتَّى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين) .

هنا ريح طيبة ترجى السفين كما يحدو قلب الأم خطى البنين . . . وهنا أيضًا ريح عاصف جامحة الغضب كزوجة استثيرت كرامتها . . .

(وهو الذى يرسل الرياح بشرًا بين يدى رحمته ، حتى إذا أقلت سحابًا

ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ...) .

هنا ريح منعمة تقل السحاب فيقيل العثرات ، ويحيى الموات ، ويمرع الجديب ...

والخلق والأحياء عملية وثيقة الصلة بالمرأة ... إنها تزيد الحياة وتمد لها فى الاستمرار والازدهار كريق الغيث تزفه ريح طيبة ...

والريح كالمرأة أمل واعد وحلم مشوق (**أمَّن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرًا بين يدى رحمته ، أإله مع الله ، تعالى الله عما يشركون ...)** .

والريح مثل المرأة محبة للخير تحدو ركابه (**ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابًا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفًا فترى الودق يخرج من خلاله ، فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون)** .

والريح فى الحرب تعين على النصر وتكون من أسبابه ، وإن لم تخض المعركة فهى وراء الجيش كالمرأة خلف الصفوف .

(يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحًا وجنودًا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرًا) .

وهى كالمرأة طيعة خير سفير (**ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ..)** .

(ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها ، وكنا بكل شيء عالمين) .

وهى كالمرأة موكول بها الخصب وعلى يديها الكثرة (وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين) .

وإذا كان لكل شيء جانباه ، فإن الريح كالمرأة أيضًا يحدث أن تكون عقيمًا . (وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) .

وهى كالمرأة إذا خرجت عن طورها وفقدت رشدها تدمر كالنار وتطيح كالإعصار ... (فلما رأوه عارضًا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو مااستعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شيء) .

قاسية .. عاتية .. ضحاياها كأنهم رميم ، وصرعاها كأنهم أعجاز نخل خاوية (إنا أرسلنا عليهم ريحًا صرصرًا فى يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) .

عابثة لاهية تذهب بكل شئ بددًا (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيمًا تذروه الرياح ، وكان الله على كل شئ مقتدرًا) .

وهى لهذا تكون أحيانًا أداة انتقام (أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفًا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعًا) .

وهى أداة إرهاب ووسيلة عذاب (فأرسلنا عليهم ريحًا صرصرًا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون) .

وقد أشار ابن سيده إلى ما جاء فى الحديث ، من أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا هبت ريح « اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا » وعلل هذا بأن عامة ما جاء فى التنزيل على لفظة الرياح للسقيا والرحمة كقوله عز وجل : (**أرسلنا الرياح لواقح**) وقوله (**ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات**) . و (**الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابًا**) وما جاء بخلاف ذلك جاء على الإفراد كقوله عز وجل : (**وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم**) وقوله (**وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية**) و (**بل هو ماا ستعجلتم به ريح فيها عذاب أليم**) فجاءت فى هذه المواضع على لفظ الإفراد ، وفى خلافها على لفظ الجميع)[1] .

اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا . . .

أما توجيه القرآن الكريم للتشكيل فيتجلى فى هذه الآيات :

(**هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى**)

(**أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله**) .

(**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت**) :

فى القرآن الكريم توجيه إلى النور والظلال :

(**والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وماسواها ، فألهمها فجورها وتقواها .. قد أفلح من زكاها**) .

---

(١) المخصص جـ ٩ المطبعة الأميرية ص ٩١ .

وتزكية النفس المطلوبة ، سبيلها التعرف على أبعاد الوجود فى الطبيعة والناس . . التذوق . . . التمييز . . الامتحان الشخصى . . التجربة . . .

التعاطف حتى مع التعارض . .

التزكية ليست الفرجة ، ولكن **الاستماع القلبى الصافى** الذى هو أبلغ من الكلمات .

ليس المعارض . . ولكن دعوة للفكر هى شرط للصلح بين القلب الإنسانى والحياة فى عملية تشكيل الذات ، وتحقيقها ، والارتفاع بها على المستوى الطفلى الذى ولدت به ، إلى المستوى الزاكى الذى دعا إليه القرآن .

هنا ينفتح القلب على بحر الحياة اللا محدود . بتواصله وتوحده معه . . بوعيه ، بدوره ، فيه . . .

والنفس مشوقة إلى هذا اللقاء ، ولكنها لا تعرف الطريق إلا قليلا ؛ لأنها ما أوتيت من العلم إلا قليلا . . . هذه هى الرؤية القلبية التى يشيد بها القرآن . . الرؤية الشاملة (**فأينما تولوا فثم وجه الله**) .

قال تعالى (**خلق الله السموات والأرض بالحق**) .

والخلق الحق قليل عنده اصطلاح « التذوق الفنى » أو حتى « التقدير الفنى » فهذه مرحلة لو وقف الأمر عندها فالرؤية لا تؤدى رسالتها ولا تحقق هدفها . . . الخلق الحق كفاؤه تزكية النفس . إنه يزكى نفس رائيه . . يضيف إليها بما يصقل منها : (**قد أفلح من زكاها**) .

هل تستشرف مناهج التعليم ما وراء ظاهر الآيات ؟

هل تفعل ذلك خطبة الجمعة المغرمة بالجنة والنار ؟ وما درت أن الإيحاء غير

المطابقة . . . فعندما يوصف إنسان بالكمال المنشود يقال إنه شجرة . . .ولا يعنى هذا ، المشابهة ، أو المطابقة فى اللحاء والورق والشجر ولكن يقصد به أنه كالشجرة ظل وثمر ورى . . والشجرة لا تؤذى حتى أعداءها . . . والشجرة متجددة دائمًا .

وهكذا الدين حين يصف الجنة للمحرومين أو المؤلفة قلوبهم أو محبى المتعة الغارقين فيها بأنها نخل ورمان وحور وولدان . . فى عملية تحبيب وحماس . . مثل هذه الأوصاف كالشوكة الرنانة لها فى نفوسهم اهتزاز ورنين خاص . وتبقى الجنة بعد هذه الأوصاف . أكبر وأكمل وأجمل .

رجل الدين والمتدين كالمتفنن ، ينبغى ألا ينظر إلى التشبيه نظرة كمية ، بل ينبغى أن يقدر ما يمكن أن تثيره الصورة التشبيهية من ذبذبات وهزات نفسية واسعة عريضة . . هى وغيرها من الصور التشبيهية ، يمكن أن يكون لها بهذه الطريقة سيطرة كبيرة على وجدان المتفنن . .

إن التشبيه لا يقوم على وجود أشياء محسوسة بين الشيئين ، وإنما يقوم على إدراك التشابه والتقارب فى الصفات النفسية بين المشبه والمشبه به . . . وقد أنفق عبد القاهر جهدًا كبيرًا ووقتًا طويلا يملى علينا مسألة مختمرة وهى أن المعول فى الصناعة « وكلمة الصناعة يراد بها فى الحضارة الإسلامية ، **المعرفة** » هو الفكر . فالصناعة أى المعرفة لا تشرف إلا بالفكر . . . وهو يطبق نظريته هذه على الأدب وعلى التشبيه بوجه خاص خالص فالتشبيه البليغ عنده لابد له من قدر صالح من الفكر .

قال تعالى : (**طلعها كأنه رءوس الشياطين**) روعيت هنا أولا وقبل كل شيء ، الإثارة الفنية والنفسية ، لا المطابقة وحرفيتها ؛ لأنه ليست هناك صورة

دقيقة فى ذهن كل إنسان كتلك التى للمرئيات ، لمثل هذه الآية .

وحين يريد رجال الوعظ أن يدلوا الناس على عظمة الخالق يلجئون إلى مثل هذه الآية (**ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية**) . . ألا يكفى الإنسان لكى يؤمن أن ينظر فى الكون حوله : اختلاف بلا حدود ، ورباط واحد ؟ ماذا لو تركنا الأرقام فى الدين لعلماء الكلام الذين أشبعوا هواية محبى الجدل فى أمثال هذه الآية . . ونكتفى من الدين بالجانب المصفى الذى يبرئ الروح من جراحاتها .

إن فى الدين منطقة مجهولة ، وستظل مجهولة ترمز إليها قصة موسى والخضر . . التى تشير إلى أن موسى كان محتاجًا أن يتعلم من الخضر . . واستطاع الخضر وهو غير نبى أن يقول لموسى النبى (**إنك لن تستطيع معى صبرًا وكيف تصبر على مالم تحط به خبرًا**) .

سأل رجل عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن (الأب) فى الآية (وفاكهة وأبًّا) فقال عمر : أو تنقص شيئًا إن لم تعرف الأب ؟

الرجل بلا شك من حقه أن يسأل عما خفى عنه . . . ولكن (الماوراء) سبيله المداخل الكبيرة .

حتى العلم الحديث بكل ما وصل إليه عاجز عن أشياء كثيرة . . لقد تفوق فى المحسوسات التى تخضع للقياس ، ولكنه عجز عن تعريف الإنسان كما هو ، وعن الحوادث الخارجية التى لا تخضع للقياس كالنفس ، والروح ، والشعور .

العلم الحديث حين ينتفع بالطبيعة ، يتكشف ما فى الأشياء ولكنه لا يحول الأشياء . . تستطيع أن تتغلب على ضعف البصر بأن تلبس نظارة ، ولكنك لا تستطيع أن تغير حدقة العين . .

إن الأم قد تنام وتغفو حواسها عن كل شيء إلا عما يتصل بابنها . . قد تستغرق فى النوم وابنها بعيد عنها ، ولكنها إذا أحست وقع أقدامه من بعيد ، فتحت عينها ! إن إدراكها فى هذه الناحية عميق . . عميق لم يصل علم النفس إلى كنهه بعد . .

هذا مثل بسيط بالقياس إلى ما فى القرآن الكريم . . فلنترك كما يقول اللغويون (المعاظلة)-أى التقعر . . ولنترك الافتعال فى التفسير ، والتحامل على الآيات وعلى الناس ، إلى أفق وضيء من الرؤية الشاملة الشفة المستشفة التى تسعد أشواق الإنسان وتصل به من الفرح إلى قمة . .

(ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله)[1] .

هذه الكلمات مادة لحياتنا أو يجب أن تكون ، فى العلم والفن والدين نصوغ منها بمختلف المواهب صورًا شتى . .

هذه هى رؤية الإسلام . . . وهى سر من أسرار قوته ، وملمح من ملامح عبقريته ، ولا يفهم الإسلام إلا بهدى هذه الرؤية فيكون التدين « علم » الدين ، و « حبًّا » فيه أكبر كثيرًا من الحلال والحرام . . حبًّا ينكر فيه الإنسان ذاته فيغدو فى شفافية ابن الفارض الذى يقول :

نفسى فداك عرفت أم لم تعرف

---

(١) سورة لقمان – الآية : ٢٧ .

بصيرة الإسلام :

عبقرية الإسلام فى نفاذه حين يجعل النظر بصيرة لا إبصارًا ، والسمع صغوًا لا لهوًا . الشجر فى صمت يعمل وينمو . . وفى صمت يعطى عطاءه .

يقول سنيكا Sinika : عندما تستلقى على ظهرك فى غابة ، وترى السماء والشجر ، يتسلل إلى كيانك الإحساس بوجود الله .

الحال نفسها إذا تأملت كهفًا وسط جبل مملوء بالتجاعيد مجوف بفعل عوامل الطبيعة ، تسرب إلى عقلك الإحساس بالدين .

كم توحى منابع الأنهار بوجود الله . . كم يوحى التأمل . .

إن التأمل هنا عمل لا مقعد مريح . .

التقى فيلسوفا أمريكا : « **ماكدونالد** » صاحب الفلسفة الاستبطانية و « واطسون » صاحب الفلسفة السلوكية الذى كان يقول : اعطنى طفلا أعطه لك كما تشاء نابليون أو . . أو . . حسب السلوك .

قال واطسون لزميله : إن فلسفتك فلسفة الكرسى المريح .

فرد عليه على الفور : وإن فلسفتك ينقصها الكرسى المريح .

وأراه على حق . فإن الاسترخاء ، رخاء الأعصاب . إنه راحتها وواحتها . . . رحمة . إن حظ الإنسان الأمثل أن يركب فى نفسه صورة الكون بعد أن يتأملها ويتفهم حكمتها .

(**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينًا**) .

نعمته خلقه إنسانًا . وتمام النعمة : الإيمان والحكمة والمعرفة .

(**قم الليل إلا قليلا**) دعوة إلى الخلوة .. إلى الخلاص . إلى الاستماع إلى الأعماق . . . وتوليد عطاء جديد من الملاحظة يضفى على الذات أو يضيف إلى الحياة .

كان الغزالى يسمى ، الملحوظة ، دقيقة .

هل يقصد التى تدق على النظر العجلان فى دعوة إلى الرؤية ؟ أو صغيرة كذرة دقيق ، تواضعًا ؟

هيهات أن نرى بالعين وحدها . الكاميرا نفسها لا ترى إلا بالرائى الحقيقى وهو الشخص الممسك بها . . . أى « رؤيته » للأشياء .

إن كيان الإنسان كون عجيب (**وفى أنفسكم أفلا تبصرون**) لم يخلق هذا الجهاز كله للأكل والشرب والنوم . . . إن العين وحدها « تركيبة معجزة » ولا أحسب هذا كله للإبصار . . لرؤية العلامات الطبية ، ولكن **لرؤية الحقيقة أيضًا فى الدين والعلم** .

وحين أراد القرآن أن يصف الغافلين قال : (**ولهم أعين لا يبصرون بها**)[1] وقال : (**فأغشيناهم فهم لا يبصرون**)[2] .

ليس الرمد وحده داء العيون . ولكن **محدودية الرؤية وحرفيتها** . أما العين العيناء فهى التى عندها نظر بما فيها من إبصار واختيار وإدراك . كما أراد لها الله .

ومن هنا العلاقة بين العين والفن والفكر والشعور والعلم والخرافة والأسطورة والحقيقة والدين . ولأمر ما ، يدعو الناس لإنسان أن يحفظ عليه نورها .

---

(١) سورة الأعراف – الآية : ١٧٩ .

(٢) سورة يس – الآية : ٩ .

ولأمر ما ، يحب الحبيب حبيبه ، كعينه .

ما أسعد الإنسان الذى يعدل فى عين حبيبه الفكر والشعور والعلم والخيال والحقيقة .

الإسلام إيمان . . إيمان يحمى النفس ويحفظ توازنها .

كم من المعانى الكريمة فى الآيتين الكريمتين :

(**قم الليل إلا قليلا**) .

(**وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**) .

كان الإمام أحمد بن حنبل يحدث ابنته كثيرًا عن الشافعى على أنه الأمل المرجى والرجاء المأمول . وذات يوم زار الشافعى ، الإمام أحمد بن حنبل وبات عنده فلم تنم الفتاة . . . وأطل فضولها كله على الشافعى ترقب حركاته وسكناته . . وبعد ساعتين قام أبوها من نومه وتوضأ وأخذ يصلى الليل كله . ونظرت الفتاة إلى الشافعى فوجدته نائمًا أو هكذا يبدو . . وفى الصباح سأل أبوها الشافعى :

– كيف قضيت ليلتك ؟

– على خير ما يقضى الليل . . لقد حللت وأنا مستلق على ظهرى مائة مسألة مما يهم المسلمين ! !

هذا هو الدين فى قمته التى تعلو كثيرًا على القيام والقعود الحرفى . **ومن القيام التأمل والتفكير** .

أما الآية الثانية :

(**وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**) .

(**إلا قليلا**) .. هنا الدقة تستريح .

وهنا البحث يتعب .

فبعد النظر فى حقائق الفلك المتناهية الكبر . .

وبعد النظر فى حقائق الذرة المتناهية الصغر .

وبعد النظر فى علم الحياة ما ظهر منها وما بطن .

وبعد النظر فى التاريخ البشرى بحضاراته . .

وبعد النظر فى القلب الإنسانى بفنونه وفلسفاته . .

بعد النظر فى هذا كله . . يقف الوعى المتفتح أمام ظاهرة الوجود المشتمل على هذا كله موقف المحدود أمام اللا محدود ، كلما تعمقه تكشف له عن جديد ، من جديد ، فلا يملك القلب المؤمن إلا أن يقول :

(وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

كان القشيرى يعلق على تعريفات الباحثين لأى معنى من المعانى بقوله : «كل تكلم بما سنح له » أى الحقيقة الكبرى علمها عند الله .

وكان ابن سينا حين يتحدث عن أقسام العلوم العقلية يعرف الحكمة بأنها صناعة نظرية يستفيد منها الإنسان تحصيل ما عليه الوجود كله فى نفس الإنسان ، والواجب عليه عمله مما ينبغى أن يكتسب فعلا لتشرق بذلك نفسه وتستكمل وتصير عالمًا معقولا مضاهيًا للعالم الأول وتسعد السعادة القصوى بالآخرة وذلك بحسب الطاقة الإنسانية أى الحقيقة الكبرى علمها عند الله .

وإذا اعتبرنا الحكمة ، قمة من يؤتها فقد أوتى خيرًا كثيرًا ، فإن ابن سينا يقول « لن يصلح لاقتباس المعرفة الحقيقية إلا قلب صاف ، كأنه مرآة مجلوة ، وإنما يصير كذلك بقوة الفطرة وصحة القصد ، ثم بإزالة كدورات الدنيا عن

وجهه ، فإنه الرين والطبع الذى يمنع الله به القلوب عن معرفته ، وإن الله يحول بين المرء وقلبه)[1] .

(وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ..)

أعطى الإسلام الرجال :

عبقرية الإسلام تبدو وتتبدى فى عطاء الرجال . . فالإسلام كما لم يفعل دين آخر ، صنع رجالا على عينه لم يكونوا شيئًا مذكورًا بمقياس القيم الحقيقية . فعمر بن الخطاب فى الجاهلية ، كان سيدًا سيادته قوة وفتوة فحسب . ولكن عمر بن الخطاب هذا ، صنع منه الإسلام مثالا عاليًا وعزيزًا للعدل والحق والرأى والفتوى والتشريع والسياسة والحكم .

استطاع الإسلام أن يتغلغل فى نفسه ويكيف سلوكه بل يكيف تفكيره وحياته كلها فصدر عنه فى القول والفعل والرأى والتدبير والحكم . فكتابه فى القضاء ، وكتابه فى قيادة الجيوش ، قيم إسلامية . وهما فى الوقت نفسه دستوران فى بابهما لم يعف عليهما الدهر . .

(بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس . سلام عليك . . أما بعد ، فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له . . آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك . . البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ،

---

(١) كتاب الإشارات والتنبيهات ، حـ١ ص ١٢ .

والصلح جائز بين المسلمين ، إلا صلحًا أحل حرامًا أو حرم حلالا . .

لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك ، وهديت فيه لرشدك ، أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل .

الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة ، ثم اعرف الأشباه والأمثال ، فقس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أقربها إلى الله ، وأشبهها بالحق . واجعل لمن ادعى حقًّا غائبًا أو بينةً أمدًا ينتهى إليه ، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلا استحللت عليه القضية : فإنه أنفى للشك ، وأجلى للعمى .

المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودًا فى حد ، ومجربًا عليه شهادة زور ، أو ظنينًا فى ولاء أو نسب ، فإن الله تولى منكم السرائر ، ودرأ بالبينات والأيمان .

وإياك والغلق « ضيق الصدر » والضجر ، والتأذى بالخصوم ، والتنكر عند الخصومات فإن الحق فى مواطن الحق ليعظم الله به الأجر ، ويحسن به الذخر . فمن صحت نيته ، وأقبل على نفسه ، كفاه الله ما بينه وبين الناس . ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله . فما ظنك بثواب غير الله عز وجل فى عاجل رزقه وخزائن رحمته ، والسلام) .

الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة . **ومن هنا كان الاجتهاد روح الثقافة الإسلامية** ، لا العنعنة التى تنحصر قيمتها فى توثيق السند .

الاجتهاد يعطى التراث قيمته وكرامته بتجديده وتحليته وتنمية . . . أما

عن . . عن . . فحسب فهى تجميد وتبليد . .

« لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك ، وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق » .

من هذا المنطلق الكريم والشجاع ، كان سلطان العلماء العز ابن عبد السلام . لم يكن هذا كله محصلة شخصية عمر بن الخطاب الفرد على عظم حظه من نوابغ الصفات وأخلاق الرجال ، ولكنه محصلة الدين الجديد الذى انهل على صحرائهم غيثًا لم يعهدوه من قبل ، ولم يحلموا به بعد كل صلوات الاستسقاء .

إنها عبقرية الإسلام الذى ولد فيه ، غير عمر بن الخطاب أعلام كثيرون ، ولا أقصد ولادة السجلات ، ولكن أقصد ولادة « الإنسان » فيهم . . . العقل والروح . . لقد جاء الإسلام وفى الجزيرة العربية رجال أشراف فى قومهم أو قبائلهم ، ولكنهم فى نظر الإسلام كان فيهم « جاهلية » وخير منهم عبد قصير القامة اجتماعيًّا ولكنه مارد الإرادة ، كلما أوسعوه تعذيبًا وإيلامًا ليرتد عن الإسلام قال : أحد . . . أحد . . .

ولد فى الإسلام الأرقاء ، الذين صاروا بسماحته أحرارًا . . .

وولد فى الإسلام ، المتنابذون ، الذين أصبحوا بنعمته إخوانًا . .

وولد فى الإسلام ، كما أوضحت ، حتى عطر التاريخ ، عمر بن الخطاب الذى كان شديدًا يرهب ، فأصبحت شدته فى الحق ، وقوته لينًا للضعفاء والمظلومين ، وصار إمامًا للعادلين وأمير المؤمنين . . . يلقاه قاتل أخيه وهو ابن بيئة « داحس والغبراء » و « البسوس » وسائر « الأيام » أو الحروب التى كانت تشتعل أربعين عامًا من أجل « ثأر » . . يلقى عمر وهو خليفة المسلمين ، قاتل

أخيه فيغلبه حزنه ويقول له فى تلقائية بشرية :

– والله إنى لا أحبك حتى تحب الأرض الدم المسفوح . .

فيقول له : أو تمنعنى ، لذلك ، حقًّا ؟

فيقول عمر : لا .

وهنا يقول القاتل : لا ضير إنما يأسى على الحب ، النساء . . . ولم يشج عمر رأسه على ذنبه الأول ، وقوله الأخير ولكن قضى حقه !

وحين أحاط عمر القضاء بهذه القدسية ، وجد من بعده من يرد شهادة وزير الخليفة ، لا لزور تبينه فيها ، ولا لأنه ظنين فى ولاء أو نسب ، ولكن لأن الوزير ترخص فى إظهار طاعته للخليفة بما تأباه الأنفة ، ويرضاه ، وحده ، النفاق . . فقد روى : أن الفضل بن الربيع وزير الخليفة الرشيد ، شهد عند القاضى أبى يوسف فرد شهادته ، فعاتبه الخليفة وقال : لم رددت شهادته ؟ قال لأنى سمعته يومًا يقول للخليفة أنا عبدك . . فإن كان صادقًا فلا شهادة للعبد ، وإن كان كاذبًا فكذلك ، لأنه إذا لم يبال فى مجلسك بالكذب فلا يبالى فى مجلسى .

فعذره الخليفة ، بل أكبره واحترم إرادة القاضى ، فى قدس حماه . .

وحين أحاط عمر القضاء بهذه القدسية ، تهيب القضاء ، رجال نبه ذكرهم وعظم شأنهم فى قومهم من فرط حساسيتهم بالعدل بين الناس . كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز ، ثانى العمرين ، إلى عدى ابن أرطاة ، واليه على العراق : أن اجمع بين إياس بن معاوية ، والقاسم بن ربيعة الحرشى ، فول قضاء البصرة أنفذهما . . فجمع بينهما ، فقال له إياس : أيها الأمير ، سل عنى وعن القاسم ، فقيَهى المصر ، الحسن البصرى ، ومحمد بن سيرين ، وكان

القاسم يجيئهما وإياس لا يجيئهما ، فعلم القاسم أنه إن سألها أشاروا به ، فقال القاسم لعدى : لا تسأل عنى ولا عنه ، فوالله الذى لا إله إلا الله ، إن إياس ابن معاوية أفقه منى وأعلم بالقضاء ، فإن كنت كاذبًا فما يحل لك أن توليني وأنا كاذب ، وإن كنت صادقًا فينبغى لك أن تقبل قولى . فقال إياس للأمير : إنك جئت برجل أوقفته على شفير جهنم ، فنجى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما يخاف . فقال عدى لإياس أما إذ فهمتها فأنت لها ، واستقضاه . . .

والقاضى إياس بكل نفاذه وذكائه وعدله ، وجد فى نفسه من الثقة والشجاعة ، ما جعله يستثنى من القاعدة العمرية فى القضاء ، العالم العبد إجلالا للعلم ، وإكبارًا للعلماء ، فقبل شهادة **عبد العزيز بن صهيب** ، **وحده** ! !

وعبد العزيز محدث وثقه أحمد بن حنبل . . . كان عبدًا مملوكًا وأبواه مملوكين ، رفعه علمه فى نظر إياس حين قعد به رقه ، فقبل شهادته مع أنه لا شهادة لرقيق ، وقبلها منه **وحده** والشهادة **لاثنين** ، إذ رأى القاضى أن كرامة العلم **وحق** العلماء أكبر من العدد ، وكفاءً للحرية .

لقد أعلى الإسلام فيما أعلى من القيم ، العلم ، حتى غدا العلماء ، فيه ، حصن أممهم بما يمثلون من **سلطتها الروحية** ، فخشيهم الحكام واتقوا غضبتهم ، فالليث بن سعد ، عرض عليه حكم مصر فرفض كما رفض القضاء ، ولكن السلطان والقاضى كان كل منهما يغشى فى نوائبه وحوائجه مجلس الليث بن سعد التماسًا للرأى أو التأييد ، فإذا استحقه جاد عليه به إمام مصر وفقيهها . وإذا أنكر

رجلنا الليث من السلطان أو القاضى أمرًا كتب إلى الخليفة فما يلبث أن يأتى الحاكم . . . العزل !

وكان الليث ينهى عن مدح السلاطين ، وقد تكفل بمنصور بن عمار حتى لا يقف بباب السلطان ويمدحه رغبة أو رهبة . .

بل إن شيخًا من شيوخ الأزهر لم تكن له هالة الإمام الليث أو علو كعبه ، ولكنه باسم العلم وباسم الجامع الكبير الذى حمى الدين واللغة ، لم يأبه بالسلطان عبد العزيز حين زار الأزهر يصحبه الخديوى إسماعيل ، الذى لحظ أن هذا الشيخ لم يهتز من وجود الباب العالى ، وأسند ظهره ومد رجله فأسرع الخديوى بالسلطان عنه ، ثم كلف أحد رجاله أن يذهب إليه بصرة لعله يقوم بالتعظيم ، ولكن ما إن جاء الرسول ، الشيخ ، ليعطيه الصرة ، حتى قبض عنه يده ، وقال له :

– قل لمن أرسلك ، إن من يمد رجله لا يمد يده . . .

لقد أعز الإسلام العلم حتى لقب العز بن عبد السلام « سلطان العلماء » وكم لسلطان العلماء من مراسم ومآثر وإشارات . . .

لقد شق عليه دخول الفرنجة ، دمشق ، لشراء السلاح ، فأفتى الناس بمقاطعتهم وعدم البيع لهم لأنهم يقاتلون به المسلمين ، وقطع خطبة الملك الصالح ، وزاد فى آخر خطبته قبل أن ينزل من المنبر : « اللهم أبرم لهذه الأمة أمرًا رشدًا تعز فيه وليك ، وتذل فيه عدوك ، ويعمل فيه بطاعتك ، وينهى فيه عن معصيتك » . والناس وراءه يؤمنون ، فاعتقلته السلطة الحاكمة ، ثم سير الملك الصالح بعض خواصه إلى الشيخ العز بن عبد السلام وأمره أن يتودد بدوره إليه ويترضاه وقال الملك لرسوله : فإن وافقك فتدخل به على ، وإن

خالفك فاعتقله فى خيمة إلى جانب خيمتى . فلما اجتمع الرسول بالشيخ ، أخذ يلاينه وقال له : بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وزيادة ، أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير ، فقال له الشيخ :

ولكن يامسكين ، ما أرضاه أن يقبل يدى فضلا عن أن أقبل يده . . . ياقوم أنتم فى وادٍ وأنا فى وادٍ . . والحمد لله الذى عافانى مما ابتلاكم به . .

ولكن الذكى الذى فاته أن هذا الطراز من الرجال لا يقبل يدًا ولا يحنى رأسًا ، مضى يقول :

– لقد رسم لى إن لم توافق أن أعتقلك . .

وفى هدوء الواثق من نفسه ابتسم سلطان العلماء للرجل وابتسم منه وقال :

– افعلوا ما بدا لكم . .

وبدا لهم أن يعتقلوه فى خيمة كما يوضع زهر الرياض فى قنينة بعد أن أصبح عطرًا يضوع ولا يضيع . .

ويعكف سلطان العلماء فى خيمته على القرآن ، يقرأ والسلطان يسمعه . . . ويلتفت إلى ملوك الفرنج ويقول : تسمعون هذا الشيخ الذى يقرأ ؟ قالوا : نعم . . قال : هذا أكبر قسوس المسلمين ، وقد حبسته لإنكاره على تسليمى حصون المسلمين لكم ، وعزلته عن الخطابه بدمشق وعن مناصبه ، ثم أخرجته فجاء إلى القدس وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم .

فقال له ملوك الفرنج الذين سمعوه : لو كان هذا قسيسا لغسلنا رجليه وشربنا ماءهما . . .

آوى سلطان العلماء إلى مصر موئل الأحرار فى عصور كثيرة . . . ولما بلغها استقبله سلطانها الصالح نجم الدين أيوب وأكرم وفادته وولاه قضاء مصر

والوجه القبلى . . ولكن المنصب على رفعته ، لم يشتر الرجل الكبير ولم يسكت صوته فقد كان يقول : (الجهاد ضربان : ضرب بالجدل والبيان ، وضرب بالسيف والسنان . وسلاح العالم علمه ولسانه ، كما أن سلاح الملك سيفه وسنانه . . . وكما لا يجوز للملوك إغماد أسلحتهم ، لا يجوز للعلماء إغماد ألسنتهم) .

وكان العيد . وخرج الصالح نجم الدين أيوب فى بزته الكاملة ، ومشى فى طريق تقف العسكر على جانبيه ، ويستعلن فيه الغنى والجاه وسطوة الحكم . . . ويجرى فى ركابه المتزلفون وأهل الرياء يغدقون التحايا ويقبلون الأعتاب . . .

ويرى الرجل الكبير هذه المسرحية فينادى بأعلى صوته :

– ياأيوب – (هكذا بالاسم المجرد عاطلا من الألقاب والزيوف – ياأيوب ما حجتك عند الله وقد بوأك مصر إذا عاتبك فى المنكرات المحظورة التى تغض الطرف عنها ، وتقر الناس عليها ؟) .

فقال له أيوب : هل جرى هذا ؟ فقال :

– الحانة الفلانية يباع فيها الخمر ، ويؤتى فيها المنكر . .

فقال السلطان كمن يتنصل وبه خوف :

– هذا أمر جرى على عهد والدى لا عهدى . .

ومرة أخرى يخاطبه رجل العلم والدين مخاطبة النظراء بل الكبراء :

– ياأيوب هل أنت من الذين يقولون (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) . ولم يحر السلطان جوابًا .. ووجد المخرج فى هدم الحانة التى أشار إليها السلطان ... سلطان العلماء .

– ويسأله المشفقون عليه من صراحته : أما خفته ؟ ألم تأخذك هيبته ؟ فيقول :

– استحضرت هيبة الله فصغر السلطان فى عينى . لم أخفه . . ولكنى خفت عليه من نفسه . . رأيته فى تلك العظمة فأردت أن أوقظه حتى لا يتسلط الغرور عليه فيؤذيه .

اشتغل سلطان العلماء فى مصر بالتدريس والإفتاء والقضاء ، بل خاض الحرب ، وهو عالم ، باسم الجهاد ، إذ شهد الحروب الصليبية وكان فيها رأسًا يدبر ورأيًا يوجه . . كما فوَّض إليه السلطان نجم الدين أيوب عمارة المساجد المهجورة بمصر والقاهرة . . . فأقام على ذلك زمنًا ثم عزل نفسه ! ! وتودد إليه السلطان استبقاءً له فباشره مدة أخرى وعزل نفسه ثانية . . ولكن السلطان عاد فولاه المدرسة الصالحية لينهض بالتدريس بها . . .

وجاء بعد نجم الدين أيوب ، ابنه توران شاه فعرف للشيخ قدره وواصل إكبار أبيه له . . فلما صارت الدولة للماليك ، أجلوه لا سيما الظاهر بيبرس الذى كان مع جرأته واقتحامه ، لا يجسر أن يخالف له رأيًا . . وكان يهابه ويخشاه فلم يلتقط أنفاسه إلا عندما اختار الشيخ جوار ربه ، ولم يستطع أن يخفى فرحة التحرر من الخوف منه حتى وهو يأمر أمراءه وخاصته وأجناده بتشييع جنازته ، بل تقدمهم إلى مدفنه كأنه يتأكد من موته . وحين رأى كثرة الخلق فى وداعه الأخير قال لبعض خواصه : « اليوم استقر أمرى فى الملك ، لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس أخرجوا عليه لانتزع الملك منى » .

ولد سلطان العلماء سنة ٥٧٧ هـ وعاش صدر حياته فى دمشق ولكنه ما لبث أن لاذ بالقاهرة فضمته مصر حيًّا وميتًا حين وسدته ثراها (سنة

٦٦٠ هـ) بعد أن بوأته ذراها . . فلم يكن واحدًا فردًا ، بل كان حياة عريضة كأنها قرن من الناس لا من السنين . .

أفتى الشيخ العز بن عبد السلام مرة بشيء ، ثم ظهر له أنه أخطأ ، فنادى ، كما أشرت ، فى مصر والقاهرة على نفسه : من أفتى له ابن عبد السلام بكذا فلا يعمل به فإنه خطأ .

كان شجاعًا مع نفسه شجاعته مع الآخرين .

وكان أمينًا . .

كان ابن عباس يقول : إذا أخطأ العالم أن يقول لا أدرى فقد أصيبت مقاتله . . .

« لا أدرى » قالها سلطان العلماء وقالها مالك بن أنس ، وقالها أحمد بن حنبل وقالها قبلهم ، عبد الله بن عمر .

هذا الطراز من الرجال فى أمانتهم وفى صدقهم وفى شجاعتهم – فمن الشجاعة قولة « لا أدرى » – هذا الطراز ، كان كل منهم فى زمانه ، سلطان العلماء . . . وكم بين سلطان الروح ، وسلطان المادة فى وجدان الناس وفى ميزان التاريخ .

نظر سلطان العلماء إلى المماليك فلم يثبت عنده أنهم أحرار . . وصرح بوجوب بيعهم وضم ثمنهم إلى بيت مال المسلمين . ويبلغهم ما عقد العزم عليه فيتميزون من الغيظ وتثور ثائرتهم ، ولكن الشيخ لا يأبه بهم ، بل زاد فى الفتوى بأنهم لا يصح لهم بيع ولا شراء ولا نكاح .

وتعطلت مصالحهم بذلك . . وكان نائب السلطنة من بينهم فشكى إلى السلطان كأن السلطان يملك أن يراجع سلطان العلماء . ولما أعيته الحيل

والوسائل ، سعى فى جمع من مماليكه إلى بيت الشيخ . . .

وإذ رأى ابنه الموكب القادم ، فزع إليه يفضى بالخبر فيقول الأب العالم المؤمن :

– يابنى . . أبوك أقل من أن يقتل فى سبيل الله . .

وماكان أقل كما شاء تواضعه أن يقول ، ولكنه كان أكرم على الله من أن يراق دمه على سيف مملوك .

وخرج إلى الجمع الصاخب ، سلطان العلماء .

وسكن صياحهم الذى كان قد علا وهدأت جلبتهم . . . ونظر إلى نائب السلطنة فاخترقت النظرة منه العظام . .

ويقول رواته ومؤرخوه : إن نائب السلطنة حين وقع عليه بصر العز ابن عبد السلام ، يبست يده وسقط السيف منها . . وإذ خارت قواه ، بكى . . وأذعن لمشيئته بعد أن طلب عفوه والتمس رضاه .

ونادى سلطان العلماء على الأمراء أى المماليك المجلوبين واحدًا واحدًا وباعهم واحدًا واحدًا . . . وقبض بيد مصر ثمنهم ، وضمه إلى خزانتها . . .

وهكذا تبلغ شجاعة الرأى والقلب فيه ، قمة ذروتها فى إنسان .

إنه سلطان العلماء ، الذى بلغ من هيبته أن الملوك كانوا يتولون الوساطة عنده للسلاطين ، بغية أن يهادنهم . فقد حدث أن شفع عنده الملك الكامل للسلطان الأشرف حتى قبل اعتذاره .

ولما مرض الملك الأشرف مرض النهاية ، ناشد العز بن عبد السلام أن يأتيه ويدعو له ويرضى عنه إن كانت فى نفسه بقية من غضب أو ملام . . فأقبل عليه الشيخ ودعا له مخلصًا . . .

وبحكم العادة ، أمر له الملك بألف دينار فأبى العز بن عبد السلام وقال : هذا اجتماع لله لا أكدره بشيء من الدنيا . . .

وكبر فى عين الأشرف أكثر . . وترك الدنيا سلطان الناس مؤمنًا أن فيها سلطان العلماء .

وكم فى حياته من قصص مضيء مما تدخره الشعوب لتحيا عليه وتستمد منه القوة ، والأسوة وشجاعة القلب والرأى والتصرف والسلوك . .

إن السلطه الدينية هى أعلى مراتب السلطة الشعبية بما رفع منها أمثال سلطان العلماء . . كان سلطان العلماء فى القرن السادس الهجرى إذا أفتى بشيء ثم ظهر له خطؤه ، أرسل المنادى فى مصر يعلن خطأه ويقول : (من أفتى له ابن عبد السلام بكذا فلا يعمل به لأنه أخطأ) .

وهكذا تبلغ شجاعة النفس فى رجل الدين الإسلامى قمة ذروتها فى إنسان .

بل جاء فى القرن الثالث عشر رجل كالأفغانى ، هدد وتهدد دول الاستعمار الكبرى ، ليس كرجل سياسة ، بل كرجل دين . . وبلغ من سلطان الدين أن تبعته الشعوب ، وخافته الملوك حتى شفع عنده أيضًا ، كما حدث فى القرن السابع الهجرى ، الباب العالى لمهادنة شاه الفرس . فقال الأفغانى قولته الباقية : « قد عفوت عن شاه العجم » .

هناك قواد مسيحيون وقضاة مسيحيون ، ولكنهم ليسوا من صنع المسيحية ، بل من صنع القصور والظروف والبيئة . . . ولكن البيئة التى نزل فيها الإسلام لم تصنع قبله عمرًا واحدًا ، أو خالدًا واحدًا .

أقصى ما صنعته فرسان غارة أو شيوخ كرم ، أو شعراء قبائل .

عبقرية الإسلام أن يحكم عمر بن الخطاب الخارج من البادية بعالمها

المحدود ، أمم الحضارة العريقة فى مصر وفارس . . ويرضيهم ويقع من نفوسهم ، بل ويبهرهم بنومه بله يقظته ، إذ وقف أمامه رجل الفرس مذهولا للخليفة وأمير المؤمنين ينام بكل البساطة والتواضع تحت شجرة مطمئنًّا ، يتمتم : « عدلت فأمنت فنمت » .

وولد فى الإسلام الشافعى الذى وضع من القواعد فى نظم المرافعات ، مالم يصبح « من المسلمات فى الحضارة الأوربية إلا فى القرن العشرين » .

لقد سيق محمد بن إدريس الشافعى فى القيد مع تسعة من العلويين (رجلا رجيلا فى الرابعة والثلاثين ، مضبوط الكلمات ، وكما سيوصف لبعض ملوك الشام فيما بعد – مقتصدًا فى لباسه ، طويلا سائل الخدين ، قليل لحم الوجه ، طويل القصب ، أسمر ، حسن السمت ، عظيم العقل ، حسن الوجه ، حسن الخلق ، مهيبًا فصيحًا . . » .

وضربت الأعناق فى قسوة ضارية لم ترحم الحدث العلوى الذى لم يمهل حتى ولو دقائق ريثما يكتب إلى أمه .

وفى أهوال الكرب ، تقدم الشافعى فصار فى مواجهة الرشيد بعد كل ما رأى ، وكل ما صنع الخليفة ، فلم يفقد اتزانه فزعًا ، أو غضبًا ، أو يأسًا ، بل قدر الأمور بمقاديرها لا أقل ولا أكثر . فلم يتخل عن رباطة جأشه ، أو يغير رأيه ، أو تزايله البلاغة التى أنعم بها الله عليه ، فبده قاضيه بروعة دفاعه ، وهو عالى الرأس ، هادئ النفس ، والموت حائم يتخطف .

موقف تحيط فيه القلوب العالم التقى . . الإمام .

وينجو الشافعى بشهادة القاضى ، فينجو بنجاته ذخر زاخر من اللغة

والأدب والشعر فضلا عن علوم الدين . . ومع هذا كله ، كان يطوى نفسه على سماحة وتواضع يقول معه :

(العلم يدور على ثلاثة : مالك والليث وسفيان بن عيينة) .

وكان قد تعلم فقه الليث من يحيى بن حسان فى اليمن ثم تعلمه فى مصر.

كان الشافعى يقول للربيع بن سليمان : ياربيع ادع لى سرجًا . يريد سرج الغول – وهو رجل من أهل مصر عالم باللغة والشعر – فيأتى به ، فيذاكره ويناظره . ثم يقوم سرج الغول فيقول الشافعى فى تواضع العالم :

– ياربيع نحتاج أن نستأنف طلب العلم .

فالعالم لا يتكبر . . والعالم لا يغمط أقدار الآخرين . وهى روح إسلامية .

هؤلاء الرجال ، من عطاء الإسلام بما بث فيهم من قيم ، وأعلى من مبادئ وأرسى من قواعد العمل والسلوك .

نسمى عصرنا عصر العلم . وركب إنسان العصر ، الغرور ، فلم يغير غروره وعلمه معًا ، شيئًا من الحقيقة التى أعلنها الإسلام من خلال هذه الآية الكريمة :

(وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)[1] .

أين علمنا هذا من عجائب الخلق وروائع الخالق ؟

ماذا نعرف عن عالم النمل أو النحل أو النبات أو الحيوان أو الطيور ؟ .

(وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم)[2] .

الأستاذ روبرت لمن يعتقد أن فى الدنيا حوالى مائة بليون طائر !

ويقول العلم : إن أقدم الطيور خلق على الأرض قبل أن يدب عليها الإنسان بوقت طويل . . فقد عثر أندريس فاجنر سنة ١٨٦١ فى ألمانيا ، على عظام حفرية وريش معًا يحتفظ المتحف البريطانى ببقاياه ، يؤيد هذه الحقيقة . .

وتكوين الطيور خلق مملوء بالأسرار والغرائب . إن ريشة الطير البالغة الخفة والرقة ، بالغة الصلابة والقوة أيضًا ! إذ تحتوى على شبكة من الألياف الشديدة الصلابة ، ولعلها أدق نظم التقوية وأخفها فى العالم .

وللطيور فى طيرانها أساليب مذهلة ، فبعضها ينزلق فى أثناء الطيران انزلاقًا متقنًا ، حتى أنه ليستطيع قطع مسافات طويلة لا يضرب فى الهواء جناحًا .

---

(١) سورة الإسراء - الآية : ٨٥ .

(٢) سورة الأنعام - الآية : ٣٨ .

وبعضها يستطيع أن يضرب جناحيه بسرعة ولمدة طويلة ، دون أن يستريح ولو دقيقة واحدة .

ويعزو العلم خفة الطيور ، إلى أن أجسامها تحتوى فى أجزائها على ممرات هوائية تتصل جميعًا بالرئتين عندها ، ويصل إليها الهواء عن طريق الفم كفتحتى الأنف فى الإنسان .

إن طائرًا قد لا يستوقفك ضعفه الظاهر ، يملك من عضلات الصدر ما هو أقوى من عضلات الإنسان . وهو يحتمل العمل الشاق مدة أطول أيضًا .

وفى عالم الطيور بطولات رياضية كما فى عالم الإنسان . فبطولة الجرى معقودة لطائر النعام الذى تبلغ سرعته ٨٠ كيلو مترا « ٥٠ ميلا » فى الساعة !

والطيور بعامة أبطال الغطس فى العالم ، خاصة طائر الأطيش والبجع وإن كان البجع لا يصل إلى الأعماق التى ينفذ إليها الأطيش – يليهما طائر « عقاب النسارية » أو صقر السمك .

وفى عالم الطيور كعالم الإنسان ، أكثرها طنينًا أخفها وزنًا . فطائر الطنان ما يفتأ يطن ويزن ويضرب بجناحيه بمعدل خمسين أو ستين ضربة فى الثانية . وقد يصل المعدل إلى مائتين حتى ليصعب على العين المجردة إدراك حركة جناحيه . ومن الطريف أن طنينه هذا يؤدى له ما تؤديه الألسنة السليطة لأصحابها ، فهو بهذا الطنين يستطيع أن يجلى عن المكان طائرًا كبيرًا ، مؤثرًا السلامة ، موصدًا باب الريح .

حتى الزهور الرقيقة لا يتورع « الطنان » أن يمسها لسانه ! إنه ولوع برحيق الزنبق والعايق والإكويلجيا خاصة . وطريقته فى امتصاص هذا الرحيق أن

يضع طرف منقاره على ثغر الزهرة ثم يخرج لسانه الأجوف فيتغلغل فى أعماقها يمتص حلو الجنى وشهد الرضاب .

ويشبه « الطنان » فى هذه الخصلة ، « نقار الخشب » . فهذا الطائر هو الآخر رمحى اللسان . فهو بعد أن ينقر الخشب للكشف عن يرقة مختبئة فى الساق ، فإنه يستخدم مع المسكينة الأسلوب نفسه .

و « نقار الخشب » فيه خصلة أخرى نستزدها . فهو يسترق السمع وتستطيع أذناه الحساستان أن تلتقطا اليرقة داخل الشجرة إذ تأكل أو حتى تتحرك !

وهو ، والحق يقال ، خبير بأنواع الخشب ، حتى ليؤكد البعض أنه يستطيع التمييز بين الخشب الأصم والخشب الذى يحتوى على تجاويف بداخله ! وبعض قدراته أنه يجيد تشكيل الخشب ويستطيع أن يسوى منه لنفسه جحرًا جميلاً ناعمًا .

و « نقار الخشب » مثل الطنان ، وخاصة الذكور منه ، فى الصخب . فله صوت مزعج كالطبل الأجوف حتى لتسمعه على بعد بضعة كيلو مترات .

وأفواه الطيور وإن كانت خالية من الأسنان والشفاه ، إلا أنها تستطيع بالمناقير أن تبزنا فى التقاط الأشياء بسرعة ورشاقة تحسدها عليها أصابعنا نحن بنى البشر .

والمناقير عند الطيور ألوان ، لعل أشهرها منقار « نقار الخشب » الذى يقوم بعمل « الأزميل » حتى لا تتناثر فتات الخشب فى الهواء ، وهو يؤدى عمله فى همرجة تحسبه معها سيصاب بالصداع ، ولكنه لا يتأثر كأن رأسه من خشب هى الأخرى فلا تحس « بالوش » . .

والإنسان إذا أراد التفكه من « الدباغ » ، وصفه بأنه يقص الأكل ، أو

يقش المائدة . ويبدو أن الطيور تحب الاقتباس كبعض الموسيقيين المصريين فإن بينها طائر يسمى « أبو مقص » يقص السمك قصًّا فى ظلام الليل . إذ يلقى بفكه الأسفل القوى الطويل فى الماء بطريقة فاتكة ينخلع منها فك الإنسان لو « عملها » .

عند هذه اللحظة يضطرب سطح الماء ، فتتوهج الكائنات الفسفورية الصغيرة فى الماء توهجًا تعشو إلى ضوئه فى بلاهة ، الأسماك الصغيرة الغريرة ، فيغترف منها أبو مقص بلا حساب .

ويسعى الإنسان على قدميه أو يجرى فحسب ، ولكن الطيور وحدها تستطيع بأقدامها أن تجدف أو تمسك الأشياء أو تقبض على غريمها .

والطيور تختلف فى طباعها ، فيحب الصقر التفرد كالعظماء ، إذا استثنينا « الصقر الحوام » الذى يهوى نظام السرب .

وسمة العظمة عند الطيور التاجية رفع الذيل فى خيلاء . . يفعل هذا « البق » الأزرق . . و « العصفور العمدة » ذو التاج الأحمر .

وتتعبد السمنة بطريقة تبعث على الضحك فهى ترفع ذيلها كل دقيقة وتخفضه .

ويحب الغراب ، التجمع ، خاصة عند الخطر . وهنا يكثر الصياح عملاً بالمثل : « خذوهم بالصوت قبل أن يأخذوكم بالشجاعة » .

وتهلل الطيور كالإنسان لمقدم الربيع ، فتغنى وتتغزل على طريقتها . وعلماء الطيور يقررون حقيقة غريبة ، هى : أن التغريد إنما يقوم به الذكور فقط حتى يميز نوعها به . أحد الأسباب التى يقولون بها فى هذا الباب ، هو إغراء إناث جنسها والتودد إليها . .

دائمًا الأنثى مرغوبة محبوبة .

مغرور الإنسان ، يحسب دائمًا أنه وحده القادر على صنع كل شيء وتشكيله ، مع أن الطيور الصغيرة الحجم إذا قيست إليه . تستطيع أن تشكل السلال وتحفر الجحور وتنحت الخشب وتصور الطين ، بل تنشئ الأرصفة والأنفاق ! وتبنى السقوف – يصنع البط والأوز حشايا عجيبة من الزغب الناعم يرتاح عليها البيض الذى تلامسه الأم فى حنان بعد أن بذلت له من نفسها !

تفعل الطيور هذا كله فى إحكام يفوق فى إتقانه ، صنعتنا .

وبيض الطيور عالم وحده . فهو كالجواهر يدل بالألوان والأحجام . وقشور بيض الطيور ذات ألوان لا حصر لها . وبعض البيض منقط وبعضه فيه علامات . ومن البيض ذو اللون الواحد ، ومنه ذو الألوان التى تبلغ أحيانًا خمسة ألوان على قشرة واحدة .

وكما يختلف الإخوة فى الشكل والصفات ، يختلف البيض فى العش الواحد . كما يختلف طرفا البيضة الواحدة فى الشكل ، أحدهما أكثر تدبيبًا من الآخر ، يعنى هذا عند العارفين ، أن هذا الطرف هو الذى خرج أولاً من الأم لييسر مهمتها . ويكون عادة بعد هذا ، **الطرف الأغر** أعنى الأقوى والأقل تعرضًا للكسر .

والأمومة فى الطيور عادلة عدلاً قد يعز بين بعض الأمهات من بنى الإنسان . فهى لا تفرق فى المعاملة ولا تجود فى ناحية حين تضن فى الأخرى . إن أنثى الطيور لا ترقد على البيض إلا بعد أن تضع آخر بيضة فى المجموعة . وحكمتها فى هذا أن دفء بدنها هو الذى يحدو الأجنة إلى النمو فإذا رقدت على أول بيضة

فإن دفء الحنان ينصرف إليها وحدها وتحرم منه الباقيات فلا تفقس أو تفقس إذا حدث ، ولكنها تكون ضعيفة هزيلة ليس لها حظ الأولى من العطاء ، وهو ما تأباه الأم فى الطيور التى تحرص على المساواة بين الجميع !

وبعد الفقس يحرص الأبوان على قذف القشر الفارغ بعيدًا عن العش الهانئ ، تضليلاً لانكشارية الطيور التى تأخذ كل فرخ غصبًا كالسيد الثعلب مثلاً .

ويتعهد الأبوان صغارهما بالغذاء والرعاية إثر نقفها البيض وخروجها إلى النور . ولها فى تعهدها وحمايتها وسائل تصلح للعبرة والتأمل . فمن الطيور ما ينصب نفسه عينًا ساهرة تكلأ صغارها فيظل يطير حول العش حارسًا له .

وقد يتهدد العش عدو يحوم حوله ، فتتظاهر الأم بالإعياء لتغرى العدو المداهم بالطمع فيها ، حتى إذا هجم عليها أخذت تعدو أمامه لتجذبه بعيدًا عن عش الصغار فى عملية مطاردة مقصودة ، حتى إذا باعدت بينه وبين ولائدها بدت له حقيقتها ، قوية قادرة على الطيران . وسرعان ما تأفل راجعة إلى أسرتها التى تترقب عودتها .

ولما كان لكل قاعدة استثناء ، فإن هناك نوعًا معينًا من الشحرور يسمى الطائر الكسول . فهو يتقاعس عن بناء عش لنفسه ، فتلجأ أنثاه إلى التطفل فتضع بيضها فى عش آخر متغفلة أصحابه ، ثم تلوذ بالفرار معتمدة على غيرها فى تبنى صغارها وتربيتها ! وغالبًا ما يكون هذا على حساب صغاره هو التى تحرمها الطيور الدخيلة طعامها ، بل لا تتورع أن تلقى بها خارج العش ! ! أنانية عجيبة .

وتشبه الطيور الإنسان فى التوسل بالهجرة من أجل الطعام . ومن أشهر

الطيور المهاجرة « الزقزاق الذهبى » و « خطاف البحر القطبى » وهو من أصحاب رحلة الشتاء والصيف إذ يقضى الصيف فى القطب الشمالى . أما المشتى فهو القطب الجنوبى . مترف .. أليس كذلك ؟

والطيور فى هجرتها تتعرض لمخاوف المجهول ، فقد يودى بكثير منها الصقيع والجوع والعواصف والضباب الذى يحجب المرئيات ، فتتعرض المسكينة للسقوط أو الارتطام .

وعلى الرغم من هذه الأخطار ، فإن الهجرة رحمة يتوازن معها التوزيع العددى ، ويؤمن معها نفاذ الأقوات . فقد حسب أحد العلماء كمية بذور الحشائش التى أكلتها عصافير الشجر فى إحدى الولايات بما يزيد على ٨٧٥ طنًّا فى فصل الشتاء ، فماذا تأكل الأنواع الأخرى مجتمعة على مدار السنة ؟

وكثير من هذه الطيور المغتربة يحن إلى الوطن حنة العاشق المفارق ، فيعود حين يظن به أن قد ضل طريقه .. يعود بما يسمونه « حاسة الاتجاه » أو يعود بهدى القلب الذى لا يعدل بالوطن شيئًا . ألا ترى معى التأمل فى عالم الطيور يعمق الإيمان بالله خالقها وخالق الكون ؟ ما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم « أمثالنا » نحن أبناء العصر المولعين بالازدهاء والخيلاء .

الإسلام والبحث :

الدين يأمرنا بالنظر فى ملكوت السماء والأرض فى محاولة لقراءة الأفكار . . . أفكار الناس أقصد وأفكار الأشياء . . . إن الدنيا عوالم شتى وليس عالم الإنسان بأوحدها . . . هناك عالم الحيوان والحشرات . . هناك عالم الأفلاك وعالم البحار . أما مملكة النبات فعالم رائع له **عقل كلى** كما يقول إخوان الصفا .

حتى الفضاء ليس خلاء كما يبدو للعين المجردة . . إنه حقل نشاط . . وهذا النشاط عندما نتلقاه بحواسنا البشرية ، يبدو ألوانًا مختلفة ، ومرئيات . . . فزرقة السماء ليست فيها ، ولكن فى عيننا بتركيبها ووظائفها وخلاياها . . تمامًا كما تقول : ليس الألم فى المطواة ولكن فى حركتها من جسم الإنسان . . .

يقول الدكتور حامد جوهر فى مجلة المجمع العلمى ، إنه عصر البحار لا الفضاء . هبهم وصلوا إلى الشمس فليس هذا الوصول أعماق الفضاء . . .

إنه كما تنبش دجاجة فى الأرض وتحسب نبشها « بحثًا جيولوجيًا » . .

يقول الدكتور محمود خيرى على : إن قطر الشمس يعادل ١١٠ مرات قطر الأرض وإذا ذكرنا طوله بالكيلو مترات المعتادة فإنه يبلغ مليونًا وأربعمائة ألف . وإن حجم الشمس بالنسبة للأرض يبلغ مليونًا وثلاثمائة وخمسة آلاف « ١,٣٠٥,٠٠٠ » مرة .

وهنا نقول : ما هى أمريكا أو روسيا بالنسبة إلى الأرض ؟

ما هى الأرض كلها بالنسبة إلى الشمس ؟

ذرة من غبار فى مدينة الشمس لو أن الشمس مدينة .

ثم ما هذا كله مجتمعًا ومتفرقًا بالنسبة إلى الله ؟

قتل الإنسان ما أكفره . . وما أجهله . . هل أوتى من العلم إلا قليلاً . . إنه مارد إذا قيس بالميكروب الذى هو ١/١٠٠٠ من الملليمتر . ولكن متى قيس الإنسان أو حتى الأشياء بالحجم ؟. إن المقياس ، **القيمة** .

إن عصرنا يتسابق فى محاولة اكتساب فضيلة علوم المادة ، أى الطبيعة والكيمياء ، فاكتسب الفضائل والرذائل معًا .

إن أحدث طائرة لا تقاس بالطائر الصغير المهاجر الذى يطير مسافات شاسعة

على جناحه الدقيق . .هذا هو معجزة القوة . .

إن فضائل علوم الحياة ، **الإيمان بالقوة الأعظم .**

التى تعطى من الطين الوردة والعنبة . التى تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل . وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى .

هذه وظيفة الثقافة . .

تضوىء قيمة الدين وقيمة الحضارة . .

إن المدنية كما يقول الأستاذ مريت غالى فى كتابه :

Tradition for the Future

تتطلب قبل كل شىء مجموعة من القيم . والآلات لا تمت بصلة إلى القيم . .

وما لم تعن المدنية عناية حقيقية برفع وتحسين الإنسان ، لا تحسين الأدوات التى يستعملها ، فلا أمان ولا اطمئنان . . .

أعرف أن الإنسان مولع بالخيلاء ، يزدهيه النجاح والمال والشهرة ، ولكنه حتى إذا كان غنيًّا ناجحًا مشهورًا ، ضعيف ضعيف ، والقوة لله وحده . . والعزة لله وحده . أما الإنسان فلن يخرق الأرض ولن يبلغ الجبال طولاً . . يقولون عن عصرنا هذا ، مرة عصر العلم ، وتارة عصر الفضاء ، وطورًا عصر الذرة . . . إلخ ، ولكن ما أطلقه الإنسان فى الفضاء وما اخترعه فى الأرض ، صغير صغير إلى جانب ما لا يحصى من عجائب مخلوقات الله . . . إن دقائق التكوين فى الحشرات التى يعتبرها الإنسان أتفه الأشياء ، حتى ليستخدمها فى غضبه إذا اختار ، السباب ، سلاحًا يشهره ! شىء مذهل حقًّا . . .

علام الغرور إذن ؟ ليت الإنسان يرى إخوته فى الإنسانية ممن تمتلئ بهم المستشفيات ليعرف قوته الحقيقية .

ليته ينظر إلى شجرة واحدة من ملايين الأشجار المنتشرة فى الطبيعة ، ويتأمل روعة الخلق فى كل ورقة منها وكل غصن ... ليته يسمع سيمفونية الألوان فى روضة من الرياض أو موسيقى العبير ... ماذا يستطيع الإنسان إزاء هذا كله ؟ قصاراه أن يقلد ، وقد يتقن التقليد حتى تبدو وروده الصناعية وكأنها طبيعية ، ولكنها تظل بعد هذا ينقصها النبض والرفيف والشذى ... تنقصها الحياة .. أى ينقصها كل شىء ...

ليت الإنسان يتأمل عالم النمل ... وعالم النحل ومواهب الصبر فيهما والتنظيم والإحكام ، ثم يصنع عالمه هو بما يليق بالفارق الهائل بين الإنسان وسائر المخلوقات .

إن الذى ينظر إلى الناس نظرة سطحية قريبة ، يجد فيهم موضوعًا للتصنيف والتقسيم حسب الفروق التى تبدو لعدسته الصغيرة . ولكن أولئك الذين يرتقون إلى قمة المعرفة ، يرون من فى السفح أشباهًا ، إذ تدق الفروق حتى تكاد تتلاشى ... هل تفرق الشمس بين الناس أو حتى الشجر ؟ وكذلك البحر والليل ... وأهم من هذا كله ، الموت الذى لا يرحم ألقابًا أو أذنابًا ... الكل أمامه سواء ، من تبارى الطب فى إنقاذه ، ومن لم يجد ثمن الدواء ...

إن الإنسان الحر هو **الإنسان الموضوعى لا التابع** .. وقد تكون التبعية لفكرة ثابتة أو متحركة .... وقد تكون التبعية لهوى يحجب الرؤية الكاملة .. وقد تكون التبعية لضيق النظر فلا ترى إلا الظاهر القريب .. حين تطوى النظرة البانورامية المسافات والأبعاد والأعماق .

لماذا لا نعامل الفقير كما نعامل الأمير ليشب أبناؤنا على التواضع من سحر القدوة ؟ لأن الفقير قبل أن توزع الأقدار ، الثروات ، إنسان له المشاعر نفسها

وله قلب وله أعصاب . . . له التكوين العضوى للإنسان . فما يحبه الواجد من الاحترام والتقدير والمحبة ، هو نفسه ما يتمناه الفاقد . . لأنه أيضًا إنسان .

ثم ماذا يعرف الناس عن الحياة ، وما قبل الحياة ، وما بعد الحياة ؟ هل أوتوا من العلم إلا قليلاً ؟؟ وحتى هذا القليل قابل للشك والنفى والإثبات والتعديل والتغيير .

ولكن الإنسان المزهو بنفسه ، يحلو له أن يتعالم ويدعى التبحر فى المعرفة ، ناسيًا أن العلم وصل فى علمه إلى أن عمر كوكب الأرض ألفا مليون سنة ، وأن عمر البشرية من هذين الألفين إنما هو المليون الأخير ، أى أن البشرية (وارد حديث) بلغة الموضة . ترى ماذا يعرف المزهو بعلمه عن هذا المليون بله الألفى مليون الأولى ؟

ألا ليته يعرف . . . لو عرف لأدرك حجم الكثير الذى ينقصه . . . وهنا يحضرنا تساؤل الأستاذ العقاد : عمن رأى أول فجر فى سماء الكون لاح !

كم شروق لم نره ؟ كم أصائل ؟ كم من الزهور نبتت ؟

إن الأرض ، ومن عليها ، وما عليها ، ليست إلا **كوكبًا** فى المجموعة الشمسية ، وليست الأرض بأكبرها . .

إن فى جسم إنسان واحد ملايين الخلايا الحية . . هل استطاع الإنسان أن يخلق خلية واحدة ؟

الإسلام والحضارة

الإسلام دين العقل الحر والإنسانية الكاملة . إن الفطرة السليمة تهتدى إلى الإسلام بصفاتها . ويصور هذا « ابن طفيل » فى قصة « حى بن يقظان » .

عرف « وايتهد » ، الدين ، بأنه أمر توحدى ، فإذا لم تتوحد على الإطلاق ، فلست متدينًا على الإطلاق . فالدين هو وعى الإنسان بفرديته .. بقيمته الإنسانية الشخصية .

وقد احترم الإسلام الإنسان يوم جعل العلاقة بينه وبين الله مباشرة . فالمسجد فى الإسلام كالقلب المفتوح . إنه بيت الله بدون **حجاب ولا كهانة** ، ولا وسيط . وهذه هى سمة الإسلام الكبرى .

المسجد فى الإسلام مساواة بغير شعارات أو حروف ... فالناس فيه سواء من يحضر أولاً ، يقف فى الصف ، ومن يحضر أخيرًا يقف فى نهاية الصف ولو كان أميرًا ..

وبهذا الاحترام الكامل للإنسان ، صنع الإسلام حضارته لقاءً حميمًا بين المادة والروح ، حين غلَّبت الحضارات والأديان قبله ، أحدهما على الآخر .

الإسلام رؤية جديدة للحقيقة ، فحين تستحضر المسيحية ملكوت الله فى القلب البشرى ، يستحضر الإسلام ملكوت الله فى داخل النفس وخارجها وما وراء المحسوس .

ومن هذا كان الإسلام **دينًا وحضارةً** ، شعائر وشرائع .. فرؤية القرآن لله ،

رؤية محيطة . وإن القرآن الكريم حافل بالصور ، **ولكنها ليست للتصوير الحسى . . . إنها رؤى ممتدة** . . يقول الله تعالى (كلمة طيبة كشجرة طيبة) كيف تصور هذه الآية .

رؤى ممتدة ، هى انفتاح لا يعادى العقل ولكنه أبعد منه مدى . . انفتاح يرى الخلد لا يعنى استمرار الزمن ، ولكنه **يعنى ما وراء الزمن** .

يقول كارليل Karlile فى كتابه « الأبطال » : (لو لم يكن محمد فيه صدق ، لما استطاع دينه أن يعطى هذه الحضارة كلها) .

الحضارة – كما قلت قبلاً – هى عطاء الإنسان : **عقله وروحه ووجدانه ويده** . فوقف عقله وراء تجاربه يدرك الأشياء ويربط بينها ويحلل ويستنتج ويستشف ، ليصل إلى جواب السؤال الذى حاك فى نفسه أو طرحه عليه واقعه .

ومن إشراقات روحه اهتدى إلى الدين .

ومن هزات وجدانه أبدع الفن ، وأترع الخلق ، وأمرع الحب .

ومن صنع يده : الإناء والبناء والنسيج والزرع والشجر .

ومن بدع أنامله : الرسم والتصوير والنمنمة والنقش على الحجر .

كان خالقه يعرف قدراته حين ركبه فى أحسن صورة .

وكان ربه يعرف طاقاته حين ميزه بالعقل والنطق وعلمه ما لم يعلم . . وأكرمه فكتب وقرأ . بل كرمه على الملائكة فحمله الأمانة .

جعل له عينين ولسانًا وشفتين . . وهداه النجدين . ومع البصر ، البصيرة .

ومع اللسان والشفتين ، حبال صوتية فتكلم وترنم .

هذه حقيقة .

وقد وقف « جون ديوى » طويلاً عند دور الكلام فى صنع الفكر الذى يقوم على المسميات والصفات .

ولأمر ما ، بدأ الوحى فى الإسلام بالآية الكريمة (**اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم**)[1] .

كانت **هذه بداية كبرى للإسلام** ، وكانت فاصلاً بين الجاهلية والإسلام الذى هو علم ومدنية وحضارة .

فى كتابى (الأدب والحضارة) وقفت طويلاً عند رحلة الإنسان على مسار السنين . كتب الإنسان على ألواح الخشب وكأن الشجرة أفاءت على الإنسان الظل والنور فى وقت واحد .

على فنن من الشجرة غرد الطير وأرسل النغم . وعلى لوح من الشجرة غرد الإنسان وكتب بالقلم . وبلا شك قبل أن يكتب الإنسان ، تكلم .

لابد أن يكون الإنسان ، قد استحدث أصواتًا يقلد بها زفيف الريح ، أو حفيف الشجر ، أو رفيف النسمة ، أو هسيس الموج على الحصى ، أو خرير النبع ، أو هدير البحر ، أو زقزقة العصفور ، أو هديل الحمام ، أو بغام اليمام أو حتى ثغاء الشاه ومواء القطة .

ولابد أن هذه الأصوات جميعًا لفتته أو أدهشته ، أو فتنته . . فحاكاها . وسار الزمن . . وسار الإنسان .

الزمن يجدد دورته . . والإنسان يصنع حضارته . . ابتداء بالوسائل ،

---

(١) سورة العلق ـــ الآيات : ١ ـــ ٥ .

وتطورًا إلى الغايات . وبين المرحلتين ، تبين له أن حضارته لا تقوم بغير خمسة عناصر : الدين . . والفن . . والعلم . . والعمل . . والمال .

وقد زكاها جميعًا الإسلام . دعا الإنسان إلى رعايتها رعاية جامعة متوازنة يثرى بها ، فى شمول روحه وجسمه معًا فى توفيق دقيق ، وحقيق .

ولكن بين المرجلتين ، أى الوسائل والغايات ، بون شاسع وبعد بعيد . فأرنولد توينبي ، يذهب إلى أقدم أثر خلفه الإنسان فى رحلته مع الحياة ، أو قصته مع الحضارة ، يرجع إلى ثلاثمائة ألف سنة ، وإن كانت آراء أخرى تهبط بهذا الرقم كثيرًا ، لا سيما العهد القديم ، الذى يحدد عمر البشرية بسبعة آلاف سنة (النص اللاتينى) أو ستة آلاف « النص الإغريقى » حين جاء روبرت هوك فى عصر العلم واستقرأ طبقات الأرض فأكدت الجيولوجيا أن عمر الأرض أضعاف هذا الرقم .

الجيولوجى الدكتور نصرى شكرى فى مقاله (قصة الأرض) يقول : إن لكل وحدة ، **تاريخًا شيقًا** . . فالنيل بمعناه الواسع تاريخ يربو على خمسين مليونًا من الأعوام ، انتقلت فيه دلتاه من الفيوم إلى الصحراء الغربية ، إلى مكانها الحالى . بل إن لكل قطعة من زلط الصوان المنتشر فى الصحارى قصة تصل إلى مائة مليون عام .

ولكن أكبر من هذا كله وأشمل وأصدق ، وصف القرآن الكريم لله جل جلاله بأنه (هو الأول والآخر) .

عمر الأرض مليون سنة أو ألف مليون سنة ، أو غير هذا . . . الله هو الأول والآخر .

وانعكس هذا على الفن الإسلامى بما يشهد به غير المسلمين ، فى وفاء للحقيقة ، هو تجرد وتجريد يرتفع إلى أفقه الإنسان العالى ، إزاء الحقائق الساطعة والناصعة . يقول الدكتور بشر فارس فى كتابه النافذ والنافد أيضًا « سر الزخرفة الإسلامية » :

(على المؤمن أن يتوجه بكيانه إلى الله ، فالله مصدر جذبه وغاية سعيه فى آن واحد) .

وفى القرآن الكريم (**ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله**)[1]

وفيه أيضًا(**ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون**) .. هذان معنيان لا يفتأ كتاب الإسلام يرددهما .

من هنا لدونة الزخرفة الإسلامية ، وقد آل بها المطاف بين يدى الإسلام أن عتقت من الواقعية الهلينية ، وخلصت من الصلابة الفارسية . فلا مبتدأ لها ولا منتهى ، وما يجوز لها أن تطمع فى أحد منهما ، لأنها تسعى وراء الله الذى (**هو الأول والآخر**)[2] .

منه تبتدئ الأسباب وتنتهى المسببات . وبفضل اللدونة نرى « الوحدة » فى الزخرفة الإسلامية ، دوارة تارة وتارة متوترة . . وهى فى أكثر الأحوال تلتوى وقلما يدركها البهر . . ووجهتها أبدًا ما لاحد له ، فهى ماضية بلا ملل . . . وهيهات أن تبلغ ما تهدف إليه ، فشأنها شأن إيقاع يترنح منقادًا للصبر .

وإن كنت أرى مع الدكتور زكى حسن أن الوحدة فى الزخرفة الإسلامية

---

(١) سورة البقرة – الآية . ١١٥ .

(٢) سورة الحديد – الآية : ٣ .

تتوقف أحيانًا عن المضى بعد أن زايلها الشعور بالخوف من الفراغ متأثرة بالفن الصينى .

بل إن الدكتور بشر فارس ، أحس بصعوبة التركيز فجنح إلى التطبيق قائلاً : « إن التفاف العرق بوروده وأوراقه ، كذلك انبساط السطوح ، يقفان فجأة أحيانًا ، أو يتكسران حتمًا على الحواجز ، عند أطراف الساحة التى تستقبل المنمق . أترى يرضى الالتفاف والانبساط بهذه الهزيمة ؟ كلا ، أما العرق فلا تختتم مداته ، وأما السطح فلا تلتحم أضلاعه . . . بل كل يصل إلى المدى المقدر له وهو فى فوران نشاطه : إما عند رأس انثنائه ، وإما فى قلب اشتباكه ، كأنما يتأهب لاستئناف الاندفاع ، فيدعوك إلى أن تثب وراءه فى الخلاء ، لعلك ، من طريق التخيل تلاحق جولاته وقد صدمته قسوة الواقع . . تلك نشوة مشت فى الخط تنبئك أن أفق الغيب المستغلق دون المؤمن مشغلة دائمًا لذوقه .) .

* * *

وهكذا يكون الإسلام مددًا للحضارة ، وسندًا للفنان أى الإنسان المتحضر . وإذا كان فن الأدب يفقد الكثير حين الترجمة ، فإن التشكيل له قدرة على الإقناع والإمتاع عبر حواجز الجنس ، والمسافة ، واللسان .

والقرآن الكريم فيه توجيه لروائع الخلق : (**هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى**) (**أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله**) .

(**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت**) .

والإبداع الفنى لغة عالمية مغروسة فى نفس الإنسان كغرائزه . وبعض

الإبداع متاح بغير تعلم . . ولكن هناك إبداعًا مشحونًا بمجاهدات روحية . وهذا مقصور على من وهب :

* حسن التلقى .
* الرغبة . أى التشوف والتشوق إلى ارتقاء درجات أعلى وأرحب من النمو الروحى للإنسان .

الرؤية القلبية التى يشيد بها القرآن .

(ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض) .

(فأينما تولوا فثم وجه الله) .

(خلق الله السموات والأرض بالحق) .

هذه الكلمات مادة لحياتنا فى العلم والفن والدين ، نصوغ منها بمختلف المواهب صورًا شتَّى .

فتح من الله وفيض ، هذه الرؤية القلبية ، ولهذا يعتبر المتسرع فى الحكم على الخلق فى الكون أو الفن ، قاتلاً للقيمة وقاتلاً لنفسه حين وكل لسانه بقطع رسائلها عنه . إن الثرثرة وإلقاء الأحكام بلا تثبت ، تزحم السكون بالضوضاء ، فلا يسمع المشاهد الأصوات الدقيقة الهامسة الآتية من أعماق النفس ، متلاقية أو متوازية ولكنها متحابة . **(قم الليل إلا قليلاً) القيام هنا منه ، التأمل . . الخلوص من الاهتمامات الصغيرة بالنهار .**

يعد الدارسون ، الفنون قائلين ، إنها فنّ الأدب والرسم والنحت والتصوير والموسيقى . . وننسى فن الروية . . فن التلقى . . فن البصيرة الذى هو باب من أبواب الحياة .

وهذا الباب فتحه القرآن الكريم على مصراعيه ، فى دعوة دائمة ودائبة

للتأمل . والإسلام ربيب الصحراء ، خير معين على هذا التأمل .

والإسلام المتحضر الفنان . يدعو إلى الجميل فى العمل والقول حين زكى الحسنة . والحسنة من الحسن . والحسن هو الجمال . والعمل الجميل هو الذى يرضى (كل) الإنسان أى ذوقه وعقله ومشاعره .

والشيخ شلتوت يقول « المعروف ما تعارفت عليه الفطر » .

ومن هنا جاءت تسمية المنكر . لقد أنكرته الفطر السليمة .

ولأمر ما ، تشابهت الحروف أو تماثلت بين الطيب « بفتح الطاء » والطيب « بكسرها » .

والإسلام يطلب إلينا ، فعل الجميل ، أى الفن ، بما فيه من قدرة على **التكامل** ، تضاهى قدرة العلم على **التحليل** .

والإيمان ليس الشهادتين فحسب . إنه عملية صعبة . إنه تجربة ، كما يقول « إقبال » فيلسوف باكستان .

تجربة كالعلم سواء بسواء ، فى محاولة كشف الذات بوصفها فردًا أعمق من نفس الفرد العادى القابلة للوصف التصويرى .

الإيمان إحساس بالكون الشامل كما خلقه الله . إنه استجابة « كل » الإنسان « لكل » الحقيقة .

إنه اتحاد بالكون . . .

استماع إلى المعزوفة الكبرى .

وينفتح القلب ويشرب النغم .

وتتوهج الروح إذ تلمسها الشرارة المقدسة . . . .

ويبصر الإنسان بعد أن رأى .

وكما لم يمل الإسلام الدعوة إلى التأمل . لم يكف عن الدعوة إلى العمل منبعًا من منابع ثقافة الإنسان ، ومنبعًا لإيمانه أيضًا . وحين يقول (**رب زدنى علمًا**) أى قونى على العمل .

والعمل غير أكل العيش . الوظيفة الأساسية للعمل ، **هى تشكيل الذات وتحقيقها** والارتفاع بها على المستوى الطفلى الذى ولدت به ، إلى المستوى الذى دعا إليه القرآن .

العمل الذى يتفتح به القلب على بحر الحياة اللامحدود بتواصله وتوحده معه . بوعيه بدوره فيه . .

والنفس مشوقة إلى هذا اللقاء ، ولكنها لا تعرف الطريق إلا قليلاً . . .

والطريق أن **تتوحد بالعمل** ، وإلا أصبحت النفس أشتاتًا متعاركة .

ويعم التطاحن من أجل الوجود . . ويصبح الكون عبثا فى عبث . **حين تفتقد النفس ، المعنى .**

ومن المؤلم أن هذه سمات العصر . لانحراف معنى العمل . . أولغياب العمل الحقيقى . فلم يحقق الفرد ذاته فى ظل النمطية .

العمل قيمة .

وهذا تفسير الحديث : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » .

والعمل الحديث يبدو أنه نسى هذا المعنى . إنه يضفى على الإنسان خيرات مادية ولكنه يسلبه إنسانيته . . . أى يحوله إلى آلة .

لا استغناء عن الآلة ... لا عودة إلى الوراء .

ولكن ما نريده هو استئناس وتصحيح الآلة .

لقد قتلنا كما يقول هكسلى ، « الكرافت » أى الصنعة اليدوية ، أى فن توليد الحب .

إننا الآن نشيع اللاحب فى الحياة الحديثة ، أى « الآلية » – الحاسب الإليكترونى حين يحرر الإنسان من الأعمال الصغيرة ، مقبول كما حررت المطبعة . المؤلف من النسخ .

ولكن العقل الإليكترونى حين يلغى عمل الإنسان أو يطغى عليه ، مرفوض . إن العمل إيمان .

والحضارة فى عصور زهوها ، **عمل** جوده أصحابه لإيمانهم به وتحقيق ذاتهم من خلاله .

إن أزمة الإنسان المعاصر ، أن التربية الحديثة عنيت بذهنه دون وجدانه ، فعجز عن إيجاد المعادل المعنوى للتقدم العلمى .

إن البحث العلمى الحقيق ، **تجربة وتجرد** . وعصرنا امتاز فى الوسائل من تليفون (مسرة) وبرق .. إلخ ، ولكنه يفتقد القيمة .. القيمة التى تتركز فى **الدين والفن والفضيلة** .

والإسلام قيمة كبرى **لعناقه مع الحياة فى ود موصول** يطبع حضارته بفنونها وعلومها حتى غدا له طابعًا . يقول م . س . ديماند فى كتابه « الفنون الإسلامية » :

(يمتاز الفن الإسلامى بتنوع عظيم ، أصاب نواحيه وأشكاله وصناعاته وزخرفته وأقاليمه ورجاله ، وهذا التنوع بلغ من الشدة حدًّا يصعب فيه كثيرًا أن نجد فيه تحفتين متماثلتين ومع ذلك يمتاز **بوحدته**) .

الواحد هو الأصل فى **العدد** .. **وفى الكون** .. والتنوع هو الظاهرة الكبرى فى الطبيعة ... والفن الإسلامى لم يعط الصورة إنسانًا ، أو شجرًا ، أو نهرًا «كينونة» ، لأنه اعتبرها ظلالاً عابرة فى طريق تطلعه الدائم إلى ما وراء الطبيعة ... **إلى الله الواحد** .

وحين تمثل الفن الإسلامى هذا المعنى ، خرج خلاصة مقطرة للحيوية والحياة .

كرم الإسلام الإنسان ، بالحرية والشورى ، وإرادة الاختيار ، ودعوة التأمل والتفكير ، حتى ليقول «الأستاذ العقاد» «التفكير فريضة إسلامية» الإسلام قيم ومبادئ .

اعتد الإسلام بالثراء الداخلى للإنسان من صفاء الذات ورهافاتها وكرامتها .

الإنسان فى الإسلام هو نفسه موضوع وشخصية ، **والمجتمع الإسلامى** موضوع وتشريع ...

والعالم فى الإسلام ، رؤية جامعة .

وهو بهذه الأبعاد كلها ، حضارة وثقافة وأسلوب رسالة .

ومن الحضارة ، الفن .

والإسلام لا تعبر عنه ، الخطابيات ، ولكن يعبر عنه الفن الإسلامى **وهو الذى انبثق منه** .. **عمارة** ونقشًا ورسمًا وخطًّا .

الإسلام والعمران فى المجتمع الإسلامى :

الإسلام والعمارة :

العمارة عمار واستقرار . والإسلام حب العمار (**فامشوا فى مناكبها وكلوا من**

رزقه) . **والإسلام يحب البناء** ، حتى ليشبه به تماسك المجتمع الإسلامى « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا » .

وقد اهتم الإسلام ببناء المساجد ، وجعل عمارة البيت الحرام مرقى من مراقى القربى إلى الله تعالى .

(**إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر**) .

ومسجد المدينة كان الرسول يعمل بيده فى بنائه مع الصحابة والمسلمين تكريمًا للدين ، وتكريمًا للعمل ، وتكريمًا للبناء الذى يضيف ويرفع ، حين يحطم الهدم ، ماديًّا ونفسيًّا .

وقد كيف الإسلام ، عمارة المسجد من حيث :

* الفراغ المعمارى .
* الارتفاع .
* الزخرفة .

ففى المعبد الفرعونى ، يتجه الفراغ إلى نقطة محددة من بهو الأعمدة . . . إلى قدس الأقداس . وفى الكنيسة المسيحية ، يتجه المصلون إلى الهيكل . وفى المسجد ، الفراغ **رأسى** يربطه بالسماء كما بالمئذنة ، **وأفقى** يربطه بمكة .

إن إيثار **الإسلام للمساواة** واحتفاله بها ، وتأكيده عليها ، انعكس على العمارة الإسلامية فمالت إلى **الأفقية** التى تحمل معنى المساواة حين تعين « الرأسية » على التفاوت و « ترفع » الارتفاع وشموخه . ولهذا يقوم نظام النسب فى الإسلام كما يقول العالم الأثرى الأسبانى « دون مانويل جومث مورينو » : على أساس

الوضع الأفقى . وكأنه تحية لروعة الخلق الإلهى فى البحر والسهل . . . وكأنه تأكيد لصفوف المؤمنين فى المسجد حين الصلاة .

ولا يستثنى من الأفقية الإسلامية المحببة إلى الفنان المسلم ، إلا المئذنة لحاجة الدين إلى انتشار دعوة الأذان على مساحة واسعة لإقامة الصلاة أحد أركان الدين الخمسة . ولا يتحقق الإنتشار المنشود إلا إذا انطلق الصوت طليقًا ، من ارتفاع .

حتى ما يخرج عن « الأفقية » من الأشكال ، يطوعه الفنان المسلم لها .

يقول الدكتور عبد العزيز سالم[1] : إن الفنان المسلم « حين يخطط زوايا ، يؤثر المنفرجة ، لأن الزاوية القائمة شكل من أشكال الارتفاع ، وحين يبرز استدارات فإنه يطوقها بإطار مربع ، وحين يقيم قبابًا ، فإنه يهتم بتصغير نسبها حتى لا تفسد أفقية البناء . بل يوزع تكورها على فصوص ، أو يقضى عليه بأن يستبدل به تقاطع العقود ، أو يهبط به إلى مستوى القبوات » .

وينعكس مبدأ المساواة فى الإسلام ، مرة أخرى ، على العمارة الإسلامية ، فى ميل المعمارى المسلم إلى **السقوف المنخفضة** المتمثلة فى المساجد الأولى كجامع المدينة ، والجامع العتيق بالفسطاط ، الذى يحكى المقريزى أنه كان منخفضًا حتى عهد الوليد بن عبد الملك حين قام عبد الله بن عبد الملك برفعه سنة ٨٩ هـ . بل إن المقرى فى « نفح الطيب » : يحكى أن جامع قرطبة الذى أقيم بعد الفتح الإسلامى سنة ٩١ هـ ، كان يصعب على المصلين به القيام على اعتدال لتقارب هذه الأسقف من الأرض « ج٢ص٩٦ » وظل هذا طابع

---

(١) كتاب القيم الجمالية فى فن العمارة الإسلامية .

المساجد فى دولة الإسلام حتى القرن الثالث الهجرى فإن جامع ابن طولون فى القطائع الذى أقيم سنة ٢٦٥ هـ ، كان ارتفاع سطحه لا يزيد على عشرة أمتار عن أرضية المسجد .

وما لبثت مصر أن عملت على تصعيد الارتفاع فى المسجد بوراثاتها القديمة التى رفعت المسلة والهرم . . . ويتجلى ميل مصر إلى السموق فى الأعمدة والأسقف فى جامع السلطان حسن ، حتى ليسميه أساتذة العمارة من المستشرقين ، **هرمًا إسلاميًا** .

لقد قاربت المساواة فى الإسلام بين المسلمين ، وقربت بين الفنون الإسلامية .

فى مؤتمر الفن الإسلامى بلندن عام ١٩٧٦ ، قال النقاد الفنيون فى شبه إجماع : إن الفن الإسلامى على اختلاف أوطانه ، متشابه . وعزوا هذا التشابه إلى الخط العربى .

الفن الإسلامى يشد بعضه إلى بعض ، رباط بلا شك . إن العنصر الرائع الذى يربط عطاءات الفن الإسلامى فى أوطان عدة ، **إنما هو الفكر الإسلامى . . . إنما هو روح الإسلام** من مساواة وحرية وسماحة وتوحيد . . . ثم تجىء الكتابة العربية فتستوعبه . على أن الخط العربى ليس واحدًا وإنما هو تسعون نمطًا ، من حرية الكاتب المسلم فى الرسم والتشكيل .

كيّف الإسلام بروحه وتعاليمه العمارة الإسلامية . يقول الدكتور فريد شافعى[1] « الدين قد يستخدم العمارة والفنون للتأثير على الناس ، أو يستخدمها

---

(١) كتاب : « العمارة العربية فى مصر الإسلامية » للدكتور فريد شافعى . ص ٢٣١ .

هؤلاء للتعبير عن شعورهم نحو دينهم) .

وقد عدد الدكتور فريد المؤثرات التى تكيف العمارة فى أى مكان . . من تلك العوامل : النظم السياسية – الحالة الاقتصادية – البيئة المناخية – الطبيعة الجغرافية – التكوينات الجيولوجية .

وقد خضعت العمارة الإسلامية لهذه العوامل فى نشأتها وتطوراتها ، خاصة فى مصر حلقة الوصل بين الشرق والغرب . . . ويؤكد الدكتور فريد : أن العمارة الإسلامية فى المسجد ، نمت نموًّا محليًّا جعلها تختلف فى وحداتها ، وفى نسبها ، وأحجامها ، عما يقابلها فى البلاد الإسلامية .

القبة فى العمارة الإسلامية ، تنتهى إلى نقطة يعلوها هلال هو رمز الميلاد الجديد فى عملية اختزال رائع للحياة . . . ميلاد وعمل باقٍ ثم موت تعيد بعده الحياة نفسها كرة أخرى .

والحرية فى الإسلام واحترامه للإنسان ، انعكس على العمارة الإسلامية .

فى الفن الإغريقى « أمر » أى مقاييس ثابتة ومحددة وهى بهذا محدودة .

الفن الإسلامى له رؤية ثم يتنوع بتعدد الإنسان الخلاق الذى يحترم الإسلام حريته .

كرّم الإسلام الأم والأب ، فارتفع فيه معنى الأسرة ، وكرّم الإنسان فارتفع فيه معنى السر والستر .

ومن هنا **احتفل الفن الإسلامى بالباب** فنقشه ونمنمه بما يقفل على أسرار مصونة ، ويفتح على عالم سعيد . أسرة . . . أب وأم وأبناء .

الباب الإسلامى معمور . . . إنه بستان نباتى ملتف الأغصان تحف به النجوم ، إشارة إلى وحدة الكون واستضاءته بفضل الأصل الواحد . . الله .

حبب الإسلام **الحجاب** بما فيه من ذاتية وخصوصية ، وانعكس هذا على طراز عمارة البيت الإسلامى الذى يفتح على الداخل لا الخارج . . . والذى تشكل نوافذه مشربيات حاجبة . . حتى حديقته ونافورته فى الداخل كى يستقل أصحابه بما حوى .

هذا حين يدخل الجميع من باب المسجد ، لأنه بيت الله إله الناس . . . تساووا فلا الأنساب فيها تفاوت . . لديه ولا الأقدار مختلفات .

المسجد للجميع ، لأنه بيت الله ، اللائذون به كثيرون وهو لا يصد أحدًا . . . فلهذا تعددت الاتجاهات المفضية إليه ، وكان المسجد فى البداية يبنى فى وسط المدينة تيسيرًا للجميع ، ليس بالمسجد حجاب أو أماكن متفاوتة مخصصة . إنه مكان واحد رحيب كالقلب المفتوح . من يحضر أولا ، يتقدم فى الصفوف على سواء بين الناس .

الترتيل فى القرآن (**ورتل القرآن ترتيلا**) انعكس على العمارة الإسلامية ، ممثلا فى ظاهرة العقود المتوالية .

توالى العقود ، لون من الترديد :

لون من التطريب الهندسى ونثر النجوم فى الزخرفة الإسلامية فى أحجام مختلفة ، نوع من الترديد والتوليد . إنه تحية لسورة النجم . . . تحية للآية (**والسماء والطارق . . . النجم الثاقب .**) ونظام الوحدات فى الزخرفة الإسلامية ، لون من الترديد .

وفى المسجد ، دكة المرددين ، **وهذا غير التكرار** الذى يوقع فى الملل . أن يكون التكرار محسوبًا فى هدف أعلى ، فن .

الرحمة فى الإسلام ترجمتها العمارة الإسلامية فى عدة صور : المارستان والأسبلة ، الأربطة ، الأوقاف أو الأحباس[1] .

الجنة فى الإسلام شكلت كثيرًا من الآثار الإسلامية :

لما كانت الجنة لا وجود لها فى الديانة اليهودية القديمة ، كان من المحتم أن تنال الفضيلة ثوابها فى هذا العالم ، وإلا لم يكن لها ثواب على الإطلاق .

وهذا سر ما اتسم واتصم به اليهود من تكالب على المادة . كل مشكلة عند اليهود سببها وحلها « الفلوس » . وفى الإسرائيليات : عندما تساءل النبى أيوب عن الخير والشر والحكمة والعدل والظلم ، جاءه الجواب فى صورة ، هبة من الرب مقدارها ١٤٠٠٠ من الغنم ، ٦٠٠٠ من الإبل ، وألف من الثيران ، وألف أتان ، وسبعة بنين ، وثلاث بنات .

وهى كما يقول « ديورانت » فى كتابه « قصة الحضارة » خاتمة سعيدة ولكنها عرجاء ، لأن أيوب تحصل على كل شىء إلا جواب أسئلته . وتظل المشكلة قائمة عند اليهود حتى سفر الجامعة لم يحلها ، بل كانت رؤيته لها متشائمة حين قال :

« إن الهناءة والشقاء فى هذا العالم لا شأن لهما بالفضيلة والرذيلة » .

بينما الإسلام يبث الأمل والطمأنينة فى نفوس المؤمنين بالوعد بالجنة ، وبوجود حياة أخرى وثواب وعقاب يعاقب على السيئة ، ويثيب على الحسنة بعشرة أمثالها ، مما جعل المسلم يعمل لآخرته كما يعمل لدنياه ، **وليس أبقى أثرًا**

---

(١) الرباط : مكان العبادة ومأوى المسافرين وفيه مكان لكفالة النساء ورعايتهن .

وأقوى تخليدًا من العمارة الخيرية برسوخها وثباتها ، فنرى أشد العصور ظلمًا وظلامًا ، أحفل العصور بالمساجد والأسبلة والأربطة من باب التقوى أو التكفير عن الذنب . . بل ظهر فى النظم الإسلامية **نظام الأحباس** أى الأوقاف ، حتى العمارة الدنيوية يحبسون ريعها أو بعضه على أعمال الخير ، بشروط يرونها محققة لآمالهم فى المثوبة من الله .

وهكذا يدين شطر عظيم من الآثار الإسلامية على اختلافها ، للإسلام دينًا للدنيا والآخرة .

وتأكيد الإسلام لقيمة العمل ، الذى وقفت عنده فى موضعين سابقين لعمق إحساسى مسلمة به ، من تقدير وتقرير الإسلام له واعتباره عبادة ، انعكس فى لغة الحياة اليومية قولا مأثورًا للذى يعمل « الله يفتح عليك » . أى إن العمل المتقن فتوح من الله ورضًا .

الخلوص فى العمل الذى سبق أن تحدثت عنه ، نوع من استنزال الوحى الفنى . . . معراج إلى ذرى القيمة . كما انعكس فى مثل قولهم : « اعمل لوجه الله أو بما يرضى الله » ، أى أن الإتقان لذاته ، أكبر كثيرًا من المقابل والأجر . وهو قربى إلى الله : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » .

إن حلم الإنسان المعاصر بعد معاناة طويلة من التشقق ، **الاستقرار والوئام النفسى** وسلام فى أعماق النفس . وهو ما نجح الإسلام فى الإيحاء به ممثلا فى :

* **البهجة فى العمل** على المستوى الفردى والجماعى .
* **القدرة على التنويع** مع الاحتفاظ بوحدة العمل .
* **الحرية فى القبول** طبقها المسلم فى الفن والعمل والحياة من وحى اعتمادها

فى الدين . ويترتب على هذا ، السعادة فى العمل . وهى نعمة ومثال للحياة السوية .

والعمل على المستوى الفائق ، مرقاة إلى الخلاص Sahuation على يد الرائع الذى تسهم فى إبداعه . إن القرآن ليس للتبرك ، إنه **روح الثقافة** الإسلامية .

سماحة الإسلام الذى سمى نفسه دين الفطرة إشارة إلى أنه دين الإنسان السوى ، أينما وجد وفى أى مكان « بعثت إلى الناس كافة » . لقد طبق الإسلام هذا المعنى عمليًّا وتلقائيًّا ، حين صارت له دولة وصولة وخلافة ، فلم يتمسك بمكة أو بالمدينة عاصمة له .

إن الإمبراطورية الإسلامية ، هى الإمبراطورية الوحيدة التى لم تتمسك بعاصمة واحدة تقليدية .

كانت العاصمة فى الإسلام ، دمشق ثم بغداد والقاهرة ، هذا غير المدن الأندلسية . وكان من أثر هذا ، أن ازدهرت فى الإسلام العواصم معماريًّا وفنيًّا وعلميًّا ، لأن كل عاصمة يوفر لها أهلها رصيدهم من الحضارة ، وطاقاتهم الإنشائية والفنية ، فكسب الإسلام هذه العواصم الزاهرة الزاخرة التى أعطته وأعطاها . . . وهى فى النهاية محسوبة له إذ بها يميل الميزان الحضارى إلى الرجحان ، حاملة اسمه ، آخذة مكانها فى التاريخ ، فى مصاف الحضارات ، **حضارة إسلامية .**

الإسلام والفنون التشكيلية :

(يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات) .

إن الفن التشكيلى له قدة على الإقناع والإمتاع عبر حواجز الجنس والمسافة واللغة . **والقرآن الكريم فيه توجيه للتشكيل (هو الله الخالق البارئ المصور)** . **وفيه توجه للنور والظلال (والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وماسواها)** ..

الكون فى الإسلام صور . . . الزهرة صورة ، والقمر ، والضحى ، والليل ، صور . . حتى الكلمة الطيبة ، صورة فى القرآن ، فهى كشجرة طيبة . صور أقسم بها القرآن إشارة إليها وإشادة بها ، وإعلاء لها ، ودعوة إلى اجتلائها فى سجدة قلبية ، هى هدف الإسلام من السجود .

السجود الحقيقى فى الإسلام تسليم القلب بالقدرة ، وشهادة للخالق بالتفرد ، حين ينبهر الإنسان المحدود ، بالكون الشامل فيقول بالحركة : **(ولم يكن له كفوًا أحد)** . .

ومع هذا ، تطوحت الآراء فى فن التصوير ما بين حلال وحرام . نتهم الحضارة الإسلامية بمجافاتها لفنى : **التمثيل والتصوير** ، والتصوير هنا المقصود به : الرسم والنحت . ولو حللنا هذا ، لوجدنا السبب يكمن فى معنى المسجد فى الإسلام ، فالإسلام جعل علاقة الإنسان بالله مباشرة بلا وسيط ، فليس فى المسجد كهانة أو كرسى الاعتراف ولا تقديس لغير الله ، ولهذا لم يهتم المسلمون بحشد المساجد بالصور والتماثيل حين اعتنوا بالبناء الجميل والقباب الفاخرة والمحاريب . ولا شك أن العرب اعتمدوا فى هذا على الأمم التى سبقتهم فى هذه الفنون ، وهم الفرس والمصريون والروم ، وأنهم استعانوا بالبنائين من القبط والأرمن فى كثير من العمارات ، ولكن الذى لا شك فيه أيضًا ، كما يقول

الأستاذ العقاد ، أن الروح العربية كانت وراء اليد الصانعة والمبدعة حتى ليتساءل : « من ذا الذى يتملى منظرًا من مناظر القصور العربية ويعزل بينه وبين رشاقة النخلة الهيفاء وخفة الفرس الضامر وهودج الحرم المكنون وتناوب الحياة بين الفضاء والظلال ؟ ومن ذا الذى ينظر إلى تلك الأقواس والنوافذ ولا يعقد الصلة بينها وبين الحافر تارة أخرى ؟ بل من ذا الذى يسمع المقابلة بين المصاريع والقوافى فى الشعر العربى ولا يلمح المصدر الذهنى الذى أوحى به ماثلا فى الأنساق والمقابلات أو فى المربعات المتقابلة كما ظهرت فى أول بناء حج إليه العرب وهو البيت الحرام ؟ » .

وقوى نفوذ الفن الإسلامى ، حتى شاع فى انجلترا فى عهد الملكة أليصابات وما بعده وكانوا يسمونه Arabesque

وبعد الحروب الصليبية ، بنى الأوربيون قلاعهم على مثال الحصون العربية فى مضاعفة الجدران ، وإقامة البروج والأبواب المنحرفة ذات الزوايا القائمة التى تحول دون وصول القذائف إلى الأفنية الداخلية .

كما تأثر بناء الكنائس فى أوربا بالكنائس الشرقية المتأثرة بدورها بالطراز العربى ، فظهرت فى الكنائس الأوربية الزوايا والبروج المستديرة .

وقد بلغ من نفوذ وسحر الفن الإسلامى على الأوربيين ، أنهم قلدوه تقليدًا حرفيًّا فنقلوا حروفه على أنها جزء من النقوش . ومن الطريف ، ما ذكره الأستاذ توماس أرنولد فى كتاب « تراث الإسلام » : أنهم عثروا فى أيرلندة على صليب من مخلفات القرن التاسع على الأرجح ، نقشت البسملة على زجاجة فى وسطه بالحروف الكوفية . واشتملت كنيسة بمدينة فلورنسة فى منظر تتويج السيدة العذراء ، على أنسجة منقوشة بالحروف العربية .

يقول م . س . ديماند فى كتابه « الفنون الإسلامية » الذى ترجمه أحمد محمد عيسى :

« يمتاز الفن الإسلامى بتنوعه العظيم تنوعًا أصاب شمل نواحيه وأشكاله وصناعاته وزخرفته وأقاليمه ورجاله ، تنوعًا بلغ من الشدة حدًّا يصعب فيه كثيرًا أن نجد معه تحفتين متماثلتين » .

بعد هذا ، يتضح لنا أن العرب لم يجافوا فن الرسم والتصوير بالصورة التى حاول البعض تجسيمها . إن أشعارهم وهى سجل تاريخهم فى الجاهلية حافلة بأوصاف الدمى والعرائس . . وأشعارهم فى عهد دولتهم الإسلامية حافلة بأوصاف التصاوير فى الملابس والمبانى والآنية وحلى الزينة وقصور الملوك والأمراء . وقد أحصى المغفور له أحمد تيمور باشا فى كتابه الكبير عن التصوير عند العرب ، مئات الأبيات التى تدل على انتشار الرسم والنحت فى الآثار الإسلامية ، وأورد غير قليل من الأسماء العربية التى تفرغ أصحابها لهذا الفن وعكفوا على النقش ، بل ونحت التماثيل من المعادن والأحجار .

الإسلام والتصوير :

وكما أن الإسلام دين الفطرة ، فالفن الإسلامى فن طبيعى لا تطبيقى فقط . . .

من الناس من يرى الفن الإسلامى هو الأزهر . . فإذا بعدوا قليلا ، فهو خان الخليلى . . .

إن الفن الإسلامى هو المجلى الحقيقى للإسلام ، ولسنا هنا فى مجال التعرض

لآراء الفقهاء المسلمين فى الفن من قريب أو بعيد ، وإنما نلمس الموضوع لمسًا إنسانيًا عامًّا .

لقد كان شبنجلر يقرأ تاريخ الأمم من خلال فنونها .

إن الإسلام بسلطانه الذاتى المستحكم والمستحب وراء رؤى الفن الإسلامى وخطوطه بما لم يستطعه أو يأتيه دين آخر . . . فكراهته التصوير نظرًا للأصنام ، ولا أقول تحريمه ، إنما هو فى الحقيقة حرج كبر حتى صار وهمًا فى البداية . ثم خفت شيئًا فشيئًا حتى زال واقتنى المسلمون أصحاب القصور ، الصور والتماثيل .

لم يحرم الإسلام التصوير بمعنى الفن الجميل ، لأن كتاب الإسلام يصف الله بأنه الخالق البارئ المصور ، أى الذى يعطى الأشياء صورها أى صياغتها . والصياغة شكل ذو دلالة . ولكننا نأخذ معنى المصور عن المفهوم الأوربى بثنائياته .

الصورة ذات الإطار ليست صورتنا . إن فننا فن الجدار لا الإطار . . . الإطار أسلوب عارض جاء مع برجوازية أوربا إرضاءً للفرد .

الإسلام فيه تصوير بالمعنى الإسلامى لا الأوربى ، دون أن نقصد الدخول فقهيًّا فى هذه القضية .

إن الله فى الإسلام هو القدوس ، أى كما يقول الغزالى فى « المقصد الأسنى » المنزه عن كل وصف يدركه حس أو « يتصوره خيال ، أو يسبق إليه وهم ، أو يختلج به ضمير ، أو يقضى به تفكير) .

الله فى الإسلام (**ليس كمثله شىء**) .

كيف يصور أو يرسم الفن الإسلامى « المقدس » ؟ إنه ملتزم بالآية الكريمة
(**ليس كمثله شيء**) .

إن الشريف على بن محمد الجرجانى فى « تعريفاته » يعرف التقديس فى اللغة بالتطهير .

والتطهير أخص من التسبيح .

هو تنزيه الحق عن الكمالات التى يوصف بها غيره .

لقد اكتفى الفن الإسلامى بتنظيم الفراغ وهندسته وشحنه بالرؤى . فالفراغ فى صحن مسجد السلطان حسن مثلا ، وحوله الأبنية المصعدة فى السماء ، توحى الحضور الشامل . . . تزرع الإحساس بالروعة . وهنا يستشعر القلب ، جلال من ليس كمثله شيء .

على أن التحرج من التصوير ، وجه الفن الإسلامى فى مسار معين ومميز صار طابعًا له . . . فحين تحرج الفن الإسلامى من تصوير وتشكيل الإنسان بما وراءه من خلفية كقداسة الروح ، وتكريم الله له بأحسن تقويم وتكوين ، وتحميله الأمانة ، وسجود الملائكة له حين كان آدم فى الجنة لا يزال . . . هذه الهالة كلها ، منعت الفنان المسلم من التطلع أو التجرؤ على التشبه بالخالق الأكبر « فيمن خلق » فحاول التشبه به دون أن يقول ، فى عالم الطبيعة « فيما خلق » . وكأنه ينزل درجه تأدبًا .

واعتمد الفنان المسلم أو الفن الإسلامى على ما فى الطبيعة خاصة **النبات** . فالرقش نباتى ، أى يخدّم الزهر والورق مع الخطوط المتجانسة بإحساس دقيق ورهيف تتلاقى معه وتتعانق أو حتى تتباعد تواقة إلى لقاء جديد .

والرقش والزخرفة والنبات ، لم يكن بكرًا أو مبتكرًا . فقد عرفته مصر منذ

القديم وزينت بها آثار توت عنخ آمون ، كما تفنن الفن المصرى القبطى فى الحفر على الخشب والتطعيم بالعاج وغيره امتدادًا لفن مصر القديمة ، وعليه قام الفن الإسلامى المصرى ، ولكن عملية اختيار هذا اللون من الفن دون غيره من الفنون المطروحة للأخذ والاقتباس – له دلالته ومعناه (**ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون**) .

وفى محاولة للفلاح ، اتجه الفنان المسلم إلى الله ، واتجه الخط معه تلقائيًّا وقد أطاع وانصاع . . لان ولدن بعد صلابة فى النقوش الفارسية الهللينية . . .

ومضى الخط الإسلامى على صفحات الجدارن أو مسطحات النسيج ، وكأنه بلا بداية أو نهاية من طول سعيه وتفكيره فى الله الأول والآخر ، فالفن الإسلامى أينما يول فثم وجه الله .

ويطول بالخط فى النقش الإسلامى المطاف من الطواف ، فيلف ويدور ويلهث أحيانًا ، ولكنه لا يمل ، لأن الإسلام يغذيه أيضًا بالصبر وثواب التجويد . . . ومن التجويد ، التنميق والمد والامتداد حتى أطراف الساحة المطروحة للنقش ، أو الحواجز المانعة للاندفاع .

وحين تهيب الفن الإسلامى الكيان الإنسانى ، جعلت النظرة الأوربية مركزها الإنسان واهتمت زمنًا طويلا بالجسم عاريًا . فعصر النهضة عنده الشخصية الرئيسية . . . الموضوع الرئيسى « الموديل » أى الجسم العارى . وهو نفسه موضوع الإغريق والرومان قبل المسيحية . . . ولكن الفن الإسلامى فى هذا الموقف يؤثر التلميح على التصريح . . . . الكون فيه هو الأساس والهدف (**الله نور السموات والأرض** ....)

حتى كلمة النور ، رمز ، على روعتها .

وقد لعب اختلاف الرأى فى هذا الموضوع من موضوعات الفن دورًا كبيرًا فى الزخرفة الإسلامية ، التى ابتعدت عن رسم الإنسان إيثارًا للسلامة واتجهت إلى التجريد خطوطًا ، وإلى النبات أغصانًا وأوراقًا .

ولكن الزخرفة الإسلامية أعتقت من الواقعية الهللينية والصلابة الفارسية فانطلقت بلا نهاية تتطلع كالمسلم إلى الله الذى (**هو الأول والآخر**)[1] .

الخطوط فىالزخرفة الإسلامية فوارة طوافة . . . ويدركها البهر فتتوتر ، ولكنها تمضى بلا ملل من يعرف الصبر . فإذا قابلها حاجز من إطار ، أو حافة من جدار ، أفاقت كمن يصطدم بالواقع ، ثم ما تلبث أن تستأنف نشاطها من جديد ، فى ساحة أخرى . . بالروح نفسها . . . والتصور نفسه ، مما يحسبه النقاد ، تشابها وهو وحدة أسلوب مع تنوع الأنماط .

كما ابتكروا من الأشكال الهندسية ألوانًا وأنواعًا جديدة ألفوا بينها وأنتجوا منها أعدادًا لا حصر لها من الوحدات والتكوينات الزخرفية التى تسيطر على المشاعر .

وأنتجوا سجلا حافلا من العناصر النباتية من أوراق وزهور وثمار فى أشكال تجريدية محورة ذات طابع عربى إسلامى فريد .

ولقد بلغ من روعة تلك الابتكارات الزخرفية ، أن أطلق الفنانون الأوربيون كلمة أرابسك على أية تكوينات زخرفية تتشابك فيها العناصر حتى ولو كانت غير إسلامية .

---

(١) سوة الحديد - الآية : ٣ .

الزخرفة الإسلامية مؤمنة بأن الغيب سر من أسرار الله ، فهى دائمًا تواقة إلى المجهول ، مشتاقة إلى المكنون والمضمر .

وفى نشوة الخلق الجميل ، ينطلق الفن الإسلامى فيتعمق كل شىء حتى طيات الكساء وثناياه ، فإذا حقق غايته تعزى وارتوت روحه الظمأى ، بعض الشىء إلى عالم المجهول .

وحين تروى الزخرفة الإسلامية بوجدان حساس ، تشيع فيها رائحة عجيبة مستقرة وقريرة ، لأنها من ابتهاج ضمير ، فلا غرو أن ينزلها الفارابى منزلة « الألحان الكاملة » .

الفن الإسلامى الإنسانى ، فن المتلاقيات والمتقابلات ، أى التلاقى والتقابل . . . ممثلة فى خطوطه المتلاقية والمتقابلة ، وكذلك كيان الإنسان يعج بالتقابل ، ففيه رحمة وفيه قسوة وفيه حب وكره .

الفن الإسلامى بمقابلاته يحل هذا التناقض .

وخطوط النقش الإسلامى فى جملتها رزينة مريحة يلفها سلام . . . وفيها ود يبلغ من القماش طيات نفسه ومجامع قلبه . . . وفيها إحساس حيىّ لا يخرج عن حدود الإطار فى الجدار ، ولا يتهجم على الفراغ على الرغم من احتفاء الفن الإسلامى بالجزئيات ليعبر من وراء الكثرة عن عقيدته فى اللامتناهى . . اللا محدود . . . فى الله الأول والآخر . . . الله الذى لا يحيط به شىء . إن الفنان المسلم كالشاعر العربى الذى نسألوه عن فاتنته : أتحبها ؟

. . . . . . قلت بهرًا عدد الرمل والحصى والتراب

على أن الفن الإسلامى كثيرًا ما يصمت إذا ما أصابه البهر ، فتكون تفاصيله

تأكيدًا للفراغ . ويكون الفراغ تأكيدًا لها وتركيزًا لها وتكثيفًا للضوء عليها . وكأن المساحات الواسعة تعبر عن اللا محدود فى شبه نفى (**ليس كمثله شيء**) . . ولعله ذكاء منها أن تترك الفراغ حولها يزيدها عمقًا وغنى . ويركز عليها النظر ويجمعه ، فتزداد الرؤية نفاذًا تشف معه النقوش وتبين . . . وإذ تبوح بأسرارها ، تريح المشغول وتبلغ المأمول . . .

ووحدات النقش الإسلامى تتكرر وتتشابه وكأنها تحقق « **الأخوة** » التى نشدها الإسلام فى الأسرة ، وفى الجوار ، وفى المجتمع الإسلامى . . نورها يسعى بين يدى الفنان المسلم . ولكن طول الرتابة يصيب الخط الهندسى أحيانًا بالجمود ، فلا يخلصه منه إلا الخط العربى يزين النقش والنقوش بآيات الله ، فتهب عليه نسمة صبا ينتعش عليها القلب وينشط من جديد الخيال . . . ويعم الجميع القلب والروح وأنامل الفنان ابتهاج . فتمرح الخطوط وهى الوادعة وقد افترت فى انفراجها عن ابتسامة تسعد التعشيق ، فى المشربيات ، وتجبر المنحنيات فتصلب الخطوط الصابرة فيها ، عودها ، فى طريقها إلى قمة . . .

الخط العربى :

ولما كانت العربية جزءًا من الإسلام لنزول القرآن بها ، فقد تمثلت ، هذا ، **الزخرفة الإسلامية فى محبة للإسلام ، فغدا الخط العربى عنصرًا بارزًا من عناصر الزخرفة الإسلامية** حتى وصلت بها إلى تسعين نهرًا « أى طريقة » .

وانتقل حب ترتيل القرآن إلى ترتيل الخط ، أى تحسينه .

حين نوه الإسلام بالبيان (**الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان**) . .

وحين أقسم الله بأداة الكتابة وهى القلم . ارتفع شأو الأدب وارتفع شأن الخط باعتباره حامل المضمون وعنوانه . وهكذا ، انبعثت قواعد الخط محاذاة لأصول مخارج الحروف فى جميع البلدان الإسلامية ، كما لاحظ هذا وسجله الدكتور بشر فارس فى سماحة تجمع المسيحية والإسلام عند العارفين أهل « المودة » .

وقد جعل الفنانون العرب المسلمون من الخط العربى بأنواعه المختلفة ، من كوفى إلى نسخى ميدانًا كبيرًا للزخرفة . يقول د. فريد شافعى : « أخرجوا من الحروف وأطرافها أشكالا وعناصر من الزخرفة ، تتجمع فى كلمات وعبارات ينتج منها كلها موضوعات زخرفية ذات إيقاع فنى متناغم ، وتبرزها وتؤكدها فى أحيان كثيرة عناصر نباتية وهندسية وضعت فى مستوى خلفى منها لتزيد من حسنها وجمالها ، وزينوا بها منتجات الفنون من عمارة وتحف زخرفية »[1]

وهكذا أصبح الخط العربى فنًّا جميلا ، وجليلا .

غالية السطور قد تفوق الجواهر حين تصاغ منها الكتب المنزلة ، والوصايا المرسلة ، والحكم الخالدة .

غالية الكتابة حل وعقد . . فحين تعتلج فى صدر الإنسان مشكلة ، ينفضها على السطر . . . وإذ يكتبها تتحدد هى ، ويتخفف هو .

والخط العربى جدول من نهر الفن الإسلامى ، يموج مثله ويسيل حلاوة إن من يتأمل الحروف الهجائية يجدها عبارة عن ألف متحركة تميل وتتقوس وتستقيم .

---

(١) كتاب « العمارة العربية فى مصر الإسلامية » المجلد الأول ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

فى الكتابة العربية تسمع موسيقى الشكل . حقًّا تأثر الخط العربى الكوفى بالصين دون أن يقلد . . وبهذا تحولت العطايا الصينية إلى هدايا إسلامية .

وعظَّم الإسلام العلم والتسطير ونزول كتابه بيانًا رائقًا وفائقًا . . باهرًا وفاخرًا ، فانبثق الخط العربى من هذا النبع الروحانى . فجوده أصحابه وقدموه **إضافة حضارية إلى تراث الإنسان** .

وبفضل الإسلام وسلطانه على النفوس ، لم يقتصر الخط العربى على حروف مرسومة عاطلة ، أو منقوطة ، بل غدا غاية ووسيلة ، حتى ليقول الإمام على : (الخط الحسن يزيد الحق وضوحًا) .

وصارت له أصول وقواعد ونسق وهيئه تتغير وتتطور ما بين تحرير وتحوير . . وينبلج على الصفحة كالنية الحسنة ، أو يغمض كالرمز ، ويستخفى كالسر . . . وهو فى الحالين ، يغترف من نبع صافٍ يقف وراء المسلم كاتبًا وراسمًا ومصورًا ، آيات قرآنه إلهامات وإشراقات تضىء جوانب نفسه وتنعم إحساسه فيجود بالفن ويجيد .

هذا بعض أثر الإسلام فى العمارة الإسلامية ، بل إن بعض رجال الهندسة ، يمتدون بأثر الإسلام فى العمارة إلى أوربا ، حيث يرون مدينة البندقية مثالا لهذا التأثر فيما يبدو للعين منها لصلتها بمصر والشام والمغرب العربى الإسلامى .

ويستدلون على هذا الأثر بتقليدها التحف والمنتجات الإسلامية ، وخاصة الزجاج المموه بالمينا الذى اشتهر به العصر المملوكى .

وهكذا صنع الإسلام : أمة ودولة وحضارة ، حين يقف عبَّاد النصوص منه عند الطقوس وحدها اتقاء العقاب ، أو ابتغاء الثواب ، فما استفادوا ولا أفادوا كالظمآن وفى البحر فمه .

الإسلام والفن اوالفكر :

الفن الإسلامى انتشر لا انتشار العمود الاغريقى فى أنحاء الأرض كما هو بدون تغيير ، ولكن الفن الإسلامى انتشر الانتشار الديمقراطى الذى يتيح لكل إنسان أن يشارك ويضيف . فالفن الإسلامى المصرى ، غير الفن الإسلامى العراقى . . . إلخ وإن تشابه .

أن تظللك فى المسجد قبة من المقرنص ، كما فى السلطان حسن ، تطهير تؤكده روعة الصحن بعد المدخل الضيق حيث تلتقى السماء بالأرض فى تواصل يشتاق إليه كل حجر .. وصل يفسر الآية : (**ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى**) .

موقف للتجريد ترتفع به ، وفيه النفس .

وتطوف .

وتبصر بعد أن كانت ترى .

وحين استلم المسلمون نظام الأحجار المتداخلة فى البناء ، لأمر ما ، زادوا عليها « التقسيم » بالألوان . . . كان الفنان المسلم مأخوذًا بالنظام والموسيقى فخلق من « التقاسيم » فى الفن الإسلامى أفراحًا تغنى .

إن القبلة فى المسجد « تنشد بالألوان وتقاسيم الخطوط فى الحنية » تواشيح .

والقبلة معناها جمع قلوب الناس على هدف واحد فى عملية استضاءة روح فى المسجد ، واستضاءة سلوك خارجه . ليست القبلة وحدها . . فالباب الإسلامى معمور . . إنه بستان نباتى ملتف الأغصان تحف به النجوم . . إشارة إلى وحدة الكون واستضاءته بفضل الأصل الواحد .

فى الفن الإسلامى ، فى نماذجه الكبيرة ، شعور بالتمام منبثق من التكامل النفسى فى الفنان المبدع .

كل جزء فى المسجد الإسلامى ، بيت القصيد . ومع هذا تماسك الأبيات فى « بيت الله » من حكمة الوقع والموقع .

إن الفن الإسلامى متواصل مع الحياة ، مرتبط بها . . حتى الأعمدة الرومانية فى المساجد الإسلامية بكيانها الرحيم . ، أسلمت كالناس الذين دخلوا فى دين الله أفواجًا .

عمارة المسجد الإسلامى كانت تستلهم آيات الإسلام . فجامع السلطان حسن ، النوافذ على يمين ويسار كل مدرسة من مدارسه الأربعة ، خمس يعلو بعضها بعضًا فى عمليةتنظيم للرؤية وجمع النفس وصعود بالقلب عن طريق العين إلى أعلى فى سياحة عليا . . هندسة إدراك قبل العمارة .

وباب الضريح محاط بمجموعة ألفات من الرخام الملون فى صعود إلى النص المقدس (**إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا**) . (**هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا** ...) .

وجامع السلطان حسن بالممر الضيق ثم الصحن الواسع ترجمة للآية : (**إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا**) . إن أكبر تبشير بالإسلام جلاء الفن الإسلامى وإذاعته .

إن القلعة على مقربة من مسجد السلطان حسن ، فيها القوة لا القداسة . ولكن جامع السلطان حسن فيه القوة والقداسة معًا .

إن أثقال الحجر فى الفتحات « مداخل المدارس » أجنحة طائرة . .

وتأتى الخطوط الرأسية فى الفن الإسلامى لتعبر عن أشواق الصعود وأحلام

التسامى ، لأن المسجد يريد أن يؤكد الصحوة إلى أعلى ، وكأنه يسبح باسم ربه الأعلى الذى خلق فسوى .

وتأتى القبلة التى تقابل « قدس الأقداس » فى المعبد المصرى ، غير أنها للجميع . لا تقتصر على الملك أو رئيس الكهنة . . الناس أمامها سواسية كأسنان المشط ... خيرهم : (**الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك .**) .

إنها آية تتوج القبلة . . .

دعوة إلى العلم يدعو إليها الدين .

يتفكرون = فكر + تأمل .

تأمل العلاقة بين السبب والنتيجة .

إن الفلسفة طريقها الفكر .

والدين طريقه الإلهام والتفكر .

والتفكر سراج القلب .

وبيت القصيد فى الكيان الإنسانى ، القدرة على الاستشفاف . يشرح الغزالى فى « مشكاة الأنوار » الآية : (**الله نور السموات والأرض**) أى به نرى السموات والأرض .

وهنا يسوقنا إلى لفتة : إن المدرك العلمى للألفاظ جانب واحد من استعمال اللغة . . ويبقى المدرك الفنى والمدرك النفسى .

فى كل يوم يلد الإنسان والحيوان ، ولكن **ولادة الإنسان الحقيقية فى قدرته على التفكير** .

والزخرفة الإسلامية تحتفل باللون ، حتى لتقيمه مقام الضوء محاكيًا للطبيعة

مرة أو مخالفها ، ولكنه فى الحالين لا يشوبه تكبر أو تجبر ؛ لأن الفنان يقرأ فى قرآنه الآية : (**ومن أحسن من الله صبغة**)[1] .

ويعرف اللون مكانته عند الفنان المسلم فيمضى يكتشف له الأشياء حين يكتنفها ويندمج بها . . . ويعطيها فيغدو الإحساس ملونًا ، واللون حساسًا قبل « سيزان » رائد التصوير الحديث الذى تجاوز أسلوب عصر **النهضة الاتباعى** .

وكثيرًا ما غمس الفنان المسلم ألوانه فى ماء المعادن ، يمالس بها السطح ويؤانس بها الشكل ، فتلمع أو تتطوس وهى فى الحالين ما يكاد الفنان يسكبها على الأسطح حتى تؤدى فى غناء . . . وكأنها إفضاء نفس إلى نفس ورجاء روح إلى روح .

هذا إذا كان الفنان واجدًا سعيدًا عنده ما يقوله ، أما إذا كان الفنان لم تلمسه بعد الشرارة المقدسة ، فإن ألوانه تكون صارخة كأنها تعبير عن ضيقه المكتوم .

ويبدو أثر الإسلام فى أثر آخر ، وهو تركيز الفنان المسلم ، الزخرفة وتكثيفها فى مواضع معينة ، كالمنبر والقبلة والمحراب والمئذنة ، وكأنها تحية خاصة للإسلام .

ومن الظواهر الزخرفية التى انتشرت فى العمارة الإسلامية وصارت من مميزاتها « الشمسيات » أى الشبابيك المفرغة المحشوة بالزجاج الملون ، التى تفننت فيها مصر فى آخر العصر الفاطمى .

إن الإسلام رسالة ثقافية فنية على أعلى مستوى . يوم حبب إلينا الجمال

---

(١) سورة البقرة – الآية ١٣٨ .

والزينة (**قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق**) .

(**والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون**) .

وتشرب الفنان المسلم روح دينه فمضى يزركش المربع ويحنن المستطيل ويعشق الخشب ويستنطق السطح الصامت بالنقش والنمنمة .

حتى الخشب أرواح تتحاب وتعشق . يقول « ديورانت » فى قصة الحضارة إن « المسيحية فى مثاليتها المجردة ، قد وضعت لتسير عليها أقلية ورعة ، **ولكن الإسلام احتفل بالدين والدنيا** . الإسلام ميزته أنه **أسلوب حياة . . . نمط سلوك من أبسط الأشياء إلى أعلى الأشياء .**

الإسلام يحب المتعة فى غير إثم والفن نعيم روح ، إن الترف المادى عبء ، ولكن الترف المعنوى جناح .

أن نجعل من الحياة فنًّا جميلا ، وأن نجعل من الفن حياة جميلة ، نعمة كبرى .

والفن الإسلامى متفائل من بشر الإسلام وبشريته إلى جانب قدسيته . . . دين لا ينكر الزينة والمتاع . . ومن هنا ولع الفن الإسلامى بالتزويق ، وكأنه موسيقى الشعر العربى المقفى ، أو كأن فيه من سحر الكهرمان ، أو بيان حسان ، أو غنائيات البحترى . .

وحين أشبه الفن الإسلامى بالشعر ، يشبه المستشرق غارسيا غومس الشعر العربى فى الأندلس بزخارفه الموشاة « الأربسكية » بأنه قصور حمراء لفظية .

حتى الخزف ترقص فيه الألوان من الفرحة ، تغنى الظلال فى تطريب ،

وينسكب الضياء مشرقًا كنور الإيمان ، قريرًا كضمير المؤمن . . . معذور الفارابى حين طرب لها .

إنه فن أولئك الذين فرقوا بين النظر والسمع فى رهافة تعز على الدقة . فنفى بدر الدين المظفر فى مخطوطه « مفرح النفس » القول بأن حاسة البصر محسوسها الألوان فقط ، معلنًا أن العين تحس سبعة وعشرين جنسًا من المدركات ، كل واحد يخالف الآخر وهى :

« الألوان والضوء والظلمة ، والأطراف ، والحجم ، والبعد ، والقرب ، والوضع ، والشكل ، والتفرق ، والاتصال ، والعدد ، والحركة ، السكون ، والملامسة ، والخشونة ، والكثافة ، والشفيف ، والظل ، والحسن ، والقبيح ، والبشاشة ، والاختلاف ، والضحك ، والبكاء ، والرطوبة المعتبرة بالسيلان ، واليبس المعتبر بالتماسك » .

وكأنى بالفن الإسلامى يؤيد بالخط والتركيب والتشكيل هذه المقولة ، إذ يدور فى فلكها كسيال يجرى مدافًا فيه أسرار المعانى والألوان والوجدان ويخلب بالتقابل والتلاقى ، عيون العشاق وأفئدة من الناس تهوى إليه .

فتوح من عطاء اللون لا يحلم بها « ماتيس » و « سيزان » وغيرهما من مصورى العصر الحديث .

وتهب على رائيه نسمة هو مبعثها ، يحس رفيفها يقطر ندى .

إمتاع ومؤانسة لعل التوحيدى استوحاها اسم كتابه .

أما حين تحتد الألوان أو تصخب فى عصور الضعف ، فكأنها صرخات أصحابها أو كأنها دقات الطبول فى أفراح الخيام قبل أن يعرف . . . أصحابها الحواضر الزاهرة .

والفن الإسلامى كثيرًا ما تمتد رؤاه وتسرح خطوطه من امتداد الرؤى التى يرفدها أروع كتاب حافل بالصور . . . صور لا يبلغها المدى وكأن الفنان المسلم يسمع فى داخله الآية : (**كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء**) . . .

فسحة فى التصوير والتعبير يحلو منه القبس والاقتباس .

وكما يزيد الخالق الأعلى فى الخلق ما يشاء . . يزيد الفنان الإسلامى من الوحدات والتركيبات ما يشاء وكأنه يسمع فى داخله مرة أخرى : (**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله**) .

وفى الفن الإسلامى ورع ، تنم عليه الخطوط المهذبة والعلاقات الحميمة بين الوحدات ، والمحاريب التى تصلى فى خلوص العابد ، والمآذن كالدعوات تصعدها الأرض إلى السماء فى طلعة علوية روية بأشواق كبيرة نحو مصدر النور . . . نور النور . . نور السموات والأرض .

والفن الإسلامى ، خاصة فى مصر ، حين يطعم ويرصع ، يستجمع خبرات المكان الذى أنطق الحجر ، ولعب بالذهب ، ومهر فى التشكيل والتصوير . . . وهنا تخرج المشكاوات المصرية وكأنها صيغت من ضياء الجواهر النادرة فيما بين القصرين مما أغدقته على الفاطميين ، القاهرة .

ليس تقييمًا ولكن حوارًا ، كثيرًا ما يدور بين فن غالٍ وحبيب يغالى ولا يغلو .

فى الفن الإسلامى نجوم رمز الفوقيه يحف بها ، ويشع من خلالها الآيات فى « الطبق النجمى » .

فى الفن الإسلامى **حسن الجوار** الذى أوصى به الدين الإسلامى .
فى الفن الإسلامى **تجمع** يهوى الترابط ، أو **انبثاق** يهوى الإشعاع .

ألم نشرح لك صدرك :
ليس بالسرور ولكن انفتاح القلب للحقيقة .
ووضعنا عنك وزرك ، الذى أنقض ظهرك ..
إذن المسألة معنويات .
فى الفن الإسلامى تصوير لغير المرئيات . . إنه تعبير هندسى . . إنه هندسة .
خطوط وهيئات .
أسماء الله الحسنى فى الإسلام درس كبير

البديع :
(بديع السموات والأرض) .
الإبداع ابتكار على غير مثال .

المصور :
يصوغ المادة فى خصوصية وقدرة تجعل الشكل قادرًا على كسب القلوب يعطيها ويرويها ... إنه (الفتح المبين) الذى لا يفطن إليه الغزاة أبطال الحروب .

الخالق = المصمم الأصلى
القدوس = لايقرب منه وصف ولا يدانيه شئ ، **ليس كمثله شيء .**

كان « بوذا » يجيب على أسئلة الهداية فإذا سئل عن الله : سكت .

ماذا تقول الكلمات :

إن البلاغة العربية تعرف الصدق فيما علمونا بأنه مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

ولكن الصدق رؤية محققة . رأسمال حيوى وقيمى .. ومن هنا غلاوة الصديق ، إذا كان صادقًا صديقًا . إنه من الصدق امتداد النفس كما قلت .

إن العمل الصالح ليس الطقوس وحدها ،.. بل كل عمل له قيمة .

كان الدز هكسلى يقرن بين لفظى Whole و holy وهى رؤية تشبه التصوف الذى هو سعى الواحد للواحد .

الرحمن ...... خلق الإنسان علمه البيان :

ليس البيان اللغوى وحده ، ولكن كل ما يبين عن النفس ويعبر بصدق عنها .

فالفنون كلها « بيان » .

إن عصر النهضة الأوربية شهر عسل للإنسان الغربى الذى طال احتباسه بدافع التطهر من الدنس .

انفلت الإنسان الأوربى يبحث عن اللذة .. السرور وبعد طول الحرمان . فأولع برسم الجسم عاريًا .

الإسلام لم يحرم الإنسان ، بل اعترف بحاجات جسمه وروحه معًا فلم يرتد عنه .

حتى الفن الإسلامى استجاب للإسلام ، فاتجهت خطوطه إلى اللامتناهى .

إن شدة اهتمامات الغرب بعلم النفس ، مؤشر إلى معاناته النفسية من أمراض العصر . . من أمراض حضارته الصناعية العقلانية . ولسنا ضد العقلانية .

ولكننا نؤمن بتكامل الإنسان عقله وقلبه وروحه وجسمه . . أن يكون كلاً واحدًا لا يتجزأ ، كما أراده الإسلام .

ليس الحرام الوصايا العشر .

من الحرام **كفر النعمة** .

من الحرام **إهانة الجمال** .

إن الحضارة وصول الذات إلى مرتقى عالٍ من التوحد والتكامل ، ثم ممارستها الخلق الفنى انطلاقًا من هذا الأفق . كالوردة الكونية Cosmic ولعلها سميت كذلك ، لأنها تمثل خروج النفس من الفوضى الداخلية إلى كونية الكون .

من الحرام تهوين الفن .

فالفن إنصاف . . . إنه بدقته الدقيقة فى وزن وتوازن المربع والمستطيل والزاوية ، عدل وتقنين ينعكس على النفس .

الفن إنصاف فرهافته فى التكوين والتلوين ، حساسية يصعب معها الظلم أو القبح .

الفن فوقية تعلو على الإسفاف .

الفن حضارة .

وهكذا كان الفن الإسلامى .

الإسلام والحضارات الأخرى

عبقرية الإسلام فى اعترافه بالحضارات كالأديان . لم يكن موقفه الرفض ، بل القبول . وهو علامة **قوة ووثوق وتفتح وانفتاح** . . . لقد خرج الإسلام من بيئة بدوية بدائية ، ثم انتقل إلى بيئات حضارية معرقة فى المدنية كمصر وفارس . . . فلم يدع ولم يهدد ولم يبدد ، بل حفظ ، وصان ، وأضاف ، وتبادل الأخذ والعطاء فى **انفتاح** وانفساح ورضًا . . ألان صلابة العناد ، وأذاب رهبة الخوف أو التهيب أو التحفظ على أقل تقدير . بل من سماحته وعالميته ، أن اعتبر نفسه دولة عامة يقوم بها المسلمون جميعًا حتى عاصمته السياسية سرعان ما انتقلت من موطنه الأصلى إلى الأوطان الأخرى ، فهى دمشق وهى بغداد وهى القاهرة .

ولعل هذا السر فى تحمس الحضارات القديمة له حماسًا جعل مصر تبنى له أسطولاً وتعينه فى معركته البحرية مع البيزنطيين ، وتهزم أعداءه فى موقعة « الصوارى » .

فعلت هذا وهى حديثة العهد به ولكنها سماحتها وسماحته ، وتقديرها ووداته . ولا يحسب عليه ولاة قساة أو خلفاء يجبرون الناس على القول بخلق القرآن ، فهؤلاء جاهليون فى داخلهم وقرارة نفوسهم . ليس لهم من الإسلام إلا نسبة إليه ، لا يتناسب مع دعوته أو قيمته .

لم يتدخل الإسلام فى العادات والتقاليد وأسلوب العيش اوالعقائد . لقد

رفض عمر وقد حضرته الصلاة ، أن يصلى فى كنيسة القيامة حتى لا يفعلها المسلمون بعده . . .

ويشتكى عامل عمر بن عبد العزيز من تناقص الجزية فيقول ثانى العادلين « إن الله بعث محمدًا هاديًا ولم يبعثه جابيًا » . . .

بهذه **الدماثة** كسب الإسلام لا الأرض وحدها ، بل **قلوب أصحابها** . . .[1] .

لقد دخل عمرو بن العاص مصر . وإذ أراد بناء مدينة لجنوده ، استعان بالمصريين الذين أولم لهم وشاروهم فى الأمر . حتى الرسالة المشهورة التى تنسب إليه فى وصف مصر . يعزوها الدكتور مؤنس إلى (من كان حوله من كبار القبط) .

كان الإسلام بسيطًا متواضعًا . ومن بساطته : أن ذهب بدوى إلى النبى (ﷺ) وقال له : كيف أسلم ؟ قال الرسول قل آمنت بالله ثم استقم .

كان الإسلام بسيطًا متواضعًا ، ولكن مترفعًا . وعبقريته فى ارتفاعه على الادعاء وامتناعه عن الهدم . يكتب عمرو إلى الخليفة يصف له فتح الإسكندرية فيقول : « فتحت مدينة لا أقدر أن أصف ما فيها » . . .[2]

---

(١) لا أزكى الفتح ، ولكن أسجل للإسلام أنه فتح البلاد الواقعة تحت سيطرة الفرس والروم لاحبًّا فى الغزو والبطش والحرب أو انتشارًا بالسيف كما يروج أعداؤه ، ولكنه كان فى حالة دفاع عن النفس الهجوم أحسن وسائله أو أكبر وسائله ، أو أحد وسائله على أقل تقدير .

ومما يؤيد هذا أنه لم يسلك مسلك الغزاة من تجبر أو انقضاض ، أو استعلاء ، أو تخويف أو نهب . كان إنسانيًّا فتسمح مع الشعوب ، وكان واثقًا أن الله معه فتعفف عما مع الناس . ومن فعل غير هذا من أتباعه مضى بجريرته غير محسوب على الإسلام فى ميزان الإنصاف .

(٢) كتاب « فتوح مصر وأخبارها » لابن عبد الحكم ص ٨٢ ط ليدن .

وعلى الإسكندرية أكبوا ينقلون فلسفة أفلوطين أو « الشيخ اليونانى » كما يدعوه الشهرستانى ، وما درى أنه مصرى صعيدى . . .

وكما نقل الإسلام الفلسفة نقل الجغرافية والفلك والكيمياء والرياضة والطب والهندسة والطبيعة .

والطبيعة الخصبة هى الصالحة **للتلق** . . . وإذ تجمع لهم من التلقى والنقل والترجمة قدر طيب ، أخذوا فى بناء حركتهم العلمية وحضارتهم الإسلامية التى بهرت أوربا . . .

لقد استرعت الحضارة الإسلامية أنظار الناس من غير المسلمين منذ ما يقرب من ألف سنة ، وبخاصة أولئك الغربيين الذين خضعوا لتأثيرها ، كما يقول الدكتور فريد شافعى فى كتابه « العمارة العربية فى مصر الإسلامية) واستمرت تروع أبصارهم وتستهوى أفئدتهم طوال تلك الحقبة إلى وقتنا هذا .

غير أن فئة من هؤلاء العلماء لم تلتزم بالمنهج العلمى الخاص فاتجهت إلى تخصيص جانب من جهودها لحجب أى فضل للعرب والمسلمين من إخراج عمارتهم وفنونهم إلى عالم الوجود . يبدو أن تلك المحاولات لم تبذل نتيجة لما يتمتع به الفن الإسلامى من جاذبية وسحر فحسب ، بل أيضًا لما بلغه من قوة ونفوذ فى القرون الوسطى حتى **وقعت عمارة أوربا وفنونها فى تلك القرون تحت تأثيرات واضحة فيه** . وهى تأثيرات حاول بعض العلماء الغربيين المشتغلين بتاريخها ، إنكارها فى أول الأمر . ولما وجدوا الأمر واضحًا لا إبهام فيه ، أخذوا يحاولون الإقلال من شأنها . ثم انتقلوا إلى مرحلة أخيرة عندما لم يجدوا مفرًّا من التسليم بها ، فاتجهوا إلى تسليم ما يساعدهم على سلب العرب والمسلمين فضل خلق عمارتهم وفنونهم . وحاولوا جهدهم إسناد وضع الأحجار الأساسية فى

صرح بنائها والارتفاع به فى العصر الإسلامى المبكر إلى غيرهم .

مهما اختلفت الآراء فى الحضارة الإسلامية أو أصالتها ، فمن المؤكد أنها كانت الشعاع الذى بدد ظلمات أوربا ففتحت عينيها على معالم جديدة للحياة الخصبة المزدهرة بمجد العلم ، ونور الفن وآيات المدنية ... فنقلت عنهم واقتبست منهم . ومن أول الكتب التى نقلت كتاب إقليدس فى الهندسة سنة ١١٣٦م .

ثم نسيت هذا ، ولم تعد تذكر إلا أنهم كانوا نقلة عن اليونان الذين تنسب إليهم وحدهم ، نهضتها ... **ولولا العرب ما عرفت أوربا اليونان الذين نقلت علومهم عن العربية لا اليونانية أو غيرها من اللغات الأوربية** ... العربية التى كانت خطبة طارق بشيرًا بها ... والعربية التى عكف عليها االأسبانيون يتدارسونها ولاسيَّما بقرطبة عاصمة الملك العربى بالأندلس ، حتى هال أسقفها الفارو ، الأمر ، فكتب يشكو أنه لا يجد بين الألوف من أبناء طائفته من يستطيع أن يكتب رسالة باللاتينية المقبولة ، بينما يتقن الكثيرون العربية وينظمون فيها الأشعار بمهارة لا تقاربها مهارة العرب أنفسهم .

إن العالم المؤرخ « أرنست رنان » خالق فكرة السامية والآرية وأعدى الكتاب للأمة العربية ، لم يملك إلا أن يجهر بفضل العرب على القرون الوسطى .

وقد قال رينان : « إن الذين نهضوا بالعلم من المسلمين لم يكونوا من العرب » .

وهو سلاح لاتفلت منه أمته نفسها إذا حلل هذا التحليل نسبها وأدبها .

رينان نفسه قال : « ما دخلت مسجدًا قط ، إلا تملكنى انفعال شديد وهو

لو أفصحت عنه نوع من الأسف على أنى لم أكن مسلمًا »[1] .

ولكن من الأوربيين أيضًا منصفون . فالكاتبة الألمانية سيجريد هونكة تقول فى كتابها « شمس الله على الغرب » : « لم يعد سرًّا أن مصر هى الوطن الذى بزغ فيه فجر الضمير . ومنها أخذ اليهود ماأخذوا . وأن العرب ظلوا ثمانية قرونٍ طوالٍ يشعون على العالم علمًا وفنًّا وأدبًا وحضارة ، وأخرجوا أوربا من الظلمات إلى النور » .

يكفى العرب أنهم وفروا على الحضارة الأوربية والحضارة الحديثة اليوم ، زمنًا طويلاً يعد بعشرات القرون .

ومهما يكن من أمر ، فإن أشد الناس **تعصبًا لايمكنه الإقلال من شأن النتائج الحضارية الخطيرة التى حدثت فى تاريخ البشرية . وترتبت على ظهور محمد النبى العربى** ، وعلى قيامه ببث الدعوة إلى الدين الإسلامى ، وعلى انتشار هذا الدين فى منطقة كبيرة من العالم ، فإن ما أحدثه محمد بما أتى به من عقيدة وتعاليم يدعو بها الناس إلى عبادة رب واحد عظيم ، وإلى خلق قويم ، دعوة ترشدهم إلى ما فيه صلاحهم وصلاح البشرية ، كل ذلك لا شك ، يعد **نقطة تحول هامة فى مجرى حضارات العالم** .

ولا يمكن مقارنة هذا الحدث بأى حدث آخر فى تاريخ البشرية . لقد لبثت أوربا فى طور التخرج والنقل حين أخذوا عن العرب ، أكثر مما لبث العرب فى هذا الطور حينما أخذوا عن اليونان .

---

(١) اقرأ كتاب « فى أصول الأدب » للأستاذ أحمد حسن الزيات .

المسلمون والفنون الجميلة :

سبق الحديث عن الفنون التشكيلية فى الإسلام دينًا وحضارة .. لهذا نفرد الحديث عن الأدب والموسيقى .

فنى الأدب نقل كتاب « ألف ليلة وليلة »[1] منذ أوائل القرن الثامن عشر إلى كل لغة ، حتى قال فولتير : إنه لم يزاول فن القصص إلا بعد أن قرأ ألف ليلة أربع عشرة مرة . وتمنى القصصى الفرنسى « استندال » أن يمحو الله من ذاكرته ألف ليلة وليلة حتى يعيد قراءته فيستعيد لذته . وكتاب « ألف ليلة وليلة » سجلته دوائر المعارف فى حقولها .

وقد أفرد له الأستاذ « فيكتور شوفان » جزأين فى كتابه « تاريخ المؤلفات العربية » وفى هذين الجزأين : سرد فيهما مخطوطاته ومطبوعاته وترجماته، كما خصص جزأين آخرين لخص فيهما طائفة كبيرة من حكاياته . وعكف على الكتاب كتّاب السينما فاستخرجوا رواية « لص بغداد » و « قسمت » أو القضاء والقدر . كما اقتبس منه رجال التعليم فى فرنسا وألمانيا وانجلترا أدبًا للأطفال فاختصروه وصوروه .

كليلة ودمنة : نقل إلى الأسبانية برعاية الفونسو العاشر الحكيم ملك قشتالة وليون « ١٢٥٢ – ١٢٨٢ » . ولم يلبث أن نقل إلى اللاتينية بقلم يهودى متنصر ، ثم ترجمت قصصها إلى الفرنسية ورجع إليها لا فونتين . وتمت القصة الأسبانية الساحرة « بيكارسك » Picaresque بنسب واضح إلى المقامة

---

(١) أصله قصص فارسية قديمة نقلها إلى العربية الجهشيارى المتوفى عام ٩٤٢م .

العربية وما اتصفت به من السجع وما تضمنته من ضروب التزويق اللفظى وما رمت إليه من مغزى أدبى يستخرج من سرد مجازفات بطل القصة المغوار .

وبمناسبة الكتابة والكتب نقول : إنه لولا صناعة الورق البلدية فى الأندلس ، وهى من أهم ما أسداه الإسلام إلى أوربا ، لما راجت سوق الكتب إلى هذا الحد .

وقد اقترنت بموضوعات الأدب العربى ، أسماء طائفة من عباقرة الشعر فى أوربا بأسرها خلال القرن الرابع عشر وما بعده . منهم بوكاشيو ودانتى وبتراك الإيطاليون ، وشوسر الإنجليزى وسرفانتس الأسبانى وهم دعائم التجديد ، تجديد الآداب القديمة .

بوكاشيو كتب ١٣٤٩ حكاية « الصباحات العشر » محتذيًا « الليالى العربية » أو ألف ليلة وليلة ، وضمنها مائة حكاية من طراز ألف ليلة . وشاع كتابه فى أوربا فاقتبس منه **شكسبير** موضوع مسرحيته « العبرة بالخواتيم » .
All is well that ends well

واستفاد دانتى من رسالة الغفران . ووصف الجنة عنده يشابه أوصاف الجنة فى كلام محيى الدين ابن عربى .

« ودون كيشوت » **لسرفانتس** ، فيها طابع العبارات العربية **والأمثال** العربية . وقد جزم برسكوت Prescot . بأن فكاهة دون كيشوت فى صميمها أندلسية .

وأهم من هذا كله ، **أن شيوع التعليم بالعربية كان له أكبر الفضل والأثر فى إحياء اللغات الشعبية الأوربية ونهضة اللغات الأوربية الحديثة وارتقائها إلى مقام**

الأدب والعلم بعد إهمالها طويلاً من جراء الكتابة باللاتينية والإغريقية وسدنتها القسوس والرهبان .

ولقد تأثرت القصة الأوربية بالمقامات وأخبار الفروسية العربية . ورحلات جليفر التى ألفها سويفت ، ورحلة روبنسون كروزو التى ألفها ديفوى ، تمت إلى ألف ليلة ورسالة حى بن يقظان لابن طفيل . حتى ليقول « أبانيز » : إن أوربا لم تكن تعرف الفروسية وآدابها المرعية ونخوتها الحماسية قبل وفود العرب إلى الأندلس وانتشار فرسانهم فى أقطار الجنوب .

كما تأثر بالعرب الشعراء الجوالون Trou badour ويرجعها بعض المستشرقين إلى كلمة « طرب » . وقد تأثروا فى أوزانهم بالزجل الأندلسى . بل إن التأثر فى صورة كلمات عربية ، ظهر فى شعراء الشمال من الأوربيين . يقول فياردو :

«كان الشعر الفرنسى العامى من نوع الشعر العامى الأسبانى المأخوذ عن الشعر العربى ، لا عن الشعر اليونانى أو الرومانى . . لأن سكان تلك البلاد لم يكونوا يعرفون بعد ، شعراء اليونان أو الرومان حتى ينسجوا على منوالهم ، إذ لم يطلعوا على شىء من ذلك قبل القرن الرابع عشر . . لذلك كان الشعر عندهم يشبه الشعر العربى ، من حيث إنه قطع صغيرة ، وأبيات قليلة فى المدح أو الذم أو الوصف . وذلك أظهر ما يكون فى فرنسا عند شعراء القرن الرابع عشر وبعض شعراء القرن الخامس عشر . . حتى إن أسماء هذه المقطوعات أو الأصوات كانت تشبه أسماء الشعر العربى » .

الموسيقى :

هناك بلا شك اختلاف بين الموسيقى العربية والموسيقى الغربية فى العصر الحديث . وهو اختلاف ليس مرجعه تفاوت فى الفطرة الإنسانية بدليل وجوده بين الأوربيين أنفسهم إذا قارنا موسيقاهم الحديثة بما سبقها من موسيقاهم القديمة . بل إن الشعوب الأوربية اليوم لا تطرب لما يطرب له خاصتها من الموسيقى العلمية المركبة .

لقد كان الأوربيون يتعلمون الأنغام على يد العرب فى الأندلس حتى ظلت أسماء الآلات العربية فى اللغات الأوربية إلى اليوم فكلمة لوت lute من العود . وكلمة Naker من النقارة وكلمة Clé أو المفتاح الموسيقى من إقليد . وكلمة Rebec من الرباب . إن الأستاذ فارمر Farmer يقرر سبق العرب إلى نوع من الهرمونية يسمونه التركيب ويعنون به توقيع النغمة الواحدة من عدة طبقات فى وقت واحد .

جاء فى موسوعة مكملان للموسيقى والموسيقيين : أن نيقولا رمسكى كورساكوف ، قد أنشأ جماعة لدراسة ربع المقام منذ نيف وعشرين سنة فى لننجراد .

وقد أخذ غير واحد من الموسيقيين الأوربيين فى العصر الحديث ، بربع المقام فى توزيعاتهم الموسيقية وتوقيعاتهم حتى الأوبرالية وتقسيماتهم المسرحية وغير المسرحية .

ووضع الكندى (٨٠١– ٨٧٠) وهو من علماء الرياضة ، أسسًا نظرية للأصوات الموسيقية .

ويمت إلى الموسيقى علم الأصوات الكلامية الذى اخترعه المسلمون عندما حاولوا وضع أسس نطق القرآن بالطريقة التى نطق بها الرسول عليه الصلاة والسلام . . . . ويسمى « **علم التجويد** » وهو يصف نطق الحروف المختلفة على أساس حركة الهواء فى الفم والحنجرة .

وجاء فى الجزء الثانى من كتاب فياردو : « إن للعرب اليد الطولى فيما تركوه من فنون الموسيقى التى ساعدت أهل أوربا على الوصول إلى الدرجة التى عليها الآن هذا الفن الجميل . . فإن بمكتبة طليطلة آثار عظيمة تدل على ما كان للعرب من التقدم فى ذلك الفن . . إن هناك جزءًا من المخطوطات فى الموسيقى عليه ملاحظات بخط الفونس العاشر ، الذى كانت معلوماته وتربيته العقلية مكتسبة من قراءة الكتب العربية . . وكانت الموسيقى فى ذلك العصر مقصورة على الكنائس ، فساعد العرب على نشر هذا الفن بوساطة الفرنسيين الذين كانوا يقيمون فى أسبانيا مع العرب ، أو يتعلمون فى مدارسهم .

المسلمون والعلم :

لقد بدأت الحركة العلمية عند العرب فى العصر العباسى الأول بالترجمة . ولكن لم يقف العرب عند الدرس ، فى هذه الترجمات ، وإنما أقبل بعضهم على تحصيل اليونانية واللاتينية ليرجعوا بهما إلى بعض تلك الأصول . وفى مكتبة الإسكوريال ما يثبت ذلك من قواميس عربية يونانية وأخرى عربية لاتينية قد ألفها العرب للعرب . وتشهد دائرة المعارف البريطانية فى مادة الضوء : أن بحوث العرب قد هدت العلماء إلى **اختراع المنظار** .

إن معظم أسماء النجوم فى اللغات الأوربية عربية الأصل أمثال :

« العقرب » Acrab و « الجدى » Algadi و « الطائر » Altair و « الفرقد » Phercad . بل إن كثيرًا من مصطلحاتها الفلكية يرجع إلى ألفاظ عربية أمثال « السموت » Azimuth و « النظير » Nadir [1] .

وكان الشيرازى « ١٢٣٦ – ١٣١١ » أول من فسر قوس قزح بأنه نتيجة لانكسار أشعة الشمس داخل قطرات الماء المعلقة فى الهواء . واخترع الفازارى « الاصطرلاب » وهو جهاز فلكى قديم ، وتنبأ بمواقيت كسوف الشمس وخسوف القمر[2] ودرس السنة القمرية وحركات النجوم . ووضع عبد الرحمن الصوفى « ٩٠٣ – ٩٧٦ » من طهران ، جداول للنجوم الثوابت ، ورسم الخرائط لمواضعها فى السماء ؛ كما وضع أسماء نحو ألف من النجوم .

واخترع الروضانى « ١٦٢٧ – ١٦٨٣ » من مراكش ، آلة كروية لقياس الزمن ، يمكنها العمل عند أى خط طول أو عرض .

إن الجبر يعرف باسمه العربى فى جميع اللغات الأوربية . وقد ذكر جوستاف لوبون إضافاتهم فى العلوم ووصفها بأنها فى وقتها كانت **ثورة علمية بعيدة الآثار** .

وأستاذ آخر هو « كارل ساخاو » أستاذ اللغات السامية بجامعة فيينا ، يصف البيرونى **بأنه أعظم العقول التى ظهرت فى العالم** .

وينوه يسلر فى كتابه « الحضارة العربية » بابن حزم الذى ينسب إليه أربعمائة مؤلف فى مختلف العلوم . كما ينوه **بابن خلدون** باعتباره أكبر مؤرخ فى الإسلام وأحد العظماء فى جميع العصور .

---

(١) اقرأ كتاب « العرب » للدكتور فليب حتى .

(٢) اقرأ كتاب « أثر العرب فى الحضارة الأوربية » للأستاذ عباس محمود العقاد .

لعل من أهم اختراعات علماء المسلمين « الصفر » . فباستخدامه مع الأرقام التسعة الأخرى ، يمكن تكوين أعداد ذات قيم لا نهائية .

أما علم الجبر فهو من اختراع محمد بن موسى الخوارزمى « ٧٥٠ – ٨٥٠ » . ومن اسمه اشتق المصطلح المعروف « الجويثم » الذى يستخدم بكثرة فى الوقت الحالى فى التحليلات العددية .

وقد وضع أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندى من الكوفة « ٨٠١ – ٨٧٠ م » أسس الرياضيات الحديثة .

كذا اخترع ابن الهيثم « ٩٦٥ – ١٠٦٩ » الهندسة التحليلية بإيجاد علاقة بين الجبر والهندسة باستخدام الوسائل التى استخدمها فى دراسته لعلم البصريات . وهو أبو البصريات الحديثة ، وقد أثبت فى كتاب « المناظير » ، قوانين انكسار الضوء . ودرس ابن الهيثم حركة الأجسام . وقد وصف ابن الهيثم وهو من البصرة بالعراق ، جراحات العيون وأطلق الأسماء على أجزاء العين مثل الشبكية والقرنية والسائل الزجاجى . وكانت أوصافه دقيقة . وكما كان عمله فى العدسات ، تمهيدًا لاستخدامها فى تصحيح عيوب النظر .

المسلمون والطب :

لقد نقلت أوربا كتاب القانون لابن سينا فى القرن الثانى عشر ، وهو موسوعة جمعت خلاصة ما وصل إليه الطب عند العرب والإغريق والهنود والسريان والأقباط ، كما نقلت كتب ابن الهيثم .

وأمدت الأندلس أوربا بمرجعها الأكبر فى الجراحة وتجبير العظام ، وهو كتاب « التعريف لمن عجز عن التصريف » لأبى القاسم خلف بن العباس

الزهراوى . وقد طبع باللغة اللاتينية فى القرن الخامس عشر . وقال العالم الطبيعى هاللر فى رواية جوستاف لوبون : إن كتب أبى القاسم ، كانت **مرجع الجراحين جميعًا بعد القرن الرابع عشر للميلاد** .

لقد سبق العرب الإفرنج إلى وصف الجذام ، وشرح مرض الجدرى ، والحصبة ، وعلاج أمراض العين . وعالج أطباء العرب الجنون علاجًا طبيًا ، وقد كان الإفرنج يسمونه المرض الإلهى أو المرض الشيطانى ، لأنهم كانوا يحسبونه من إصابات الأرواح أو الشياطين .

وكان الرازى « ٨٥٠ – ٩١٢ » جراحًا عظيمًا كما كان أول من فرق بين مرضى الجدرى والحصبة وألف عنهما . ومن مؤلفاته « كتاب الحاوى » ويعتبر دائرة معارف طبية من ٢٤ مجلدًا .

كما وصف الزهراوى « القرن العاشر » العمليات الجراحية التى أجراها والأدوات التى استخدمها ، فى كتاب من ثلاثين مجلدًا عنوانه « التعريف لمن عجز عن التصريف » الذى أشرت إليه . وقد أتقن الزهراوى عمليات دقيقة مثل استئصال الحصى من المثانة ، واستخراج الجنين الميت وعمليات البتر . وقد كتب عن أمراض النساء وأمراض العين والأذن والأسنان . وكان الكثير من الأجهزة والأدوات التى استخدمها من اختراعه .

وقد كتب الطبيب المصرى أبو العباس يحيى بن عيسى بن جزلة « ت ١٠٨٠ م » دائرة معارف فى علم الأمراض هى « كتاب تقويم الأبدان » .

وكان إبن النفيس أول من وصف الدورة الدموية فى الأوعية الصغيرة وصفًا صحيحًا وهو ما نسب إلى الأطباء الأوربيين بعد ذلك بثلاثة قرون فى عبارات ترجمت حرفيًا من كتاب ابن النفيس .

وفى الصيدلة ، قام ابن البيطار « ١١٩٧ - ١٢٤٨ م » برحلات عديدة فى الدول الإسلامية وغيرها لجمع المعلومات عن النباتات الطبية . ومن بين ١٤٠٠ دواء وصفها فى كتابه « الجامع فى الأدوية المفردة » ، كان له الفضل فى اكتشاف ٣٠٠ منها .

الكيمياء :

كما تأثرت أوربا بالعرب فى الكيمياء . فالقلويات معروفة فى مصطلحات الكيمياء الحديثة باسمها العربى Alkali ، ومن العرب عرف الإفرنج ماء الفضة وهو أهم الحوامض المستخدمة فى التجارب الكيميائية ، ومنهم عرفوا ملح النوشادر وماء الذهب والبوتاس . وترجموا لجابر بن حيان سبعين كتابًا ، كما ترجموا له كتاب « تركيب الكيمياء » إلى اللغة اللاتينية فى أوائل القرن الثانى عشر . ودخلت كتبه مرجعًا لأوربا حتى أواخر القرن السابع عشر . ويعتبر جابر بن حيان أبو الكيمياء الحديثة .

لقد ابتكر ابن حيان أجهزة للقطع والتكليس والبلورة ، كما أتقن عمليات التبخير والإسالة وترسيب البلورات والتقطير والتنقية والإذابة والتثبيت والتحميض والأكسدة وغيرها . ووصف بالتفصيل هذه العمليات .

وقد عرف ابن حيان العديد من المواد الكيميائية بما يشمل القلويات والحمضيات والأملاح والصبغات والشحوم . وحضر حامض الكبريتيك والماء الملكى الذى يذيب الذهب والبلاتين . وابتكر مادة تحتفظ بالملابس جافة ومادة أخرى لمقاومة الصدأ . واستحضر صبغات من ألوان مختلفة لاستخدامها فى

صباغة الملابس وجلود الحيوان ، وكذلك نوعًا من الحبر لاستخدامه فى الكتابات النفيسة .

وكتب ابن حيان ما يزيد عن ٥٠٠ دراسة فى الكيمياء ولم يصلنا منها إلا القليل .

وقد عرف العالم الإسلامى الجامعات والحياة الجامعية والنظم المرتبطة بها قبل الغرب الأوربى بمئات السنين .

فالجامعات الأزهرية فى مصر والمدرسة النظامية فى بغداد .

ونظام المعيدين والإجازة . .

وكان مقام الأستاذ محمودًا ومعدودًا ، حتى كان الحاكم يسعى إلى الأستاذ احترامًا للعلم .

الجغرافيا والفلك والرياضة :

ذاع اسم بطليموس بين الأوربيين لأن العرب أذاعوه بينهم . وبطليموس هذا تعلم فى مصر ، إذ نشأ فى الإسكندرية واقتبس الكثير من المصريين ، وغيره كثيرون ممن سبقوه ، اعتمدوا على مصر وبابل فيما وصلوا إليه من أصول جغرافية . لقد أخذ اليونان عامة عن المصريين ، الأرصاد والتقاويم وأخبار الرحلات وقصص الرحالة فى مصر القديمة وما طرقوه من برور وبحور . وقد بلغ من شيوع هذه القصص وذيوع هذه الرحلات ، أنها تسربت إلى الإلياذة والأوديسة من شعر هوميروس ، كما تسللت إلى شعر غيره من الفحول .

ومدرسة الإسكندرية الجغرافية ، وفد إليها استرابون قبل بطليموس بنحو مائة عام .

على كل حال ، جغرافية بطليموس نقلها إلى أوربا الثقافة العربية مزيدة منقحة ، قد أضاف إليها البيرونى ، رحلاته فى آسيا الشرقية .

واخترع ابن يونس المصرى فى القرن التاسع الميلادى « **الرقاص** » ثم جاء بعده من ضبط حركاته وانتظام ذبذباته .

ومن الراجح أن الإبرة المغناطيسية من عمل الملاحين العرب والمسلمين . يقول هذا جوستاف لوبون فى كتابه عن الحضارة العربية .

لقد تطلعت أوربا فى القرن الثانى عشر الميلادى إلى الشريف الإدريسى الذى درس فى قرطبة وتطايرت شهرته بين المسلمين والمسيحيين على السواء . إن صاحب كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » سبق إلى معرفة منابع النيل العليا ، كما حفظت فى الخرائط التى بقيت فى بعض المتاحف الأوربية ، ومنها خريطة محفوظة بمتحف سان مارتين الفرنسى ترسم النيل آتيًا من بحيرات جنوب خط الاستواء بعد أن تخبط الجغرافيون طويلاً فى وصف منابعه ومنهم هيرودوت نفسه الملقب بأبى التاريخ .

لقد قال العرب « ابن خرداذبة وابن رسته والمسعودى » **باستدارة الأرض** وبوجود جزء مغمور من الجانب الغربى من الكرة الأرضية فسنح فى ذهن كولمبوس السفر إلى هذا الجزء للوصول إلى الأقطار الآسيوية . وقد وصل المسلمون إلى المناطق القطبية . وقد أسهم الخوارزمى فى قياس طول محيط الأرض .

لقد كانت السياحة فيما بين القرن العاشر والقرن السادس عشر ، فنًّا إسلاميًّا من فنون أهل المغرب خاصة وهم قدوة الأوربيين . ومن الأسماء الإسلامية الباقية فى عالم الرحلة والارتياد : أبو عبد الله البكرى صاحب كتابى « معجم

ما استعجم » و« المسالك والممالك» «توفى فى القرن الحادى عشر» الميلادى.

ومنهم الشريف الإدريسى .

ومنهم محمد بن عبد الرحيم المازنى المولود فى غرناطة « فى القرن الثانى عشر » وألف « نخبة الأذهان فى عجائب البلدان » .

ومنهم ابن جبير صاحب « رحلة ابن جبير » .

ومنهم ابن بطوطة أكبر الرحالين فى القرن الرابع عشر على الإطلاق وهو صاحب « تحفة النظار فى غرائب الأمصار » .

ومن الرحالين العرب : المسعودى وابن حوقل وياقوت الحموى والبيرونى وغيرهم .

وكان شهاب الدين أحمد بن ماجد « ١٤٣٣ - ١٥٣٦ » من عمان ، حجة فى جغرافية المحيط الهندى ، وقد قاد سفينة فاسكودى جاما عبر المحيط الهندى .

وقد كان Radeurigo de lob أحد أعضاء رحلة كولمبوس ، أول أوربى يضع قدميه على أرض العالم الجديد « أمريكا » ، متأثرًا بالمسلمين فى الأندلس ، حتى إنه بعد عودته إلى أسبانيا ، أعلن إسلامه على الرغم من وجود محاكم التفتيش فى ذلك الوقت .

واصطلاحات الملاحة الأوربية تشير إلى أصلها العربى . فكلمة Admiral من أمير البحر Arsenal من دار الصناعة risk بمعنى المغامرة من رزق . و Wissil الألمانية من وصل ، وغير ذلك ولا سيما فى اللغة الأسبانية والبرتغالية .

أحوال الحضارة :

لقد تأثرت الحياة الأوربية بالحضارة الإسلامية حتى انعكست فى لغاتها ، ألفاظها مثل : Coton من القطن ، Muslin من الحرير الموصلى ، Damas من الحرير الدمشق ، Cordevan من الجلد القرطبى ، Morocco من الجلد المراكشى ، Jupe من الجبة ، Musk من المسك ، Attard من العطر ، Syrup من الشراب ، Jar من الجرة ، Sofa من الصفة أى المقعد الطويل ، Rice من الأرز ، Orange البرتقال من النارنج Lemon الليمون Sucre السكر ، Coffee القهوة .

هذا بعض ما ثبت فى الإنجليزية والفرنسية ، وأضاف هذا فى الأسبانية[1] والبرتغالية . ولا تأخذ الحياة الأوربية هذا كله من العربية ، إلا إذا كانت الحضارة الإسلامية فى مقام التفوق الذى يغرى بالاقتباس .

لقد كان سادة أوربا يفخرون بما يقتنونه من قرطبة فى عهدها العربى ، من منسوجات أو مصوغات أو آنية فخارية . وإلى قرطبة وغيرها من المدن الأندلسية ، كان يتوافد طلاب التحف والترف والموسيقى والغناء ، والدواء أيضًا . حتى ليقول المؤرخ الإنجليزى استانلى لاين بول : « إن حكم عبد الرحمن الثالث الذى قارب خمسين عامًا أدخل على أسبانيا تجديدًا لا يلم الخيال – على أجمع ما يكون – بحقيقة فحواه » .

---

(١) اقرأ كتاب «كلمات عربية فى اللغة الأسبانية» تأليف الأستاذ عدلى على طاهر نور .

ويقول الكاتب الأسبانى الكبير « أبانيز » فى كتابه « ظلال الكنيسة » عن غزو العرب لأسبانيا :

« لم تكن غزوة فتح وتدويخ بل حضارة جديدة بسطت شعابها على جميع مرافق الحياة . ولم يتخل أبناء الحضارة زمنًا عن فضيلة حرية الضمير ، وهى الدعامة التى تقوم عليها كل عظمة حقة للشعوب . فقبلوا فى المدن التى ملكوها كنائس النصارى وبيع اليهود . ولم يخش المسجد معابد الأديان التى سبقته فعرف لها حقها واستقر إلى جانبها غير حاسد ولا راغب فى السيادة عليها . ونمت على هذا ما بين القرن الثامن والقرن الخامس عشر ، **أجمل الحضارات وأغناها فى القرون الوسطى** . وفى الزمن الذى كانت فيه أمم الشمال فريسة للفتن الدينية والمعارك الهمجية ، يعيشون عيشة القبائل المستوحشة فى بلادهم المتخلفة ، كان سكان أسبانيا يزدادون فيزيدون على ثلاثين مليونًا تنسجم بينهم جميع العناصر البشرية والعقائد الدينية ، وخفق قلب الحياة الاجتماعية بأقوى نبضاته التى عرفها تاريخ الجماعات البشرية » .

والفضل ما شهد به الغرباء .

وعلى الرغم من أن الدول العربية والإسلامية يسلكها الغرب اليوم فى عداد العالم الثالث ، إلا أن عدد المؤهلين فى العلوم الهندسية الذين هاجروا من الدول الإسلامية إلى أمريكا وأوربا يقدر بحوالى **٣٠ ألفًا** ، وصل بعضهم إلى مراكز قيادية فى أعمال البحوث والتطوير فى بيئتهم الجديدة . وهناك ٧٥٤ من هؤلاء المتخصصين ، ظهرت أسماؤهم فى الطبعة الأخيرة من كتاب « رجال ونساء العلم الأمريكيون » منهم **٣٢١ من الدول العربية** و١٦٧ من الهند وباكستان و١٠٦ من إيران وأفغانستان و٧٦ من تركيا . وهى دول إسلامية وفى مجالات

التخصص منهم ٢٢٦ مهندسًا و ٣١٣ فى العلوم الطبيعية والبيولوجية و ٢٢٥ فى العلوم الطبيعية والرياضيات[١] . مما يعد امتدادًا لعطاء الإسلام حضارة وشعوبًا .

الإسلام والمرأة :

من عبقرية الإسلام أنه حضارة وليس دينًا فحسب . وليس مقياسًا لحضارة من الحضارات أو رسالة من الرسالات كموقفها من المرأة . . .

وقد وقف الإسلام من المرأة **موقفًا متحضرًا واسع الأفق ، إنسانى النزعة والفكر والشعور .**

فقد وضع القرآن الكريم – كتاب الإسلام – الرجل والمرأة فى إطار واحد . فكلاهما إنسان بكل ماهو منوط بالإنسان من صفات الخير والعقل والمسئولية والثواب والعقاب فحين قال : (**فاستجاب لهم ربهم أنى لاأضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض**) ... قصد بالخطاب الرجل والمرأة على سواء . يؤيد هذا التفصيل بعد الإجمال فى قوله : (**منكم من ذكر أو أنثى**) .

فليس ضمير جمع الذكور فى الآيات دليل تخصيص ، وإنما هو من باب تغليب الخطاب أى أسلوب تعبير لا تشريع . . فعند الجزاء لم يفضل الله أو يفاضل ما دام العمل الطيب واحدًا . . وهو درس لأصحاب الأعمال ورؤساء الوظائف .

---

(١) انظر مجلة العلم والمجتمع عدد ٢٥ ديسمبر ٧٦ – فبراير ١٩٧٧ .

(**بعضكم من بعض**) هنا مساواة فى الأصالة .

ويقول الله تعالى : (**إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون . هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون**) .

ساوى فى الجلسة والمكان . . .

وحين يفصل القرآن الكريم الآيات فى معانى ومجالى المسئولية والحساب والتبعة والتكاليف ، يعبر (بالنفس) .

(**كل نفس بما كسبت رهينة**)

(**ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئًا**)

(**يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرًا**) .

(**إذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب انتثرت . وإذا البحار فجرت وإذا القبور بعثرت . علمت نفس ماقدمت وأخرت**)

والتعبير بالنفس هنا أوسع من التعبير بالرجل أو المرأة ، إنه يشملها . . . **فكلاهما نفس** .

كلاهما مكلف مسئول مستقل الإرادة والتصرف حتى يكون خليقًا بالثواب ، أو حقيقًا بالعقاب .

وفى مواضع الاصطفاء لم يقصره على الرجل دون المرأة . فكما (**اصطفى آدم ونوحًا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين**) **اصطفى** مريم على نساء العالمين .

وقد تقبل الله المرأة فيما يتصل بشئون العبادة والقيام بخدمة أماكنها المقدسة كما يتقبل الرجل . . فتقبل من امرأة عمران ابنتها مريم (**بقبول حسن وأنبتها نباتًا حسنًا**) . سورة آل عمران .

واختص الله المرأة بكلمته حين بشر مريم بعيسى .

والأمومة امتياز للمرأة لم يمنحه رجل منذ الخليقة . أن تحتوى طفلاً وتلده وترضعه ويخفق قلبهما معًا ، نعمة لا توصف أو تقدر بمال أو جاه أو مناصب مما يحوزه ويحرزه حتى أعظم الرجال .

أنا لا أنتصر للمرأة . . . وهل الرجل إلا الأب والأخ والزوج والإبن ، كما أن المرأة هى الأم والأخت والزوج والبنت ، والحبيبة فى جميع هذه الحالات ؟

إنى فقط أتشرف بمكان المرأة فى القرآن الكريم ومكانتها عنده . . . أكرم به من انتماء .

كانت مريم وأمها قبلها وراء رسالة عيسى عليه السلام . وكانت أم موسى وأخته وراء رسالته . أوحى الله إلى أمه : (.. **أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولاتحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين**)[1] .

وهذه الأم وكلت إلى أخته مهمة شاقة أخرى (**وقالت لأخته قصيه**) أى تتبعى أثره . . . والثالثة ملكة مصر التى أنقذت حياته بتبنيه . . . والرابعة ابنة شعيب التى توسمت فيه الخير وزكته عند أبيها إذ سقى لها ولأختها . . .

نوه القرآن الكريم ببعد نظر المرأة بل وصلاحيتها للحكم وولاية الأمر حين نوه بملكة سبأ وموقفها منذ البداية من سليمان . كانت بأخذها بمبدأ **الشورى** وامتلاكها لسداد الرأى ، وبعد الرؤية ، مثلاً كريمًا وكبيرًا . وهى مثل كريم مرة أخرى فى الأدب العالى أدب النفس وأدب التعبير . ترى عرشها ماثلاً فى صرح سليمان الذى أتى به أو أتاه به عفريت من الجن ، ويسألونها أهكذا عرشك ؟

---

(١) سورة القصص - الآية . ٧ .

موقف يحار فيه الذكاء ويضل القياس حين لا يهتدى المنطق . . فتخرج السيدة الحكيمة عن الإثبات والنفى وكلاهما توريط وتفريط ، بقولها المحسوب : (**كأنه هو**) .

وفى الإسلام أقامت المرأة الدليل على مواهبها فى العقل والتدبير والشجاعة والكرم والرواية والعلم .

إن التى كان لها الفضل الأكبر فى مناصرة الإسلام وهو ناشئ يتحيفه جبابرة قريش ، **امرأة** ، وقفت وراء الرسول تثبت قلبه وتهدئ خاطره وتبذل له من مالها وحنانها ، ما شعب قلبه بالسلوى وأسبغ على نفسه رضا الطمأنينة وطمأنينة الرضا . . . تلك هى أم المؤمنين **خديجة بنت خويلد** ، وقد لقبت فى قومها وعشيرتها « بالطاهرة » .

ومن قولها المأثور له : «كلا والله ما يخزيك الله أبدًا إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق » .

وكانت أسماء بنت أبى بكر تقطع الطريق إلى غار حراء ، وهو طريق محفوف بالمكاره مبثوث بالعيون ، تحمل الزاد إلى اثنين فى الغار الله ثالثهما ، وهما الرسول وأبوها أبو بكر الصديق . وإذ تشق نطاقها لتحزم فيه الطعام يسميها الرسول ذات النطاقين .

وبعد صلح الحديبية رسمت « أم سلمة » أم المؤمنين ، الرأى ، للرسول ففرج الله أزمته وطمأنه على التزام المؤمنين طاعته .

وأمر الله الرسول بأن ، يبايع النساء النبى : (**ياأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لايشركن بالله شيئًا ولايسرقن ولايزنين ولايقتلن أولادهن**

ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولايعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم .)

وهذه المبايعة من فروع استقلال النساء فى المسئولية والرأى والاختيار .

حدث هذا فى القرن السابع الميلادى ، حين تكافح المرأة الحديثة للحصول على حق الانتخاب فى الشرق والغرب . وعد حصولها عليه فى البلاد التى أقرته تقدمًا ورقيًا .

أعطى القرآن الكريم المرأة حق البيع والشراء ، وجعل موافقتها شرطًا فى صحة الزواج . .ونوه بدورها فى التاريخ ، وسدادها فى الرأى ، وقدرتها على التفكير والتدبير . . .

لقد منح الإسلام المرأة من الحقوق ما لم تسلم لها به أوربا ، وإلى اليوم .

جعل لها حقًا فى المال كالرجل ، ومنحها حق التصرف فيه دون رقابة عليها أو ولاية . وجعل لها من حقوق الزوجية مثل ما عليها وجعلها ذات مسئولية مستقلة فى العبادات والمدنيات والجنائيات وفى الثواب والعقاب عند الله : (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرًا) .

ونوه القرآن فى روعة ومحبة بالمرأة زوجة فى قوله تعالى : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) .

ولهذه الآية فهمان . . فقوم يقولون من أنفسكم بضم الفاء ، ويشيرون بهذا إلى أن الرجل والمرأة نفس واحدة وأنها بضعة منه كما أنه ، بالميلاد ، بضعة منها .

وقوم يرون أن المرأة بالنسبة إلى الرجل **وجوده النفيس** أو بلغة الحضارة المترقفة « نصفه الحلو » .

والفهمان يرفعان مكان ومكانة المرأة والزوجة ، ثم تعبير القرآن الكريم بالسكن (**لتسكنوا إليها**) وما توحى به ، هذه الكلمة من سكينة وأمن وراحة وطمأنينة وهناءة ودفء البيت ووئام العيش وراحة العش ، ونعيم الأسرة . هذا التعبير القرآنى ، عبير وتكريم كريم .

(**وجعل بينكم مودة ورحمة** . . .) ذلك اللون من الصداقة الرفيعة الخالدة الرءوم .

ويقول الله تعالى (**جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب**) .

وهنا قدم **الزوجة على الأولاد فى الصحبة ونعيم الروح** . فإذا انتقل القرآن إلى المرأة الأم فذلك هو التقديس بعينه بعد الله . فقد قرن طاعة الوالدين بطاعته : (**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانًا**) ، ثم يخص الأم بفضل طاعة فى موضعين فى سورة لقمان ومن سورة الأحقاف لقاء ما انفردت به من ألوان المشاق فى الحمل تسعة أشهر ثم الرضاعة والسهر على الوليد فى الصحة والمرض : (**ووصينا الإنسان بوالديه . حملته أمه وهنًا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلىَّ المصير**) . ويقول عز وجل : (**ووصينا الإنسان بوالديه إحسانًا ، حملته أمه كرهًا ووضعته كرهًا وحمله وفصاله ثلاثون شهرًا**) .

هنا تفصيل دور الأم لعظمه وإعظامه . . .

ثم يجىء قول الرسول عليه الصلاة والسلام مصداقًا لقول الله الكريم . جاءه

رجل يسأله : من أحق الناس بحسن صحابتى يا رسول الله ؟

قال : أمك .

قال : ثم من ؟ قال : أمك .

قال : ثم من ؟ قال : أمك .

قال : ثم من ؟ قال : أبوك .

وتاريخ الإسلام فى إبان ظهوره ، حافل **بمواقف خالدة للمرأة فى نصرته** . فقد شاركت فى الدعوة ، وشاركت فى الهجرة ، وشاركت فى الابتلاء ، وشاركت فى الرأى ، وشاركت فى الغزو ، وشاركت فى العلم ، وشاركت فى الرواية ، وشاركت فى الاجتهاد . وكانت فى كلٍّ ، ذات دور فعال مرموق .

المرأة فى القرآن الكريم إنسان عزيز عِدْل الروح ، ومهوى القلب ، ورفيقة الحياة ، وحياة الأسرة ، أمًّا وزوجًا . . .

أعطى الإسلام المرأة ، حق المبايعة أى « **الانتخاب** » :

(يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لايشركن بالله شيئًا ، ولايسرقن ولايزنين ولايقتلن أولادهن ولايأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولايعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم)[1]

وأشرك المسلمون الأوائل ، المرأة ، فى المشورة السياسية ، فإن عبد الرحمن ابن عوف حين استشار الناس فيمن يخلف عمر رضى الله عنه من بين الستة

---

(١) سورة الممتحنة – الآية : ١٢ .

الذين حددهم ، لم يبق رجل ولا امرأة يعتد برأيه إلا استشاره وهذا إجماع من الصحابة على ذلك[1] .

وفى باب الرأى والذاتية والشخصية ، أعطى الإسلام ، المرأة ، حق المجادلة الحسنة بالطبع . فقد أتت خولة بنت ثعلبة رسول الله صلى الله عليه وسلم تشكو ظهار زوجها ، وجادلته فى موضوعها ، التماسًا لمخرج هو لا يملكه ساعة الحوار ، فنزلت فى شأنها الآية :

(قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير)[2] .

فالمرأة فى الإسلام تستطيع أن تعبر عن نفسها ، وعن رأيها . . ومعنى هذا ، المشاركة فى حياة المجتمع فى التزام بهذا الدين من حيث الاحتشام وعدم الخلوة .

ومن المشاركة المباحة للمسلمات ، الصلاة بالمسجد وشهود صلاة الجماعة فى العيدين . . فلم يقيدها إلا بما قيد به الإنسان المسلم أيًا كان ، رجلاً أو امرأة ، حتى ذهب الكاسانى إلى أن : « الذكورة ليست من شروط جواز التقليد للقضاء فى الجملة ، لأن المرأة من أهل الشهادة فى الجملة ، إلا أنها لا تقضى فى الحدود والقصاص ، لأنه لا شهادة لها فى ذلك ، وأهلية القضاء تدور مع أهلية الشهادة »[3] .

والإمام أبو حنيفة يرى جواز أن تكون المرأة قاضيًا فى الأموال .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١٤٦/٧

(٢) سورة المجادلة – الآية : ١ .

(٣) بدائع الصنائع للكاسانى جـ ٧ ، ص ٣ .

وقد ولى عمر رضى الله عنه ، الشفاء بنت عبد الله المخزومية ، قضاء الحسبة .

وابن جرير الطبرى أجاز للمرأة القضاء فى كل شيء يجوز للرجل أن يقضى فيه دون استثناء شئ[1] .

لقد أتاح الإسلام للمرأة أن تتلقى العلم وأن تتدارسه وتدرّسه .

لقد كانت السيدة عائشة رضى الله عنها حجة فى رواية الحديث ، ومرجعًا فى أحكام الشرع . قال مسروق « رأينا أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم الأكابر يسألونها فى الفرائض »[2] .

وقد اعتد علماء الحديث بما روته و« العينى »[3] و« الذهبى »[4] والزركشى[5] يرونها من جملة الستة الذين هم أكثر الصحابة علمًا . وكانت تفتى حتى فى أمر الخلافة[6] .

وكان الإمام الشافعى يفخر بتلقيه العلم على السيدة نفيسة رضى الله عنها .

لقد ذكر الخطيب البغدادى فى « تاريخ بغداد »[7] عددًا كبيرًا من النساء العالمات وتحدث عن مجالسهن العلمية . وذكر الحافظ الذهبى الدارسات

---

(١) المغنى جـ ٩ ص ٣٩ . انظر نيل الأوطار للشوكانى ٨/٢٦٥ ، انظر بحث دكتور عبد العزيز الخياط مفهوم الاختلاط وحكمه ، كتاب ندوة المركز الدلى الإسلامى .

(٢) البلاذرى – الأنساب – جـ ١ ، ص٦٦٢ .

(٣) العينى – جـ ١ ، صـ٤٥ .

(٤) الذهبى – ص ١٧ .

(٥) الزركشى – ص ٤٠ .

(٦) البلاذرى – الأنساب – جـ ١ ، ص ٦٠١ – ٦٦٢ .

(٧) تاريخ بعداد جـ١٣ .

للحديث الموثقات . كما ذكر الحافظ بن عساكر فى تنويه ، أن شيوخه كان من بينهم بضع وثمانون امرأة .

وهى شهادة اعتزاز وتقدير .

وكانت السيدة سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما ، تعقد المجالس للشعراء . . ولها رأى فى الأشعار والألحان بما هى صاحبة ذوق وأدب .

المرأة المسلمة التى يعدون بلادها من العالم الثالث ، تحظى بما لا تحظى به المرأة الغربية من **الاحتفاظ باسم أسرتها بعد الزواج** حتى تحتفظ بالتالى بشخصيتها وحقوقها .

لقد كرم الإسلام المرأة **فأعفاها من الارضاع إلا اختيارًا** .

ومن خدمة بيتها إلا طواعية .

ومن الإنفاق من مالها إلا تفضلاً وتبرعًا .

لقد كرمها وصانها . . وكان رسول الإسلام دائم الحدب عليها حتى اللحظة الأخيرة ، أعنى خطبة الوداع التى قال فيها : « استوصوا بالنساء خيرًا » . بعد أن جعل الجنة تحت أقدامها أمًّا ، والجنة فى ظلها زوجة بالسكن والموده والرحمة .

أعطى الإسلام المرأة أو أمها **حق الحضانة دون أهل الزوج** . وبعض الأئمة حدد هذه الحضانة بسن الزواج للبنت ، وسن ركوب الخيل للولد وهو ما **لم ترق إليه قوانين الأحوال الشخصية** إلى اليوم .

ومع هذا يوجد بين الناس من يقف عند آيات قلائل ويأخذ بظاهرها ولو نفذ إليها ببصيرة ملهمة ، لاستشف منها معانى تحسب للمرأة لا عليها . من هذه الآيات البينات قوله تعالى :

(**وليس الذكر كالأنثى**) والآية هنا ليست للتحقير أو للتقرير أو الإقرار ولكنها تعكس مفهومًا خاطئًا لعصر امرأة عمران تسرب إليها حين أرادت أن تنذر جنينها لله ، فلما وضعت أنثى توهمت بحكم العرف السائد أنها لن تستطيع من خلالها أن تفى بنذرها ، فقالت كالمتحسرة : (**رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى** . . .)

إن بعض المفسرين يرى فى عبارة : (**ليس الذكر كالأنثى**) أمارة مدح وتفضيل . إذ هى أصلح لخدمة الأماكن المقدسة والقيام عليها .

ومن الآيات التى كثيرًا ما تؤخذ بظاهرها :

(**ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة**) .

هذه الدرجة فسرها القاسمى فى الجزء الأول بأنها : « زيادة فى الحق وفضيلة » ولكنى ألتقى فى تفسيرها مع الأستاذ سيد قطب فى « ظلال القرآن » حيث يقول : « أحسب أنها مقيدة فى هذا السياق بحق الرجال فى ردهن إلى عصمتهم فى فترة العدة . وقد جعل هذا الحق فى يد الرجل لأنه هو الذى طلق ، وليس من المعقول أن يُطَلِّقَ هو ، فيعطى حق المراجعة لها هى ! فتذهب إليه وترده إلى عصمتها ! فهو حق تفرضه طبيعة المؤلف . وهى درجة مقيدة فى هذا الموضع . وليست مطلقة الدلالة كما يفهمها الكثيرون ، ويستشهدون بها فى غير موضعها »[1] .

ومن الطريف أن المرحوم الأستاذ سيد قطب يعقب على استشهاد البعض

---

(١) كتاب (فى ظلال القرآن) جـ ٢ ص ٢٤٦ ، ٢٤٧

بهذه الآية فى غير موضعها ، بقوله : « وما أبرئ نفسى فقد وقعت فى هذا التأويل الذى أرجح عدم صحته ، فى بعض ماكتبت » .

وهو صدق مع النفس ، وصدق مع الكتابة يُحمد له .

ومن هذه الآيات : (**الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم** .)

وهذه القوامة مقابل الحماية والنفقة عليها ووجوبها على الرجل . لا إلى زيادة فى العقل أو الذكاء أو صفات النفس . . . وكثيرًا ما ينتفى المسبب إذا انتفى السبب . بل لعل الله أعفاها منها صونًا لها من لهث السعى وراء لقمة العيش بما وراءه من صراع ولغوب .

ومن الآيات : (**واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى**) .

وهذا لمشاغل المرأة الطبيعية التى تعرضها للنسيان ثم إن المرأة خيالية فهى عرضة للانفعال . وهذا الانفعال يلون تصويرها للوقائع .

ومن الآيات :

(**يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين**) .

والحكمة فى قسمة الإرث على هذا الوجه ظاهرة لا تحتمل مجادلة . . . فالرجل هو عائل المرأة زوجًا وبنتًا وأختًا وأمًّا على الأغلب . وإذا عالت المرأة أحيانًا ، فلا تعول فى الغالب إلا نفسها . فحاجة الرجل إلى المال أشد بكثير من حاجة المرأة إليه . . . **وهى بالنصف المقدور لها أوفر منه بالنصيب الكامل ذى الأعباء والتبعات** .

وفيما عدا هذه الاستثناءات القليلة والمعللة بحساب دقيق ... نجد أن التسوية تامة بين الرجل والمرأة فى التكاليف والواجبات العامة والتصرفات الشخصية ، والنواهى والمباح والثواب والعقاب والحدود .

يغمزون الإسلام بالإشارة إلى ضرب المرأة ، وعائشة رضى الله عنها تقول : (ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده امرأة قط ولا خادمًا ولا ضرب شيئًا قط إلا أن يجاهد فى سبيل الله)[1] .

وعندما اشتكت النساء إليه ، عليه السلام ، رجالهن ، قال : « أيظل أحدهم يضرب امرأته ضرب العبد ثم يظل يعانقها ولا يستحى » وقال : « لا يضرب إلا شراركم » .

إن الدين يطب لنفس الإنسان . . ومن التطبيب أحيانًا الدواء المر . وبعض النساء مريضات بالسادية يهوين التعذيب . والضرب المشار إليه قاصر على هذه الحالات المرضية ، ويلتقى مع الدين فى هذا ، الطب النفسى .

على أن الضرب حتى فى هذه الحالة ، ليس الضرب المبرح أو القاسى بل أخف صوره ، مجرد موقف .

والمرأة بعد هذا ، وقبل هذا ، هى التى تضع نفسها حيث تريد أن تكون . إن الجديرة بالاحترام ، تفرض احترامها على الجميع فى أسرتها . . وفى خارجها .

أما **تعدد الزواج** فقد نفاه بانتفاء استطاعة العدل وهو نفى من البداية ؛ إذ التعدد فى ذاته تفضيل ينتفى به العدل على أن التعدد فى حالات قليلة **خاصة** ، رحمة ، مثل عقم الزوجة الأولى أو مرضها بداء عضال . هنا يكون مشاركة

---

(١) ابن سعد – الطبقات – جـ ٨ ص ١٤٧ .

أخرى لها أرحم من خروجها من بيتها ومن حياة زوجها ، نهائيًا . وقد تكون لا مورد لها ، ولا طاقة لها على العمل .

هل يقاس مكان المرأة فى القرآن الكريم والحضارة الإسلامية بما كانت عليه فى الحضارات الأخرى ، إذا استثنينا الحضارة المصرية بما أكرمت المرأة ورفعتها **إلى عرش الحكم وكهانة المعبد ، ورئاسة الأطباء** ، حيث كانت نقيبة الأطباء فى مصر القديمة امرأة ، سجل هذا معبد « سيتى الأول » .

لا وجه للمقارنة وإن كان مثل هذه المقارنة من شأنها أن تؤكد مزايا وعطايا أهداها إلى المرأة ، وأسبغها عليها ، **القرآن الكريم** .

نبى الإسلام

١ – الإنسان :

المولد : « يولد فى تهامة .. بين نجد واليمامة .. غلام على كتفه شامة ... تكون له الإمامة إلى يوم القيامة .. » .

بهذه النبوءة تنبأ عرَّاف البادية للشيخ الجليل عبد المطلب ... ولم يهتم بالنبوءة أكثر مما يهتم شيخ حكيم بكلام العرافين ... ولكن ما كاد يمضى على هذه النبوءة بضع سنوات حتى أهل على مكة وليد زكى ... سرى . كان أبوه قد رحل عن هذه الدنيا قبل مولده ببضعة شهور . وكأنه كان كما يقول الأستاذ العقاد : « بضعة من عالم الغيب جاءت إلى هذه الدنيا لتعقب فيها نبيًّا وهى لا تراه ثم تعود » .

وماتت أمه وهو فى السادسة من عمره ... خرجت به من مكة إلى المدينة لزيارة ضريح أبيه ، أو لتزيره أخواله بنى النجار ، كما تقول السيرة النبوية لابن هشام . وإذ قفلت به راجعة ، لفحتها ريح السموم فماتت فى الطريق ، أو على التحديد بالأبواء بين مكة والمدينة ....

وكأن السنين الست من الحنان عمقت إحساسه بالفقدان ... فكان كلما زار قبرها يبكيها حتى وهو فى الستين من عمره .

ومن اليسير كما يقول الأستاذ العقاد فى كتابه « مطلع النور » : أن نعلم وقع

هذه الفاجعة فى نفس الصبى اليتيم ، يتجدد له مصابه فى أبيه ، فلا يكاد يبرح ضريحه حتى يقف على ضريح أمه مهجورًا فى عرض الطريق . . .

مصابه فى أبيه ومصابه فى أمه ، ولم يزل صبيًّا صغيرًا حين أطبق عليهما مصابه فى جده الذى ضمه إليه بعد فقد أبويه . . .

لو نفس صغيرة تتابعت عليها هذه الضربات فى صباها ، لسحقتها واستنزفت كل ما حوته من عطف وأمل ، فلا تعيش – إن عاشت بضرباتها – إلا كما يعيش الأشباح فى ظلمات الحياة .

وكبر الصبى وبلغ مبلغ الرجال وصار أبًا فإذا بأبنائه ذكورًا وإناثًا إذا استثنينا الزهراء – يتساقطون حوله . . . . مات ولداه القاسم والطاهر طفلين وماتت بناته بعد أن تفتحت عنهن الأكمام وصرن أمهات . . . اخترم الموت زينب وخطف رقية وقطف أم كلثوم .

لا ريب كما يقول الأستاذ الزيات فى « وحى الرسالة » أن أسرة محمد الرسول شملت جزيرة العرب كلها ، وستشمل عالم الإسلام أجمع ، ولكن أسرة محمد الرجل لا تزال لنقصها ألمًا من آلام العبقرية ، ومحنة من محن البطولة .

وبين ظلال النخل والكرم ، وفى بيته المصرى على العالية من ضواحى المدينة ، أتم الله نعمته على رسوله فوهب له على الكبر ، والثكل المتكرر ، إبراهيم . . .

كان العرب يئدن البنات خشية إملاق أو خشية عار موهوم ، فكانت ذريته ، بناتًا . . . . أو هن اللائى عشن له بعض سنين . . وفى مثل هذه البيئة كان الحرص على العقب الذكر يوازى – كما يقول الدكتور محمد حسين هيكل

فى « حياة محمد » – يوازى الحرص على الحياة بل يزيد عليه . . .

ولا أدل على هذا أن موقفه من زيد بن حارثة الذى جئ به عبدًا يشترى ، فطلب الرسول من زوجه خديجة أن تبتاعه ففعلت ، ثم أعتقه ورباه وتبناه ، فكان يدعى زيد بن محمد ! !

بعد هذا كله ولد «إبراهيم» فغمر قلبه الكبير الكسير فرح عظيم ، فغدا كأن لم تثخنه ، من قبل ، الجراح . . . . خفق بالفرحة فتصدق على الفقراء ، ووسع على المعوزين ، وفرق زنة شعره فضة ، وذبح كبشين احتفالاً بمولده ، نفح مرضعته بسبع من الماعز سمان يحلبن عليها وعليه . . . وفى كل صباح يستاف أنفاس الربيع من أنفاس الوليد الذى يحمله فى حجره يشمه ويضمه ويرى نفسه فيه ويعلق أمله عليه ، وتخايله السعادة فيرى أصله قد امتد ، وفرعه قد طال ودوحته قد تباركت ومستها ، بمولد إبراهيم ، يد الربيع فغدت به وبابنه فى صحراء العرب جنة وارفة الظلال . . .

ويرى المؤمنون فرحته فتقر عيونهم كما قرت عينه ، ويلمحون سعادته إذ تحقق أمله فيقبلون على المسجد المستبشر يهنئون النبى (بالخليفة الوليد والأمل الجديد والعوض المبارك) .

ثم . . . ثم مرض إبراهيم . . . . وثقل عليه المرض وأطل الثكل من جديد . . . وذهب الرسول إلى بيت مارية ، ولكنه لم يكن خفيفا فى مشيته يتوثب من الفرحة كعادته ، إذ يكون فى طريقه كل يوم ليستصبح بوجه الطفل الحبيب ، ذهب الرسول إلى بيت مارية المصرية هذه المرة وكأن المرض ثقل عليه هو فأخذ يجر رجليه كأنما يقتلع الخطى من الطريق . هذا هو عبد الرحمن ابن عوف يعتمد عليه والألم يئوده حتى بلغ النخل بجوار العالية حيث إبراهيم

على حجر أمه يجود بأنفاسه وتجود هى بدموعها أنهارًا ... وإلى جانبها سيرين أختها تكاد تذهب نفسها حسرات على الطفل الذى يستمدان وجودهما الأدبى من وجوده ، والذى رفع مقام أمه إلى مقام أمهات المؤمنين ...

ونظر الرسول الذى عرف اليتم والثكل والأذى والكيد وكابد القلة والتآمر والهزيمة ... واحتمل هذا كله مجتمعًا ومتفرقًا .. ولكنه لن يحتمل احتضار إبراهيم فخفق قلبه واختلج وجهه كله وقد تحمل وتجلد عزمه ، وحين أيقن أن الأمل الذى تجدد ، قد تبدد . ، والرجاء الذى أضاء نفسه قد خبا وخاب .. بكى ... وكأن الوالد فيه ، تذكر الرسول فقال : « إن العين لتدمع ، وإن القلب ليجزع ، وإنا لبعدك يا إبراهيم لمحزونون .. أما والله لولا أنه أمر حق ، ووعد صدق وأن آخرنا سيلحق بأولنا لحزنا عليك بأشد من هذا » .

وإذ رآه أسامة بن زيد يبكى ويتألم ، صرخ .. فينهاه ولكنه لم ينه مارية وأختها سيرين حين صاحتا من هول مابهما ، لأن الشرخ فى القلب لابد له من صوت . فنظر إليهما فى حنان عطوف وقال يهون عليهما ويخفف حرقتهما « إن له لمرضعًا فى الجنة » .

ويرى الصحابة كيانه يختلج وقلبه يئن فيذكرونه ، غير غافل ، بالصبر وأقواله فيه فيقول « ما عن الحزن نهيت ، وإنما نهيت عن العويل ... وإن ما ترون بى أثر بالقلب من محبة ورحمة ... ومن لم يبد الرحمة لم يبد غيره عليه الرحمة » ...

وتنكسف الشمس يوم وفاته فيرى الناس فيها معجزة .. فإذا بالرسول الصادق الأمين يعلو على حزن الأب وضعف الإنسان الذى يحتاج إلى المشاركة تأتى من أى مصدر ، ولو وهمًا ، حتى لتعجب ليلى من إيراق شجر الخابور بعد

موت ابن طريف . . . ونظر النبى عليه السلام إلى من حوله وقال فى حكمة لم يغلبها هول الفجيعة : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة » .

لقد رأى بعض المستشرقين أن ينالوا من محمد ، غير منصفين ، فى حروبه أو زيجاته ولكنهم جميعًا بلا استثناء أشادوا به فى هذا الموقف من مواقف الضمير والإيمان والصدق . . . الصدق مع النفس والصدق مع الناس .

وصلى محمد الرسول فى المسجد على إبراهيم ، ودفن محمد الأب ، فى البقيع ، إبراهيم ، ثم سوى عليه بيده ورش الماء وأعلم عليه بعلامة وقال : « إنها لا تضر ولا تنفع ولكنها تقرعين الحى . وأن العبد إذا عمل عملاً أحب الله أن يتقنه » .

لم تبق له إلا الرسالة يكمل أداءها ، فلم يحجبه المصاب عنها ، بل لعله زاده عليها إقبالاً ملتمسًا فيها العزاء .

وفى فجيعته فى أبنائه وهو من هو من الله سبحانه وتعالى ، عزاء للآباء والأمهات . . .

وفى صبره على فقد إبراهيم فى خريف العمر بعد الحرمان الطويل ، والشوق المشوف ، والأمل الملهوف ، والرجاء الآمل ، عظة للمرزوئين والمحزونين .

لقد صبر ، وبه من الهم ما تنوء به الجبال ، وتجلد وبه من الألم عاصف . . . وبكى ، وهو الذى احتمل من مكاره الدعوة ما لا ينهض به إلا أولو العزم من الرسل . . . ومن هنا نلمس حجم رزئه وفداحة مصابه بحيث فجر حزن الصامد وأراق دمعًا عصىّ التسكاب .

وهنا ، ولأنه على خلق عظيم ، استعلى على الحرمان كله بالرحمة فيوضًا فى قلبه الكبير حتى ليصدق فيه الشعر ، ويكون بصدقه أعذب :

وإذا رحمت فأنت أم أو أب   هذان فى الدنيا هما الرحماء

وجاء دينه دعوة للحنان والسلام والرحمة يشيعها فى أقواله وأفعاله ورسالته . . . دعوة لحنان الآباء على الأبناء ، والأبناء على الأمهات والآباء . . . دعوة إلى حنان المجتمع ممثلة فى التعاطف ، وحنان الفرد ممثلة فى الزكاة ، وحنان الأسرة منعكسة فى النفقة والميراث . . .

حتى العبادة كانت دعوته إليها رفقًا . **فالدين يسر** وما شاد الدين أحد إلا غلبه . . . والمنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى . . .

حتى الحرب كانت بتعاليمه وسيلة للسلام والأمان . **فنهى عن الغدر والتمثيل** ، وقتل الشيوخ والنساء والأطفال مما لا ترعاه الحروب الحديثة التى يتشدق أصحابها بحقوق الإنسان . . .

الحرب كلها دفاع ، لا هجوم ولا عدوان إلا أن يكون درءًا لهجوم أو عدوان . .

والتسلح بالقوة إرهاب للعدو حتى لا تحدثه نفسه بالاعتداء استضعافًا أو انتهازًا لضعف ، ولم يكن إعداد القوة للتهديد أو التهجم . . .

والنصر عنده عفو شامل وسماحة سمحاء ، يظفر بألد أعدائه يوم فتح مكة فيقول بصوت عاتب غير نذير :

– ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا :

– خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم .

وما تجاوزوا الصدق الصادق فيما وصفوه ، فقد قال لهم فى صوت صافٍ لم تقو المحن والإساءة على أن تشوبه :

– اذهبوا فأنتم الطلقاء . . .

والأسرى إما منًّا أو فداءً ، بل لقد أطلق أسراه من الأعداء فأخلى سبيل بنت حاتم أخت عدى وخلع عليها وأكرمها .

وفدت عليه هوازن وهى مهزومة فى موقعة حنين وفيها عم له من الرضاع . . . ونظر إليه النبى ورق له ثم التفت إلى المسلمين يناشدهم التفاتة ترد السبىّ من نساء وأبناء من أجل عمه فى الرضاع . . .

وحضنته فى طفولته جارية عجماء فحفظ لها مودتها وكان همه أن تسعد فكان يقول لأصحابه : « من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن . . وما زال يناديها يا أمه كلما رآها وتحدث إليها . . . سمعها مرة فى القتال تدعو الله بلكنتها الأعجمية وتقول ثبت الله أقدامكم » . فابتسم ودعا لها .

وهكذا كانت أبوته الروحية للمسلمين جميعًا حتى من لم يذكره منهم بحنان الطفولة ورحم الرضاع . . .

كان يخفف الألم ويواسى فى المصاب ، بل ويواسى فى موت طائر يلهو به أخو خادمه . . . كان يعود المريض ويواسى الحزين ويأسو الجراح .

لم ينهر فى حياته خادمًا ولم يضرب أحدًا . . . قال أنس : « خدمت النبى صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى أف قط ، ولا قال لشىء صنعته : لم صنعته ؟ ولا لشىء تركته : لم تركته ؟

كما أحبه ميسرة غلام زوجه خديجة ، فشهد له بالأمانة والعفة ونسب

الفضل كله فى نجاح تجارتها ورواجها إليه . ولو كان وجد منه غير ما يرضيه لنفس عليه .

وأكثر من هذين وأشد إثارة للعجب ، مولاه زيد بن حارثة . لقد عرف التشرد وضيعة النسب والنسبة . . . ثم اهتدى بعد اليأس والضياع إلى أبيه . ولم يشك أحد فى عودته إلى أهله ، فى بيئة تحفظ الأنساب وترفع بها ، فإذا بزيد يختار . . . يختار أحمد ! ! وفى تشبثه به ، وفى مثل هذا الوضع ، إقراران يرجحان حنان الرسول على الآباء . . . وهو رجحان ، قلّ أن تعرفه كفة الميزان .

ومولى آخر **هو ثوبان** اجتمع عليه المرض والنحول والحزن ، أما المرض فلا حيلة فيه ، وأما الحزن فقد سأله الرسول ﷺ ما به فقال : « إنى إذا لم أرك اشتقتك واستوحشت وحشة عظيمة ، فذكرت الآخرة حيث لا أراك هناك ، لأنى إن دخلت الجنة فأنت تكون فى درجات النبيين فلا أراك » .

ويروى الأستاذ العقاد أن هذه القصة رويت فى أسباب نزول الآية الكريمة : (**ومن يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا**) .

وبلال . . بلال كما أشرت تتغشاه ظلال الموت ويحس أهله النهاية فيصيحون « واكرباه » فيقول هو : « واطرباه » « غدًا ألقى الأحبة محمدًا وصحبه » .

أى أبوة وأى حنان جمع هؤلاء جميعًا على حبه ، بل الغلو فى الحب حتى ليتضاءل إلى جانبه حب آبائهم الحقيقيين ؟

وكان رفيقًا بالإنسان **بل بالحيوان** يصغى الإناء للهرة لتشرب ويقول للمسلمين موصيًا « إذا ركبتم هذه الدواب فاعطوها حظها من المنازل ولا تكونوا عليها شياطين » . ويقول :

« اتقوا الله فى البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوها صالحة » . . .

وقال : « إن الله غفر لامرأة مومس مرت بكلب على رأس بئر كاد يقتله العطش . . . فنزعت خفها فأوثقته بخمارها فنزعت له من الماء فغفر لها بذلك » .

وحديثه المشهور : « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » .

بل بلغت به رقة الإحساس وحنان القلب أن شمل الجماد بتحببه وحنانه ، فكان يسمى قصته « الغراء » وسيفه « ذا الفقار » ودرعه « ذات الفضول » وسرجه « الداج » وبساطه « الكز » وركوته « الصادر » ومرآته « المدله » ومقراضه « الجامع » وقضيبه « الممشوق » . . .

وكأنها أحياء مدللة بالأسماء والكنى والألقاب .

كان من صفاء القلب بحيث يظهر ما يبطنه رضًا أو غضبًا على صفحة وجهه فيقرأ بغير حروف . . . وكان من رقة الحاشية بحيث غنَّت أمامه جاريتان وهما تدقان على الدفوف فى بيت عائشة ، فلما لمحتا عمر بن الخطاب قادمًا وقفتا خلف السرير اختفاء فضحك الرسول وقال : « ذهب شيطانهما لما أقبل عمر » .

ولد سبطه الحسن فسماه والداه « حربًا » فرأى بشاعريته ورقته أن يسمى ، الحسن . وهو الذى سمى « الحسين » . . . فقد كان يطرب للاسم الجميل ويتفاءل به . . . دخل المدينة حين هاجر من مكة ونزل عند رجل من الأنصار فنادى ولديه : يا سالم ويا يسار ، فاطمأن وقد وجد فى الإسمين روحًا واسترواحًا وقال : « سلمت لنا الدار فى يسر » .

وكان الرسول الجد ، يداعب الحسن والحسين ويدللهما . . . وقف مرة

للصلاة فلما سجد علا كتفيه أحدهما فأطال السجود ويسألونه فى هذا فيقول : « إن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله ! » .

وكان مرة على المنبر فأقبل الحسن والحسين يمشيان ويتعثران فنزل من المنبر يسبقه إليهما ، حنانه ، كله ، وحملهما وهو يقول : « صدق الله العظيم إنما أموالكم وأولادكم فتنة ! » .

وكان إذا سمع أحدهما يبكى يعاتب ابنته الباقية له ، الزهراء ، يقول لها : « ما بكاء هذا الطفل ؟ ألا تعلمين أن بكاءه يؤذينى ؟ » .

وكان يبيت عندها من حين إلى حين ليكون على مقربة من الأطفال ويطيب له ، وأبواها قاعدان ، أن يسقيهما إذا عطشا ويغطيهما إذا ناما ويداعبهما إذا استيقظا . وكانت فاطمة تزهو بأبوته الجامعة . . وتسعد بأنه لها أب ولأطفالها معها . فكانت إذا أرقصت طفلها كالأمهات تقول :

وا بأبى شبه النبى لست شبيهًا بعلى

فلا يدرى زوجها الإمام يحتج أم يفخر ! . .

وكان إذا دب بينهما من الخلاف ما لا تخلو منه حياة زوجين ، يدخل مهمومًا ويخرج وهو جذلان . . ويسأله الصحابة فى ذلك فيقول : « ولم لا وقد أصلحت بين أحب الناس إلىّ » .

وليس هذا شأنه مع على وحده لأنه عصب ، ولأنه أول من أسلم من الصبيان ، ولكن كان هذا أسلوبه مع أزواج بناته حتى من لم يسلم منهم ! . . . فحمد لابنته زينب رقة شمائلها ووفائها لزوجها « أبو العاص بن الربيع » حين بعثت تفتديه من أبيها ، وقد أسره فى غزوة بدر على الرغم من محاربته الرسول ،

وقوفًا فى صف قريش ، التى لو قدر لها الانتصار يومئذ ، لما قامت للإسلام قائمة بعدها أبدًا . كان إنسانًا ... وكان نبيًّا .

٢ – الرسول :

لم يكن له مال ، وهو فى الذؤابة من قريش . فلم يعرف حياة المتبطِّلين ، بل عمل وكدَّ وعاش من عرق جبينه . . رعى الغنم واشتغل بالتجارة قبل الدعوة . . ومع هذا سلمت نفسه من الشح والجشع والرغبة المحمومة فى الإثراء السريع أو البطىء فكان عفًّا . . شفًّا ، شاعت بين القوم عفته فلقبوه بالأمين . . واشتهرت بينهم رجاحته فحكموه حين اختلفوا على وضع الحجر الأسود ، وارتضوا رأيه فى التحكيم .

كل هذا فى طراءة العمر ونضارة الصبا . . معذورة سيدة بنى مخزوم خديجة بنت خويلد أن اختارته لرحلة العمر . وهى التى كانت قد رفضت السادة من قومها ومن قبائل العرب الأخرى .

واتصلت سيرته كما تتصل الملاحم الكبرى فى التاريخ . . تتعاقب الأيام والسنون ولا تبلى . . . بل تروع وتتجدد وتضوع . . . فله فى كل ربيع مولد . . وله على كل قلم ذكر . . وله فى كل قلب مؤمن ، مكان . . وله على كل لسان سلام ، ما جلجلت فوق سامقات المآذن كلمة « الله أكبر » .

أدَّى محمد الرسول رسالة ، ونشر دينًا ، وكون من الشتات أمة ، وخلق من البداوة حضارة طلعت شمسًا على الغرب والشرق . وهذا عندى **معجزته الكبرى** . فاستحالة أن يأتوا بسورة من القرآن ، **معجزة عصر** . . ولكن أن يؤلف من القبائل المتنازعة ، ومن « الأيام » المروعة ، ومن العادات المفزعة ، أمة . .

ومن العرف ، دولة ... ومن الجاهلية ، حضارة ... ومن الضعف ، قوة وعزة وغلبة ... أن يصنع هذا كله ، أعزل أميًّا ، معجزة الدنيا ، **والإنسان ، فى أى مكان .. وفى كل زمان سواء** لدينا من آمن به ، ومن ناوءه ..

لقد شغل الدنيا والناس والأقلام حتى المستشرقين . ألهم وهو النبى الأمى ، الكاتبين من المسلمين وغير المسلمين عشرات الكتب وألوف الصفحات ... بعضهم أطرى مناقبه ، والبعض الآخر كابر ، إذ له غرض خبىء . ولكنه على الحالين كالشمس فى متوع الضحى لا يزيدها ، رؤية عين ، ولا يغض منها ألا يرى ضوءها من ليس ذا بصر ... ولكنه على الحالين شغل الحياة والناس ... شغل التاريخ والمؤرخين ... دخل قلوب المؤمنين ودخل عقول المفكرين .. قامت باسمه الدول وارتفعت أعلام ... اهتزت عروش وظهرت عروش ... ولدت إمبراطوريات ... ودالت إمبراطوريات ... **تغير التاريخ فى الشرق والغرب** .

فعل محمد هذا كله ، لأن الدين الذى أتى به لم يكن دين طقوس ونصوص فحسب ، بل كان سلامًا فى الروح ... وسلامًا على الأرض .

هو سلام فى الروح يستقر إيمانًا فى القلب ، ويتبدى صدقًا فى العمل ، ويهتدى ارتفاعًا فى السلوك ، فلا يقول قائل : « لا حول ولا قوة إلا بالله » ثم يخاف من إنسان حاكمًا أو محكومًا .. ولا يقول : « إياك نعبد وإياك نستعين » ثم يتخذ من دونه أربابًا .

لم يكن « محمد » داعية فحسب ، بل كان مصلحًا عظيمًا وإنسانًا كبيرًا اجتمعت حوله شخصيات بينها من اختلاف الطباع والصفات ما بين أبى بكر وعمر . فكانوا يختلفون فى الرأى ، ولكنهم يجتمعون عليه .. وتتعدد

بهم السبل ، ولكنهم يلتقون عنده . ولو كان فظًّا غليظ القلب لانفضوا من حوله ، لكنه عزيز عليه ما عنتوا حريص عليهم بالمؤمنين رءوف رحيم .

وكانت الرسالات قبله دينية بحتة ، ولكن رسالته كانت **دينًا وشريعة** .. شرعت للناس فى أمور حياتهم ما قامت عليه القوانين فى الشرق العربى ، ولم تزد عليه القوانين فى الغرب .

حسب الإسلام فضلاً أن يعطى للدنيا رجلاً مثل عمر بن الخطاب . . . وحسب عمر فضلاً أن يسن للقضاء قانونه الوارد فى رسالته إلى أبى موسى الأشعرى ، وأن يرسم للجيوش مسيرتها فى رسالته إلى سعد قائد جيشه . وقد استمد رسالته من روح الإسلام التى أشربتها نفسه بعد أن كان امرأً فيه جاهلية .

أما رسالته فى القضاء فقد أوردتها ، أما رسالته إلى قائده سعد فما أحوجنا إليها اليوم فى مقام الروع ، وفى امتحان البقاء أو الفناء الذى تجتازه الأمة العربية اليوم . . . وما أحرانا أن تكون هذه الرسالة لنا دستورًا على أرض المعركة :

« إنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب .. وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسًا من المعاصى منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم . . . وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله . ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ، وعدتنا ليست كعدتهم . فإن استوينا فى المعصية ، كان لهم الفضل علينا فى القوة . وإلا ننصر عليهم بفضلنا ، لم نغلبهم بقوتنا . . . فاعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون . . . » .

ثم مضت الرسالة ترسم للنصر طريقه .

وهكذا **وضع الإسلام النظم للحرب والسلم ، كما شرع الإسلام التحكيم الدولى ، وشرع حرية البحار ، ورسم ماهية العلاقات بين الدول .. وعرف الملكية ، وحدد المسئوليات الجنائية منها والمدنية** . . .

كل هذا فى إنسانية عميقة تعلى سلطان الضمير ، حتى لا يفلت الجانى من حسابه ولو أفلت من كل القوانين الوضعية والسلطات الحاكمة .

إن الإسلام بعد أربعة عشر قرنًا يفرض وجوده بصلاحية شريعته بأبعادها ، وأعماقها المختلفة ، على المؤتمرات العالمية ، حتى ليعلن نقيب المحامين فى باريس بلد القوانين والدساتير أن « **الشريعة الإسلامية لها من العمق ، والأصالة ، والدقة ، وكثرة التفريع والصلاحية ، ما يقابل جميع الأحداث** » .

أليس غريبًا أن يضطلع بهذا كله نبى أمى وحده ، حين كانت الرسل قبله تنوء بدعوة محدودة فى عدد محدود فكان الله يرسل اثنين فى زمن واحد ، بل ويرسل ثلاثة أحيانًا . . .

(**إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث**) .

أليس غريبًا أن يفجر نبى أمى بدعوته ، كل هذه النظم والقوانين ، والعلوم الدينية والمدنية ؟

أن يصف المسلمون نبى الله بما هو أهل له ، ليس بغريب . ولكن أن يقف غير المسلكين إزاءه ، فى دهشة لا تخفى يحللون ويفسرون ، فذلك هو العجب العجاب . هذا مونتوجومرى وات يؤلف كتابًا عنه بعنوان « محمد النبى ورجل الدولة » جاء فيه :

« إنه صاحب الإمبراطورية المترامية الأطراف والتى ظهرت على مسرح الوجود بعد وفاته » ومونتوجومرى وات يعزوها إلى بعد نظره السياسى .. إلى

حكمته وحصافة نظرته وصدق رأيه فى الرجال .. إلى البناء المحكم الذى وضع قواعده بحيث يثبت على العواصف ، حتى إن هذا البناء تخطى محنة موت الرسول بسرعة ومضى فى طريقه قدمًا ، مزدهرًا محققًا من الإنجازات ما يثير العجب والإعجاب معًا .

إن قوة الوثوق به ، والإيمان برسالته علامة كبيرة فى تاريخ الإنسان لم توف بعد حقها من الكتابة . لقد لاحظ ديورانت فى « قصة الحضارة » صلاحية الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ لمجتمع دائم ، صلاحية تجمع بين الواقع والمثال .

وقد لاحظ العلماء المحدثون منذ « سنوك هوجرونير » **ارتباط القانون بالدين فى بلاد الإسلام** ، حتى ليربط الأستاذ أ . فيظى : بين النظام القضائى فى الهند فى العصور الوسطى وبين الإسلام عندما كانت الهند العليا تحت سلطان الملوك المسلمين .

ويقول د . أ . ح . قريشى وزير المعارف فى باكستان : « **إن تجانس الشعوب الإسلامية كلها من أعظم مظاهر تأثير الإسلام ومجالى نفوذه** وأدعاها إلى الدهشة ... إن تماثل كل الشعوب الإسلامية واطرادها أروع وأعجب من اختلافها . وهذا صحيح إلى حد بعيد ، وينطبق على مسلمى شبه القارة « الهندية الباكستانية » أيضًا .

إن أثر الإسلام فيهم عميق وحقيق »[1] .

---

(١) من بحثه « أسس الثقافة الباكستانية » فى مؤتمر برنستون .

يقول «كارليل» فى كتابه «الأبطال» : لولا أن محمدًا فيه صدق ما ظفر بهذا **التمكين** .

وأقول فيه صدق وسماحة وحرية واحترام للإنسان . يقول أرنولد فى كتابه «الدعوة إلى الإسلام» عند الحديث عن انتشار الإسلام بين مسيحيى أفريقية وهو بصدد مصر : «ليس هناك شاهد من الشواهد يدل على أن دخولهم فى الإسلام على نطاق واسع ، كان راجعًا إلى اضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حكامهم الحديثين ، بل لقد تحول كثير من القبط إلى الإسلام **قبل أن يتم الفتح** ، حين كانت الإسكندرية ، حاضرة مصر وقتئذ ، لا تزال تقاوم الفاتحين) ص[٩٣] .

يقول روبرت بريفانت فى كتابه «تكوين الإنسانية» : «لم يكن العلم فقط باعث الحياة فى أوربا ، بل الآثار العديدة الأخرى من الحضارة الإسلامية أفاضت إشراقها الأول على حياة تلك القارة» ص[١٦٠] .

أقول إن ميلاد محمد عليه الصلاة والسلام ، كان **مولد أمة ودولة وحضارة** وإن عظمته الحقيقية فيما جاء به من الشرائع والشعائر . **ومما طابق القول العمل من سيرته وشخصيته** ، حتى خلق بالقدرة العالية أكثر من نقطة تحول ، على مستوى الفرد والجماعة . . جعلت من الإسلام **ثورة إنسانية** تتمثل فى النقلة التى حدثت لأبى ذر الغفارى الذى تحول مما كان عليه ، إلى العدل والإحسان ، كما قلت .

إنه دين الفكر حتى ليسمى أهل الرأى : «أصحاب النظر» .
كان صادقًا أمينًا ، فملك الدنيا حاضرًا وراحلاً لا يغيب . كان زاهدًا لأنه

يعرف أن غنى الإنسان بما يحتويه لا بما يقتنيه ، وقد ضم جوانحه على كنوز من القيم والمعانى والسلوك .

كان متواضعًا والتواضع قمة الكبرياء .

كان صاحب رسالة .

وكان صاحب دعوة .

وكان على خلق عظيم . . .

ومن أجل هذا ، **كان محبوبًا وكان قدوة** ، **وكان إمامًا** ، **وكان علامة** على طريق طويل له أبعاد شتى .

لم يغنم لنفسه ملكًا وباسمه عاش الملوك .

بوركت يا رسول الله . . وبوركت ذكراك .

حروب خفية خاضها الإسلام

أن ينتصر الرسول بما هو نبى الإسلام على المشركين ، وأن ينتصر أبو بكر على المرتدين ، وأن ينتصر عمر بن الخطاب على الأباطرة والقياصرة ، كسب كبير وحاسم للإسلام فى القديم . ولكن أن يصمد الإسلام فى العصر الوسيط والحديث للاستشراق والتبشير ، فدلالة هذا قوة ذاتية فى داخله تحسب له ، لأن حرب الفكر بالنفس الطويل ، وحرب العلم بوسائله الحديثة ، أصعب كثيرًا من حروب السلاح . لهذا نقف وقفتين : إحداهما عند **الاستشراق** : والأخرى عند **التبشير**.

الإسلام والاستشراق :

ونحن على أبواب يقظة عارمة تصحو عليها شعوبنا فى سائر أرجاء الوطن العربى ، يجب أن نراجع مفاهيمنا فى موضوعات منها : الاستشراق .

والاستشراق موضوع ذو حدين . فمن المستشرقين من نحا منحى علميًّا نزيهًا وكان لعلمهم الجليل أثر فى إشاعة المنهج العلمى فى الدراسات العربية الأكاديمية ، كما امتد أثرهم إلى تحقيق كثير من النصوص ونشر الكثير من المخطوطات . ومثل هذا الصنيع لا يجحد .

ومن المستشرقين من كان له غرض خبيء ، . وسنفصل القول عن هاتين الطبقتين . .

الاستشراق اليوم يعنى دراسة الغربيين لتاريخ الشرق ، وأممه . ولغاته ، وآدابه ، وعلومه ، وعاداته ، ومعتقداته ، وأساطيره .

ويرجع تاريخ الاستشراق فى بعض البلدان الأوربية إلى القرن الثالث عشر الميلادى ، وربما كانت هناك محاولات فردية قبل ذلك .

ولكنه انتشر فى أوربا بعد عهد الإصلاح الدينى . . كما يشهد بذلك تاريخ الاستشراق فى هولندة والدانيمارك وغيرها .

وسر اقتران الاستشراق بحركة الإصلاح الدينى ، هو إحساس أوربا بالشرق على أساس جديد . ومن هنا ، نجمت ضرورة تعلم اللغة العربية تحقيقًا للجانب اللغوى ، وللوقوف على الدين الإسلامى فى منابعه الأصيلة . ثم تطور الأمر فشمل دراسة أكثر من دين ولغة وثقافة تحت اسم جامع ، هو : الدراسات الشرقية .

ثم حدث بعد هذا أن استهدفت أوربا ، الشرق سياسيًّا وتجاريًّا فالتقت مصالح الاستعمار والتجار مع غاية المبشرين . فكان من شأن هذه المصالح المشتركة ، أن تقوى حركة الاستشراق تأمينًا لخطوراتها ، ولتكون على بينة من أمر هذا الشرق . . من أين يؤتى . .

نشطت حركة الاستشراق ، فألفت الكتب ، وألقيت المحاضرات ، وأنشئت الجمعيات ، وعقدت المؤتمرات ، وأصدرت الصحف ، بل نشر المستشرقون ، كما أسلفنا ، نفائس الكتب وعلقوا عليها الحواشى وذيلوها بالفهارس المختلفة للأسماء والموضوعات والأمكنة ، ثم كتبوا البحوث فى تحقيق

الألفاظ ، وتحرير الأصول ، وكشف المجهول ، على أحدث الأساليب العلمية . وأخلص بعضهم فى البحث حتى أصبح مثالاً لأصحاب العربية يترسمونه فى جمع المادة وأسلوب البحث .

اعتمد الاستشراق أولاً على الترجمة بالطبع ، فى سنة ١٩٣٠ م أنشئت فى طليطلة مدرسة للترجمة تولاها الأسقف ريموند ، أخذت تنقل أمهات الكتب العربية إلى اللاتينية . وفى خلال ثلاثة قرون ، كان ما ترجم من العربية يبلغ بضع مئات من الكتب . . ومما ترجم فى ذلك العهد ، كتب الرازى وابن رشد وابن سينا ، والكتب التى سبق أن ترجمتها العربية من اللاتينية لجالينوس وأبقراط وأفلاطون وأرسطو وأقليدس .

وعاشت جامعات أوربا على هذه الكتب المترجمة خمسة قرون . قال المؤرخ الإنجليزى ملر فى كتابه « فلسفة التاريخ » مما أورده الأستاذ أحمد حسن الزيات فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » : « إن مدارس العرب فى إسبانيا كان فيها العلوم الطبيعية والرياضية وما وراء الطبيعة . . وكذلك أصبح جنوب إيطاليا منذ احتله العرب ، واسطة لنقل الثقافة فى أوربا » .

وقد تزايد نشاط حركة الاستشراق منذ القرن الثانى عشر .

ففى عام ١٧٨٧ ، أنشأ الفرنسيون جمعية للمستشرقين ألحقوها بأخرى فى عام ١٨٢٠ وأصدرت « المجلة الآسيوية » .

وفى لندن ، تألفت جمعية لتشجيع الدراسات الشرقية فى عام ١٨٢٣ وأصدرت مجلة الجمعية الآسيوية الملكية .

وفى عام ١٨٤٢ ، أنشأ الأمريكيون جمعية باسم الجمعية الشرقية الأمريكية . وفى العام نفسه أصدر المستشرقون الألمان مجلة خاصة بهم ، وكذلك

فعل المستشرقون فى كل من النمسا وإيطاليا وروسيا .

كذلك أصدر المستشرقون الأمريكيون مجلة جمعية الدراسات الشرقية . ولهذه المجلة فروع فى لندن وباريس وليبزج وتورنتو فى كندا . . وغير هذا من مجلات . .

ومن أشهر المستشرقين ، دى برسفال وسلفستى دمساس وكترمير ، وادوارلين وستالانا ، ومرجليوث .

وقد أسفرت حركة الاستشراق عن نقل كثير من دواوين الشعر العربى فى عصوره المختلفة وكتب الأدب والتاريخ والفلسفة والدين .

وقد نقل القرآن الكريم إلى أهم لغات أوربا مرارًا . .

وقد وضع المستشرقون عدة معاجم عربية – لاتينية ، وعربية – فرنسية ، وعربية – إنجليزية ، وعربية – ألمانية .

وقد اهتم غير واحد من أدباء العربية بالرد على المستشرقين ، خاصة فيما يتعلق بالإسلام ، فحين كتب المستشرق مرجليوث كتابه : « محمد وظهور الإسلام » رد عليه العالم الشيخ عبد العزيز جاويش . وحين كتب المستشرق جولد تسهير كتابه « العقيدة والشريعة فى الإسلام » رد عليه الأستاذ مصطفى السباعى والأستاذ سليمان الندوى .

أما الأستاذ العقاد فقد صال وجال فى هذا المجال . وفى كتابه « ما يقال عن الإسلام » تكفل بالرد على أكثر من كاتب وكتاب .

وفى هذا الكتاب ، حاول الأستاذ العقاد تقسيم المستشرقين إلى علماء متجردين للبحث العلمى ، متحررين من الأهواء النفسية بقدر ما تطيق الطبيعة البشرية . . .

وطلاب عقيدة ممن داخلهم الشك فى عقائدهم التى ولدوا عليها . وغلب عليهم الإيمان بأن الشرق هو مصدر الأديان ، وأن الباحثين عن العقائد الدينية مرجعهم إليه فى الزمن الحديث ، كما كانوا يرجعون إلى الشرق فى الزمن القديم .

ومن هؤلاء بلاسكو أبانيز الذى أشاد بالتاريخ الأندلسى فى كتابه « تحت ظلال الكنيسة » . . ويشبه فى الإنجليزية الكاتب جوزيف مكاب الذى قارن بين التواريخ الأوربية والتواريخ الإسلامية مرجحًا كفة الإسلام .

وهناك المتعصبون للغرب وطنيًّا أو جنسيًّا . وأظهر ما يظهر هذا التعصب : إذا كتبوا عن **المسلمين العرب** ، لأنهم إذا كتبوا عن المسلمين الهنود أو الفرس اختلفت لهجتهم ، باعتبار هؤلاء من السلالة الآرية التى ينتمى إليها الأوربيون .

وهناك طائفة الماديين الملحدين ، الذين يزعمون أن الأديان كافة عقبة فى سبيل الإصلاح الاجتماعى .

وهناك هواة الغرائب ، الذين يريدون أن يطرفوا قراءهم فيسوقون إليهم ما يذكرهم بألف ليلة وليلة ورباعيات الخيام ورحلات الرواد فى القرون الوسطى ، فيصطنعون رحلات وهمية فى البادية العربية ويختلقون كلامًا غريبًا عن الحجاج والزواج والتسرى ، وإن كان انتشار المواصلات وذيوع الصحافة والسينما ، حد كثيرًا من هذه الترهات فكف خيالهم من نسج مثل هذه الروايات .

ولكن أخطر المغرضين جميعًا طائفتان تملكان من وسائل الدعاية ما ليس لطائفة أخرى من طوائف المغرضين ، وهما : **طائفة الصهيونية وطائفة الاستعمار** . .

طائفة الصهيونية بما تملك من شركات الإعلان ، ودور النشر ، وشركات الصور المتحركة – ومنهم عدد كبير من الممثلين والممثلات ونقاد المسرح والسينما ومرشحين لمراكز الزعامة ، ومتنافسين على الأصوات فى مواسم الانتخابات .

وطائفة الاستعمار بما تملكه من قوة الدولة وقوة المال .

وممن كتبوا عن الإسلام ، الدكتورة أليس ليختنستادتر مؤلفة كتاب الإسلام والعصر الحديث . . ومما جاء فيه عن أسس الإسلام قول الكاتبة : أنه من الضرورى لإدراك عمل القرآن من حيث هو كتاب دينى وكتاب اجتماعى ، أن ندرك صدق المسلم حين يؤكد أن القرآن يمكن أن يظل أساسًا لأداة الحكم المعقدة التى تعالج مشكلات المجتمع الحديث .

كما تناولت الكتابة موقف الإسلام من الثقافة العصرية فقالت : « إن المسلمين أرادوا مطلبًا أكثر من مجرد النهضة السياسية ، إذ كانت رسالة الإسلام الدينية تتطلب التمكين والتثبيت أمام هجمة الشكوك العصرية التى جاءت فى ذيول العلم الحديث . . وكانت دعوة الأفغانى إلى نهضة الإسلام الروحية ، ميراثًا تسلمه محمد عبده ، وبرهانًا فى هذه العصور الأخيرة على اشتباك المسائل السياسية . . وقد كان محمد عبده أقرب أعوان الأفغانى خلال الأيام التى قضياها منفيين بباريس ، فأصدرا صحيفتهما المشهورة باسم **العروة الوثقى** لسان حال الأفغانى فى الدعوة إلى الوحدة كما يدل اسمها المقتبس من القرآن . وأدرك محمد عبده بعد بحثه عن أسباب انتشار الشكوك بين شباب المسلمين ، أن **العقيدة الدينية تتطلب إعادة التوجيه** كى لا تنفصم العروة الوثقى بين المسلم وضميره لتعزيز إيمانه وتثبيت يقينه ، وأن القرآن إذا فهم على وجهه ، كان هو والعلم كلاهما عونًا لصاحبه على الفهم والإيمان .

وممن أشادوا بالإسلام ولفريد كانتويل سميث أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة مونتريال ، فى كتابه الإسلام فى التاريخ الحديث إذ يقول : « إنه ما من دين استطاع أن يوحى إلى المتدين به شعورًا بالعزة كالشعور الذى يخامر المسلم فى غير تكلف ولا اصطناع ، وأن الفخر بالعربية قد يمازج هذا الشعور أحيانًا فيعتبر المسلم العربى آداب المروءة قبل الإسلام قدوة للأخلاق والعادات ، ويشترك العربى فى هذا الفخر ولو لم يكن من المسلمين ، فيعنى بالتاريخ العربى قبل الإسلام وبعد الإسلام عناية النسب الأصيل ، كما صنع جورجى زيدان وفيليب متى وغيرهما من مؤرخى العرب المسيحيين ، ولكن اعتزاز المسلم بدينه ، يعم المسلمين على اختلاف القومية واللغة ، وكون الإنسان مسلمًا ، باعث من بواعث الحمد تسمعه من جميع المسلمين » .

وبين المسلم المعاصر وسائر المعاصرين من الغربيين **فارق عميق النظر إلى العالم وإلى المستقبل** . فإن الأمريكى مثلاً يواجه المستقبل بتجارب العصر الحاضر ، ويغلب القيمة العلمية على قيم العاطفة والخيال فى تقديره للأشياء وعلاقاته مع الناس ، ولكن المسلم على خلاف ذلك ، ينظر إلى المستقبل ليقيمه على أساس من الماضى المجدد ، ويسعى إلى الغد ولا يفوته أبدًا أن يلتفت إلى الأمس البعيد ، وإن لم يكن من الجامدين الكارهين للتقدم ومسايرة الزمن على ما تقتضيه مطالب الحضارة الحديثة .

كما أكثر المستشرقون من الكتابة عن دور الإسلام فى مستقبل القارة الأفريقية باعتباره **حركة من حركات الحضارة** .

من هذا نرى : أن موضوع الاستشراق موضوع عريض يجب أن يدخل فى خطتنا للنهضة والاستنهاض بعد فهم واعٍ ودراسة مستفيضة بصيرة تؤهلنا علميًّا

لدفع ما يجب دفعه ، وإثبات ما يستحق الإثبات ، فى اتزان وموضوعية لتنفذ إلى الأسماع .. والإقناع .

الإسلام والتبشير :

لا تعنى الكتابة عن التبشير ، المساس بالمسيحية ، فهى دين سماوى فى جوهرها محبة ورحمة بعيدة كل البعد عن الإساءة . يقول الله تعالى : (**لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانًا وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق**)[1] .

ولكن التبشير أساء حين انحرف عن نشر المحبة والرحمة ، إلى خدمة الاستعمار والمستعمرين ، فعمل على تشويه الإسلام ليسهل مهمة استيلاء أوربا على البلاد الإسلامية . فالتبشير هنا عملية سياسية تتمسح فى الدين وتخفى وراءه أغراضها الحقيقية .

يقول لورانس براون فى كتابه : « الإسلام والإرساليات » إذا اتحد المسلمون فى إمبراطورية عربية ، أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرًا ، وأمكن أن يصبحوا نعمة له أيضًا ، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير .

وكأن القس « كالهون سيمون » يفسر قول لورانس براون حين يقول : « إن

---

(١) سورة المائدة – الآية : ٨٢ .

الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السود ، وتساعدهم على التملص من السيطرة الأوربية ، ولذلك كان التبشير يعمل على إظهار الأوربيين فى نور جديد جذاب ، **وعلى سلب الحركة الإسلامية من عنصر القوة والتمركز فيها** » .

«كتاب التبشير والاستعمار»

وهكذا يتضح أن التبشير له غرض خبىء ، هو مساندة الاستعمار والتمكين له ، وسيلته إلى هذا ، تفكيك الشعوب الإسلامية وهز قيمها وإشاعة اليأس ليوهن من عزيمتها ، فلا تقوى على النهوض ، ولا تتأهب للمقاومة .

على أن لورانس براون قال سافرًا : « إالخطر الحقيقى كامن فى نظام الإسلام ، وفى قوته على التوسع والإخضاع ، وفى حيويته . . **إنه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوربى** » .

وتقول مجلة العالم الإسلامى الإنجليزية : « إن شيئًا من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربى . ولهذا الخوف أسباب منها : أن الإسلام منذ أن ظهر فى مكة لم يضعف عدديًّا ، بل دائمًا فى ازدياد واتساع . ثم إن الإسلام ليس دينًا فحسب ، بل إن من أركانه الجهاد . ولم يتفق قط ، أن شعبًا دخل فى الإسلام ثم عاد نصرانيًّا » .

كما يختفى وراء **التبشير فلول الحروب الصليبية** ، أو أولئك الذين اعتبروا الإسلام منافسًا للمسيحية لا مكملا لرسالتها . . بل اختفى وراء **التبشير التجار الغربيون أيضًا** . .

جاء فى كتاب « التبشير والاستعمار » الذى سبقت الإشارة إليه : « لقد كانت الدول الأجنبية تبسط الحماية على مبشريها فى بلاد الشرق ، لأنها تعدهم حملة لتجارتها وآرائها ولثقافتها إلى تلك البلاد . بل لقد كان ثمة ما هو أعظم من

هذا عندها : لقد كان المبشرون يعملون بطرق مختلفة كالتعليم مثلا على تهيئة شخصيات شرقية لا تقاوم التوسع الأجنبى » .

وقد تنوعت أساليب التبشير فاتخذ مجالا له :

المدرسة ، والكلية ، والجامعة ، والندوة ، والصحافة ، والمستشفى ، ودار النشر ، والطباعة .

وللمبشرين خطط مدروسة تخطط فى مؤتمرات يعقدونها من أجل هذا الغرض ، ثم يجرى تنفيذها فى سرية تامة وبهمة لا تفتر . .

وينقب المبشرون للإسلام عن مثالب يشوهون بها دعوته . ومن هذا فى زعمهم : الرق ، والانتشار بالسيف . . . وعندية القرآن ، أى أن القرآن من عند محمد ﷺ .

وممن تكفلوا بالرد على هذه المزاعم ، الأستاذ العقاد فى كتابيه : « ما يقال عن الإسلام » و « حقائق الإسلام وأباطيل خصومه » . .

أما مسألة الرق فى الإسلام فإن الأديان جميعًا – قبل الإسلام – أباحت الرق ، وألزمت الأرقاء طاعة سادتهم ومسخريهم فى خدمتهم وخدمة ذويهم .

وجاء الإسلام فشرع العتق ولم يشرع الرق . وقد ندب المسلمين إلى فك الإسار عن الأسرى ، فجعله فريضة من فرائض التكفير عن ذنوب كثيرة :

أوجب الإسلام **قبول الفداء** ، مع استحسان فك الإسار بغير فداء ، وفرض **تحرير الرقاب** على من يقتل خطأ ، ومن يحنث فى يمينه وغير هذا . .

إن أول خطوة من خطوات الحضارة الحديثة إلى تحرير الأرقاء ، جاءت على أثر النزاع بين أصحاب الصناعات الكبرى فى بلاد تنفق الأجور الوافرة على الصناع ، وبين أصحاب هذه الصناعات حيث تدار بأيدى الأرقاء ولا تنفق

عليها أجورًا . . فإن أصحاب الأموال والصناع معًا فى الأولى ، حاربوا الرق ليحاربوا هذه المنافسة ، واستجابوا لداعى المنفعة قبل أن يستجيبوا لداعى الكرامة الإنسانية .

ثم جاءت الخطوة الثانية يوم احتاجت الدول إلى العبيد لتجنيدهم أو لصنع السلاح فى غيبة المجندين ، فخطبت ودهم بمنحهم حقوق الانتخابات والتصويت . .

وجاءت بعدها آخر الخطى يوم نهضت القارة الأفريقية نهضتها وتحررت شعوبها من سادتها ، وخاف أولئك السادة أن يستمال السود إلى معسكر أعدائهم فى سباق التنافس على التحرير واجتذاب قلوب المستضعفين إلى هذا الفريق أو ذاك .

فلما وصلت الحضارة الأوربية إلى هذا المدى بعد طول التعثر والمحال ، لم تكن قضية الرق عندها قضية سماحة وإنصاف ، ولكنها كانت – ولا تزال – **قضية مساومة واضطرار** ، وحيلة من حبل السياسة والإدارة وخطة من خطط التأجير والاستغلال .

أما قضية الانتشار بالسيف فقد تقدمت مناقشتها فى هذا الكتاب . فقط أضيف هنا أن قضية الانتشار بالسيف يكفى فى دحضها أن نذكر أن ما يزيد على ثمانمائة مليون مسلم يقيمون اليوم بين الهند والصين وأندونيسيا ، وباكستان ودول أفريقيا وروسيا نفسها . . وجميعها بلاد لم يفتحها الإسلام بالسيف وإن بلغ أطرافها .

ومن باب الافتئات على الإسلام ، القول بأن القرآن **من عند محمد** ﷺ **وهو فيه ناقل عن التوراة والإنجيل** .

وهنا أقول :

إذا كان الرسول مؤلف القرآن وناقلا عن التوراة والإنجيل ، لماذا اختلف معهما فى نسب المسيح ؟ والمفروض فى نظر الناقل أن اليهود والمسيحيين ، حجة فيه بما هم أصحابه . . بحيث يصبح هذا الموضوع أولى الموضوعات بالنقل الحرفى لا التصحيح الجذرى ؟

مثال آخر الطوفان :

« تحدد الرواية الكهنوتية أن الطوفان قد حدث عندما كان عمر نوح ٦٠٠ عام غير أنه من المعروف حسب الأنساب المذكورة فى الإصحاح الخامس من سفر التكوين ، أن نوحًا قد ولد بعد آدم ب ١٠٥٦ سنة . ويعنى هذا أن الطوفان قد وقع بعد ١٦٥٦ من خلق آدم »[1] .

كيف هذا ؟ أيكون مولد آدم ١٦٥٦ ق . م . . قبل الطوفان الذى لا يسبق ميلاد عيسى إلا ببضع مئات من السنين ، مع أن الدولة القديمة المصرية فقط ، عمرها ستة آلاف سنة قبل الميلاد ؟ ولا أتكلم عن إنجازات الإنسان المصرى قبل التاريخ ، أى قبل قيام الدولة القديمة والوسطى والحديثة .

مثال آخر :

يعطى العهد القديم للطوفان طابعًا عالميًا .

وجدول نسب إبراهيم الذى يعطيه سفر التكوين « ١١ ، ١٠ ، ٣٢ »

---

(١) كتاب دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثه لمؤلفه موريس بوكاى ، ص ٢٤٥ .

يسمح بتقدير أن إبراهيم قد ولد بعد الطوفان بـ ٢٩٢ عامًا . ولما كنا نعرف أن إبراهيم كان يعيش فى منتصف القرن التاسع عشر قبل الميلاد « ١٨٥٠ ق . م » فإن زمن الطوفان يتحدد إذن ، وفقًا لهذا بسنة ١٩٤٨ ق . م ..

أى القولين نصدق والقولان للتوراة ؟

وكيف يمكن اليوم تصور أن كارثة عالمية قضت على البشرية سنة ١٦٥٦ ق . م ، وفى هذا الوقت كانت الدولة الوسطى فى مصر ، فى قمة ازدهارها ؟

وهنا يقف الإنسان الموضوعى ولا أقول المسلم فقط ، فى احترام شديد أمام موقف القرآن من هذا الحادث التاريخى الدينى إذ لا يحدد القرآن زمن الطوفان أو مدته .

وبهذا ارتفع القرآن على الشك .. والاختلاف ... والتغيير .

لست ممن يزدهيهم التوفيق بين القرآن الكريم ونظريات العلم الحديث ، **لأن الدين المنزل من عند الله أكبر من العلم المتغير مهما حقق من إنجازات** . ولكنى فى موقف دحض تهمة النقل عن الإسلام ، ودحض الأذى عنه ، أقف عند قول موريس بوكاى ، وهو ليس مسلمًا ، فى موضوعات العلم فى القرآن الكريم وفى الكتب الدينية قبله ، التى يلوحون بالنقل عنها ، ومنها . **يقول موريس بوكاى :**

« تناولت القرآن منتبهًا بشكل خاص إلى الوصف الذى يعطيه عن حشد كبير من الظاهرات الطبيعية . لقد أذهلتنى دقة بعض التفاصيل الخاصة بهذه الظاهرات . وهى تفاصيل لا يمكن أن تدرك إلا فى النص الأصلى ، . . . أذهلتنى مطابقتها للمفاهيم التى نملكها اليوم عن نفس هذه الظاهرات والتى لم يكن ممكنًا لأى إنسان فى عصر محمد ﷺ أن يكون عنها أدنى فكرة .

إن أول ما يثير الدهشة فى روح من يواجه مثل هذا النص لأول مرة ، هو ثراء الموضوعات المعالجة ، **فهناك** الخلق وعلم **الفلك** وعرض لبعض **الموضوعات الخاصة بالأرض** ، وعالم الحيوان ، وعالم النبات ، **والتناسل الإنسانى** . وعلى حين نجد فى التوراة أخطاءً علمية ضخمة ، لانكشف فى القرآن أى خطأ . وقد دفعنى ذلك لأن أتساءل : لو كان كاتب القرآن إنسانًا ، كيف استطاع فى القرن السابع من العصر المسيحى أن يكتب ما اتضح أنه يتفق اليوم مع المعارف

العلمية الحديثة ؟ ليس هناك سبب خاص يدعو للاعتقاد بأن أحد سكان شبه الجزيرة العربية فى العصر الذى كانت تخضع فيه فرنسا للملك داجوبير Dagobert D. Runes استطاع أن يملك ثقافة علمية تسبق بحوالى عشرة قرون ثقافتنا العلمية فيما يخص بعض الموضوعات » .

ويقول : « ومن الثابت فعلا أن فترة تنزيل القرآن ، أى تلك التى تمتد على عشرين عامًا تقريبًا قبل وبعد عام الهجرة « ٦٢٢ م » كانت المعارف العلمية فى مرحلة ركود منذ عدة قرون » ص ١٤٥ .

ويؤيد هذا ما أثبته روبرت هوك Robert Hooke الجيولوجى من تناقض العهد القديم مع العلم الحديث فى مسألة « عمر الأرض » فقد أثبت رووبرت هوك أن ما يقوله العهد القديم فى نصه اللاتينى من أن عمر البشرية سبعة آلاف سنة أو ستة آلاف حسب النص الإغريقى المسمى بـ Septuagint ، يتناقض مع الحقيقة العلمية . إن جوردن تشايلد Gordon childe فى كتابه (الشرق الأقدم Most Ancient East) وهو يتحدث عن العصر الثلجى ، ويعود به إلى أكثر من أربعين ألف سنة . وأن أوربا فى ذلك العصر كانت مغطاه بالثلوج ، بينما كانت الأمطار تهطل على أفريقيا وآسيا فعرفت النبات والأشجار . . . أى كان فيها حياة .

(وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر ، كل فى فلك يسبحون)[١] .

---

(١) سورة الأنبياء – الآية : ٣٣ .

وفى ضوء هذه الآية ومعها نقرأ الآية ٥٤ من سورة الأعراف . (**إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام**) ، بل إن موريس بوكاى يعلق أهمية خاصة ، لا على ما ذكره القرآن من مِسائل علمية فحسب ، بل على المسائل العلمية التى لم يثرها . . . « فما يحتويه هام . . وما لا يحتويه هام أيضًا . . فهو لا يحتوى فى الواقع على ذكر النظريات التى أثبت العلم فيما بعد عدم صحتها . . ولابد من التنويه بهذا الجانب ذى الطابع السلبى » .

إن هذا الكتاب . . القرآن الكريم . . الذى يحلو لبعض المستشرقين أن يلصقوا به النقل فى محاولة تفضيل عليه ، هو الكتاب الوحيد فى الدنيا وبين كتب الأديان جميعًا ، المحفوظ عن ظهر قلب والذى لم يمسسه تغيير أو تبديل . حين يتكون العهد القديم كما يقول « بوكاى » من مجموعة أسفار لا تتساوى فى الطول وتختلف فى النوع . كتبت هذه الأسفار على مدى يربو على **تسعة قرون** وبلغات مختلفة واعتمادًا على التراث المنقول شفويًا . . وقد صححت وأكملت أكثرية هذه الأسفار ، بسبب أحداث حدثت أو بسبب ضرورات خاصّة ، وفى عصور متباعدة أحيانًا) ص ٢٣ .

إن الدكتور فؤاد حسنين يقول « إن هناك زمنًا بعيدًا بين وفاة موسى وبين تأليف التوراة التى بأيدينا وهى مملوءة بالآيات الدالة على أنها لم تؤلف فى عصر موسى »[١] .

وهذه العصور التى يشير إليها ، مسارها ألفا عام « ٢٠٠٠ سنة » بما يعنى هذا الرقم من أسباب الاختلاف ويعين عليه مما فصله الأب ديفو فى مقدمته لسفر

---

(١) كتاب « التوراة » لمؤلفه الدكتور فؤاد حسنين .

التكوين . فضلا عن أن كُتّاب التوراة والإنجيل **ليسوا شهود عيان** كما هو الحال فى القرآن الذى كتب فور نزوله وجمع عقب وفاة الرسول ﷺ .

حتى الأناجيل الأربعة التى اعتمدتها الكنيسة فى عملية تدارك التعدد والاختلاف ، لم تسلم من التناقضات فيما بينها فى مسائل شتى . فما بالك بالأناجيل الأخرى التى سمتها الكنيسة نفسها « الأناجيل المزورة » ص ١٠ . وإن كان الأب بومار يأسف لحجبها ، لما يراه لها من أهمية تاريخية .

وتعدد المصادر هذا شهد به جان استردك سنة ١٧٥٣ . عندما قارن المذكرات الأصلية التى استعان بها موسى فى تحرير سفر التكوين . هذا فى رأى القائل .

بل إن موريس بوكاى يعزو عدم دراسة الإنجيل **كاملا** فى المدارس إلى الخوف من الحرج إذا سأل سائل عن النصوص . . . أو . فيها . .

هذه مسيرة الإسلام وسيرته على امتداد أربعة عشر قرنًا تستوجب إطلالة على الإسلام فى ضوء العصر الحديث .

بعد أربعة عشر قرنًا من ظهور الإسلام ونزول الوحى ، يحس إنسان العصر الحائر ، **بحاجة قوية إلى الإسلام ، يتفهمه ويتعمقه ، ويطلب عنده الشفاء من داء العصر وهو الغزو العلمى** .

بعد أن أبدع إنسان العصر الحديث حضارته الآلية . وقطع فيها شوطًا بعيدًا حتى وصل إلى سطح القمر ، شعر كما لم يشعر من قبل بظمأ الروح والمشاعر . . **هذا حين طب الإسلام لروحه وجسمه معًا . . لآخرته ودنياه معًا ، فلم يعمل** لواحدة على حساب الأخرى ، بل أعاد التوازن إلى النفوس القلقة فاستقرت وارتاحت . وإذ تطمئن النفس تعطى عطاءها كله غير منقوص وغير شائه .

إن مأساة الإنسان المعاصر ، مأساة بروميثيوس الذى حاول تحدى الآلهة فارتطم بالجبل « جبال القوقاز فى الأسطورة » . .

إن كل نمو للوعى ، يدعو اللاوعى للانكماش . .

ما فائدة سلوكيات تحطم الإنسانية ؟ إن العمل على تناغم الإرادة والقدرة شىء أكثر من الفضيلة . . . إنها **الحكمة** .

ومن هنا نفهم قوله تعالى : (**ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرًا كثيرًا**)[1] .

إن النمو فى جانب واحد حتى الأخلاق ، يؤدى إلى الانهيار المحتوم . هنا الطبيب يكتشف ثورة عارمة من اللاشعور ضد الشعور . . وهنا يعجز العقل الإنسانى عن العلاج إلا بحلول زائفة . . أو مشتبه فيها . .

الطريق هو الذى عثر عليه الشرق منذ بداية الأشياء .

الطريق الذى عثر عليه الصينيون حين لم يفصلوا بين المضادات فى الطبيعة الإنسانية ، بحيث لم ينقطع الاتصال الواعى بينها .

ليس هناك أخطر على الإنسان الأوربى من أخذه اليوجا الهندية ؛ لأن المسألة عنده ، مسألة إرادة ووعى . والأمر أكبر من هذا ، فتحدث النتيجة نفسها التى أريد تجنبها . . أى تنمية الوعى ضد اللاوعى فيصاب الرجل الأوربى بالعصاب أى بالاضطراب . .

إن التفاعل إذا جاء من داخل الفرد تحول إلى رؤية خارجية . . . وإذا جاء من خارج الفرد تحول إلى تجربة ذاتية . . . وخير التفاعل ما تدفق من تيار نهر الزمن .

---

(١) سورة البقرة - الآية : ٢٦٩ .

أما الإسلام فقد منح الإنسان الطمأنينة النفسية . . السلام النفسى . « افعل ما يطمئن إليه قلبك وإن أفتوك وأفتوك » محاولة من الرسول الكريم فى بث الطمأنينة والثقة فى نفس المؤمن . . وهذه الطمأنينة النفسية هى التى جعلت ، بلالا ، يعذبونه أقسى وأقصى العذاب فيقول : أحد . . أحد . .

لقد اطمأن إلى عقيدة يهون معها ويهون بعدها كل شىء . .

« قلب المؤمن دليله » . قالها التراث الإسلامى فى مباشرة وسهولة حين لف « يونج » العالم النفسى الكبير ، حولها طويلا . . شق فى البحث عن دليل .

إن كيان الإنسان يعج بالمتناقضات . . فيه رحمة وقسوة . فيه قوة وضعف . . الفن الإسلامى بمتقابلاته يحل هذا التناقض كما أشرت . لقد مثل الفن الإسلامى ، التكامل النفسى بوحداته .

لكى نطيع قوانين النفس الداخلية كما يقول « يونج » يجب أن نطيع قوانين الأرض أولا . . أن نرضى غرائزنا إرضاءً ذكيًّا وكاملا فى غير ترخص . . لقد دعت المسيحية إلى الروح . . ولكن بعد العصور الوسطى حين **انحلت الروح إلى ذهن** ، وسادت العقلانية ، كان رد الفعل ، خطأ اللبس بين الذهن والروح ذلك اللبس الذى أدى بدوره إلى لوم الروح لأخطاء الذهن . . .

إن الذى ينمى نفسه فى بعد واحد ، يضيع . . وحركات الفن فى حقيقتها ثورة على الاتجاه الواحد ، فى سعى إلى **التكامل** عن طريق الأخذ بالطرف الآخر المقابل . . ومن آثار هذا ، « اللامعقول » فى الفن .

ونأتى نحن لنتظاهر « بالمودرنزم » . فنأخذ باللا معقول ، مع أننا لم نمر بالمراحل التى أدت إليه والتى عاشها أصحابه وعانوا منها .

هل نتروى قليلا قبل التقليد ؟

للصين كتاب عن الحياة ترجمه من الصينية إلى الألمانية ، «فلهلم» ونشر فى لندن سنة ١٩٣٥ . وترجمه إلى الإنجليزية Cary Baynes هذا الكتاب فسره وعلق عليه ، « يونج » . ومن قوله :

« الحل ليس فى التهكم من الروحانية الشرقية ووصفها بالعجز ، وليس فى التشكك فى العلم واعتباره هدَّامًا للإنسانية ، لابد للروح أن تتكئ على العلم بوصفه مرشدًا فى عالم الواقع ، ولابد للعلم أن يتجه إلى الروح للاهتداء إلى معنى الحياة » .

وقد حقق الإسلام هذا التوازن فى إحكام دقيق ووثيق :

لقد أقام الإسلام بمبادئه وقوته الذاتية أمة ودولة ، يجتمع لها العلم والدين ، **مرتين** :

* مرة فى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، حين جمعهم ونظمهم ونشَّأهم على المبادئ الجديدة والقويمة بما صقلهم وهذب بداوتهم وقلم جاهليتهم وأحال النزوة الغرائزية فى داخل الإنسان البسيط إلى ذروة إنسانية ، لا أقول عند الجميع . . ولكن يكفى عند النماذج التى عرفت لنا فى ميدان **الحكم** مثل أبى بكر وعمر . . **والتشريع** عند الإمام على بن أبى طالب ، **والحرب** عند خالد بن الوليد وسعد بن أبى وقاص ، وأبى عبيدة بن الجراح ونظرائهم فى الميادين الأخرى .

* ومرة بعد وفاة الرسول ﷺ . فلولا الإسلام لارتدوا إلى جاهليتهم التى ألفوها طويلا – وقد حاول بعضهم بالفعل الارتداد – ولكن أبا بكر وصاحبه على هدى من الإسلام واهتداء ، جمعا شمل الجماعة ، وقبضا على ناصية الأمور ، وشرعا تحولا تاريخيًا عاش إلى اليوم عبر القرون والظنون .

كان المغول يسكنون صحراء جوبى ، فلما امتدوا وخرجوا منها . خربوا . ودمروا وسفكوا الدماء ، **ولكن العرب : بفضل الإسلام ، حين خرجوا من صحرائهم ، عمروا ونشروا معانى الحق والعدل** ، وهو أنفع لروح الإنسان من كل بناء عالى الصرح . ولا ينفى هذا وجود حاكم من العتاة غير مأمون . أو والٍ من الطغاة ، مأفون . . ولكن هؤلاء كان فيهم جاهلية لم يتخلصوا منها . . هؤلاء لم يؤمنوا بمبادئ الإسلام إيمانًا ينفذ إلى الأعماق ، أو لم يتشربوها وإن دانوا به . . . لهذا لا يحسبون عليه . .

لو أن الدول التى قامت على أكتاف الإسلام واصلت الاستضاءة بروحه ، والاسترشاد بهديه ، لكان للمسلمين اليوم ، شأن آخر . . لكن ركبها أو معظمها ، غرور الفرد ، وغريزة التملك ، وشهوة إراقة الدماء سفحًا من الجسد . أو هدرًا من العقل بإكراه المفكرين وكراهيتهم واضطهادهم . كما حدث فى محنة القول بخلق القرآن .

وكما قامت على الإسلام ، وبه الحضارة الإسلامية ، قامت عليه وبه اللغة العربية . . . فالذين دخلوا فى الإسلام تعلموها ، لأن القرآن لا يكون قرآنًا إلا بها . . ولهذا سهلت مهمتها ، فإن العرب لم تكن لديهم سياسة معينة لنشرها أو أسلوب مرسوم . .

لقد اعتدنا أن نركز الفروق بين الغرب والشرق فى الماديات والروحانيات . . . ولكننا ننسى أو نتناسى المقارنة بينهما فى نظم الحكم . . فقرآننا يقول **بالشورى** ، ولكن الذى يعمل بها مسيحيو الغرب لا مسلمو الشرق . فكل حاكم فى الغرب يستمد شرعيته من الكنيسة أو من الديمقراطية أى حكم الشعب واختياره الحر المريد . . حتى لويس الرابع عشر كانت وراءه

قوى تكبح جماحه وتوجه سيره على الرغم من قوله : « أنا الدولة » أو الملك الشمس Le Roi Soleil أما الحكم فى معظم تاريخ الشرق فهو لا يستمد من روح الدين الذى يحترم الإرادة والعقل والشورى ، لا يستثنى من هذا الأمويون والعباسيون والعثمانيون والأندلسيون . . إلا من عصم ربك كثانى العادلين عمر بن عبد العزيز .

ومع هذا **ظلت الأمة الإسلامية أمة فاضلة . . وهى فى ميزان الإسلام** والقيم والتحضر ، **الأحسن والأبق والأشرف** فى كنفها ، ومنها ، وبها . . القضاة والعلماء والفقهاء والأخيار .

إن **الفقه الإسلامى** من صنع الأمة الإسلامية لا السياسيين . .

والفن الإسلامى من صنع الأمة الإسلامية لا الحكوميين . .

بل إن **المجاهدين** من صنع الأمة الإسلامية . فالمرابطون فى الثغور على أهبة الجهاد متطوعون ، لأن **الإسلام فى قلوب الناس يوجه حياتهم وسلوكهم** بينما أصحاب الدول يوجههم الحكم والمصلحة . .

ولولا قلوب الناس العامرة بالإيمان الصحيح من قوة الإسلام . . ولولا قيام **الأمة الإسلامية** بالعلم والقضاء والحسبة والصناعة والفن ، لما عمرت فى التاريخ ، الدول طويلا . .

ولسنا فى هذا بدعًا ، ففى كل مكان فى الدنيا ، الدول لا تصنع الحضارة ولكن الأمم إذا أمنت وأطمأنت عملت وجودت فى العمل ، ثم تفننت وابتكرت وأبدعت . . . وهنا يحمد الحاكم العادل المتدين لأنه يوفر للأمة الجو المعين على الازدهار . . خاصة إذا تجاوب معها ، وآمن بها ، وعف فيها ، وربط خيره بخيرها . . أما أولئك الذين حكى التاريخ أنهم اعتمدوا على

القوة ، فهم كراكب الأسد ، يراه الناس فيوجلون منه ، وراكب الأسد أشد وجلا .

إن القوة تفصل نفسيًا بين الحاكم والمحكوم فى كل زمان ومكان ، هنا تصح نظرية « الدائرة الشريرة المقفلة » التى قال بها ابن خلدون وغيره من المفكرين فى الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، أى بداية الدول ونهايتها الدرامية . .

إن التاريخ علم الشعوب لا الملوك ، خلافا لما قاله « بوسويه » الذى اعتبر التاريخ علمًا رفيعًا ، قاصرًا على الملوك وأنه خطة إلهية . . ولكنها قاصرة على المسيحيين وحدهم !

ومن شرفنا أن الإسلام لم يعرف هذه التفرقة بين الإنسان أو الأديان ؛ لأنه دين الفطرة ، ولأن رسوله بعث إلى الناس كافة . . ولأن الناس عنده سواسية كأسنان المشط . . وهى قيم لم يرق إليها « بوسويه » أوكتابه « مقال عن التاريخ العالمى » Discours sur L'Histoire Universelle على شهرته .

لم ينشئ دين دولا وممالك كما فعل الإسلام . استطاع الإسلام أن يصنع من البادية ، أمة ودولة وخلافة وحضارة تهدى إلى الدنيا ، فخر الحكام عطر التاريخ عمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز وعبد الرحمن الناصر .

إن المسيحية اعتنقتها ممالك كانت قائمة قبلها ، وبدونها ، واليهودية لم تقم دولة .

إن دولتها الجديدة لم تكن لتقوم لولا مصالح الغرب ومنافسيه فى قيامها ومساندتها . . وحتى حين جاء وقتها سنة ١٩٧٣ ، أى بعد خمسة وعشرين عامًا لا تساوى شيئًا فى عمر الأمم ، لم يمسك عليها البقاء إلا أمريكا بجسرها الجوى .

ولكن الإسلام نشأ محاطًا بقوتين دنيويتين ضخمتين . . هما الفرس والروم

فغلب عليها بقوته الذاتية لا بالسلاح ، فقد كان سلاحها يفوق سلاحه مرات نوعًا وعددًا ، ولكنه كان **الأعمق والأقوى أثرًا فى** نفوس آمنت به فاسترخصت الفداء ، لأن الله وعدها الجنة . . وهى أمل يفعل الأعاجيب ، وأعلى فى يقينها الشهادة والشهداء ، فاستبسلت وقاتلت فى سبيل الله وأبلت بلاءً حسنًا .

وتتميز الحضارة الإسلامية بأنها نجت من داء الحضارات ، وهو الانحلال والاضمحلال ؛ لأن أساسها ليس عنصرًا بشريًا .

إن الذى سقط فى الأندلس دولة العرب لا حضارة الإسلام ؛ فإن هذه باقية إلى اليوم حتى بعد مآل الحكم إلى آخرين دينًا ودولة . .

حضارة الإسلام فى الأندلس باقية ، تشهد عليها قرطبة وغرناطة وأشبيلية التى تمثل عنصر الجذب فى سياحة أسبانيا إلى يومنا هذا ، والذى سقط فى دمشق دولة بنى أمية لا حضارة الإسلام . وفى كل مرة تسقط عاصمة ، ترث مكانتها ، فى مكان آخر ، عاصمة أخرى لأن الإسلام أمة يقوم بدولته فيها ، المسلمون بلا تفريق . . بلا عصبية لجنس أو امتياز لطبقة .

وفى الوقت نفسه الذى انبهر فيه بحضارة الغرب ، يراها اثنان من أكبر مفكريهم فى انحدار وانحسار ، هما : « شبنجلر » و « توينبى » .

وهنا نقول : **لا بد من عودة إلى الدين . . إلى الإسلام** .

قامت الحضارة العربية والإسلامية بالإسلام . وتدهورت بالمسلمين عربًا **وعجمًا دون الإسلام . فالإسلام قيم ونظم وتشريع وإنسانيات .**

والمسلمون ، خاصة الحكام من أمثال بنى بويه وبنى الأحمر ، كانوا لا يرقون إلى مستوى الإسلام فبقى الإسلام دينًا وانحدر دولة وسياسة ، بل صناعة وفنًا .

ومن شرف المسلمين أن الفساد لم يلحق الإسلام قط ، بل انحصر فى فئة قليلة استأثرت بالحكم والنفوذ والمال ، وهى رزايا لا مزايا إن لم يدعمها الخلق حتى لا تسقط ، ويعززها الضمير فلا تجور .

والتاريخ الإسلامى يسجل أن الصراع انحصر فى المتنافسين على الحكم ، أما الأمة الإسلامية فقد استعزت بالسلطة الباقية : الدين والعلم فالتفت حول العلماء والفقهاء ، وسمت رجل الدين الذى تتمثل فيه خصائصها هى ، **سلطان العارفين** فى رد هادف على سلطان الحكم .

ونظرة مقارنة بين الحضارات الإسلامية والحضارات الأخرى التى سبقتها . أو التى تلتها ، نجد أن المسيحية ولدت فى بيت لحم بفلسطين وكانت تابعة للرومان . وحارب الرومان المسيحية ، ودافعت مصر عن المسيحية ثم قامت بنشرها حتى وصلت بها شمالا إلا ايرلندا ، وجنوبًا إلى الحبشة ، ومكنت لها بالعلم حين كتبت أشهر ما فى تراثها الفكرى والدينى على يد يوخوميوس واثناسيوس من الآباء المصريين .

إذن نشر المسيحية والتمكين لها جاء من خارجها . ولما اعتنقها الرومان فى النهاية ، استقطبتها حضارتهم التى قامت على الغزو والسيطرة فى طابعها العام . والتى ورثت من الناحية الفكرية الحضارة اليونانية ، التى تتلمذت بدورها على الحضارة المصرية القديمة .

المسيح أو عيسى بن مريم عليه السلام ، لم يكن حوله إلا تلاميذه وحواريوه . . . **هنا خاصية الخاصة ، لا عمومية « الكافة »** .

وإذا رجعنا قليلاً إلى الوراء ، نجد اليهود المكابيين يعارضون إقبال الناس على اليهودية . . وهنا بدأ الصراع بين اليهود أنفسهم . فلما بطش « بختنصر » بهم

ونفى جماعات منهم إلى أرض بابل ، وهو ما يعرف بالأكسودوس أو الخروج ، انكسرت شوكتهم ، وبدأ الشتات أو « الدياسبورا » الذى تكرر فى عهد الرومان ، **فلم ينصفهم إلا الإسلام** الذى أفسح لهم بتسامحه ، مكانًا فى دولته ، خاصة فى الأندلس .

أما الحضارة الغربية أى الحضارة الحديثة فهى تنسب أصولها – باستثناء المنصفين منهم – إلى الحضارة الإغريقية أى **الهلينية** ، وهى كما ذكرت قامت على الحضارة المصرية . . كما أن الحضارة الإسلامية ، قامت بترجمة الحضارة الإغريقية . فوفرت على أوربا ألف عالم على الأقل . . ولهذا بعد تفصيل عريض . .

ولكن الإسلام خط سيره مختلف .

وحد الإسلام القبائل فى أمة . . .

ثم مهد بهجرته إلى المدينة لنظام **مجتمع ودولة** تبلورت فى خلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما . .

ثم صارت هذه الخلافة **ملكًا** فى عهد بنى أمية . .

ثم صارت **إمبراطورية** فى عهد عبد الملك بن مروان . .

ثم صارت للإمبراطورية **حضارة إسلامية** فى عهد العباسيين .

حضارة إسلامية قام بها المسلمون على اختلاف جنسياتهم تصديقًا لقول الرسول الكريم ﷺ : « بعثت إلى الناس كافة » فى عملية مؤاخاة بين البشر .

فلم تعرف دولة الإسلام النعرة الجنسية .

لم يعرف الإسلام عصبية الجنس أو حتى امتياز السلطة . . أتكلم عن المثال لا الغريزة ، أو من إسلامه قشرة خارجية كالحجاج .

يقول الصديق أبو بكر رضى الله عنه : « أيها الناس إنى وليت عليكم ولست بخيركم . أطيعونى ما أطعت الله فيكم فإن عصيت الله فلا طاعة لى عليكم » . .

ويقول عمر رضى الله عنه وأرضاه « أيها الناس من رأى فىَّ اعوجاجًا فليقومه » فيرد عليه رجل من آخر المسجد يقول : « والله يا عمر لو رأينا فيك اعوجاجًا لقومناه بسيوفنا » .

وهنا تظهر عظمة عمر الكبير بنفسه ، المؤمن بربه ، العارف بدينه : « الحمد لله الذى جعل فى أمة الإسلام من إذا رأى فى عمر اعوجاجًا قومه بسيفه » .

هذا حين شاع التعصب للجنس إلى حد النعرة فى الأمم القديمة والوسطى والحديثة أيضًا . . وما قول هتلر بتفوق الجنس الآرى ببعيد . وما قول اليهود بشعب الله المختار وسائر الناس ، كما يبدو ، الشعب المحتار . بخافٍ . .

اليونان اعتبروا أنفسهم الأعلى والآخرون برابرة ، وقسموا الشعب فى بلادهم إلى سادة وعبيد . واحتقروا العمل اليدوى واستنكفوا منه ، واستمرأوا الانغماس فى الفراغ بلهوه وعبثه ، فجنت عليهم البطالة . وفى النهاية قضى عليهم المقدونيون الذين كانوا يحتقرونهم بقيادة الإسكندر . .

والرومان فى قوانينهم ، نصوا على أفضلية الرومانى حتى كان التجنس بالجنسية الرومانية وسيلة الوصول .

والصينيون يقولون من خلال سور الصين المشهور : إنهم فى غنى عن سواهم أى أنهم الأعلون .

والهنود البراهمة يدلون بأنفسهم . .

وحين لم يعتد ابن خلدون فى مقدمته ، والمسعودى فى مروجه الذهبية باللون الأبيض ، جعلته أوربا ، أمارة تفوق ومظهر امتياز حتى بلغ الازدهاء بـ « هيوستون ستيوارت تشمبرلين Heuston Stewart Chamberlain » حدًّا ألف معه كتابه « أسس القرن التاسع عشر Foundations of the Nineteenth عزا فيه كل معطيات الإنسان المتحضر إلى الجنس الآرى أوالهندى الجرمانى . وهنا اعتبر المؤلف ، **المسيح** نفسه آريًّا .

وحين دهمت هجرة الأوربيين أمريكا ، نادى مفكروها بقصر الهجرة على السكسونيين والجرمان وأهل شمال أوربا ، امتدادًا لعقيدة أو عقدة تفوق الجنس الآرى . وتزعم هذه الحركة ما ديسون جرانت ولوثروب ستودارد .

ولم يكسر شوكة هذا الادعاء والازدهاء إلا العالم المؤرخ توينبى بعد قرون . .

ويشهد الإسلام المعركة مستقرًا وقريرًا ، فقد حسمها منذ البداية حسمًا ، آضت إليه فى النهاية ، أوربا صاحبة نظرية الاستعلاء . .

ويرن فى سمع الزمن والناس ، رأى الإسلام ورؤيته وآيته : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

والتعارف فيه التقاء ، وقرب ، ووداد ، وتفهم ، وتفاهم ، ليس منه الازدراء ، أو الاستعلاء .

إن العصر الحديث أو الحضارة الغربية ، ولا أنكر عطاءها الوفير للعلوم

والاختراعات وتيسير الوسائل وترفيه الحياة اليومية للقادرين على اقتناء مستحدثاتها . . . **الحضارة الغربية لم تحقق للإنسان « المساواة » ذلك المبدأ الذى أعلاه الإسلام فقالت الدول العظمى بـ (الفيتو)** بدلاً من أن تكون المثل الأعلى للحضارة الغربية ، التى تزهو بها . . وكم أشقى الفيتو أممًا وشعوبًا . . وكم أملى للظالم والمعتدى فى حماية دول الفيتو . .

ولكن مساواة الإسلام ، الإنسانية المطلقة فى الحقوق والواجبات ، حتى ولو تفاوتت المواهب والقدرات ، أوج **لم ترق إليه بعد حضارة العصر الحديث** .

ولقد دأب الاستعمار الغربى على تقسيم الناس إلى أجناس وألوان حتى ذهب بعض دعاته ومنهم رجال الدين الذين يدينون بالمسيحية السمحة المتواضعة ، إلى أن الجنس الأسود ليس من البشر ! ولهذا يجوز صيده وبيعه والمتاجرة فيه ! وقال آخرون فى تعالم متغطرس إن الإنسان الأسود روحه سوداء أو ليس له روح على الإطلاق !

وأباد الاستعمار الغربى السود فى جنوب أفريقية . .

هنا نبدو سماحة الإسلام . إن الله فى رؤية الإسلام ، وهى حق ، لا ينظر إلى صور الناس وألوانهم ، ولكنه ينظر إلى القلوب التى فى الصدور . أكرمهم عنده أتقاهم . .

وحين علت موجة العرب الذين نزل الإسلام فى جزيرتهم — كان مبدأ الإسلام من خلال كلمة الرسول الكريم ﷺ : « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

كان من بين صحابة رسول الله المقربين : بلال الحبشى ، وسلمان الفارسى ، وأبو رافع ، القبطى المصرى ، وخباب بن الأرت العراق ، وصهيب الرومى

(البيزنطى) . . وأقربهم جميعًا إليه . ، مارية القبطية أم ابنه إبراهيم .

حتى العاصمة ، لم يتمسك الإسلام فى مده العريض بمكة أو المدينة ، بل كانت العاصمة دمشق ثم بغداد ثم القاهرة ثم القسطنطينية . . كما أشرت .

ومن سوء الحظ ، أن فرض على الإنسان الغربى عمدًا ، الجهل بكل ما يتصل بالإسلام . . فلما أراد الغرب استعمار الشرق واغتنام خيراته التى سمع عنها من التجار فى القرون الوسطى ، يضاف إلى هذا الصراع بين الأمراء والحكام ورغبة كل منافس فى التخلص من منافسه ، غلفت هذه الأسباب الحقيقية باسم الصليب وباسم المسيحية التى حنا رسولها على الخاطئة ، ورد عنها العنف ، إن المسيحية بكل زهدها وسلاميتها ، لم تمنع أوربا لا أقول من حرب الشرق والمسلمين ، بل من حرب بعضها البعض حربًا امتدت ثلاثين عامًا مرة ، ومائة عام مرة أخرى . . وعرفت أوربا حمامات الدم . .

لقد قامت بين حكام المسلمين صراعات على « الكرسى » وقامت بين الحكومات الإسلامية حروب خاضتها شعوبها ، ولكن حربًا منها لم تمتد ثلاثين عامًا بله المائة . . **فقد كانت قيم الإسلام لها من السلطان على نفوس أهله ما تفىء معه إلى الرشد .**

الإسلام فى القرن الخامس عشر

ماذا بعد الماضى ؟

يهل القرن الخامس عشر الهجرى ، وينهل معه دافق من القول عن عظمة الإسلام وإنجازاته ومناقبه . وهذا حق . . . ولكن أحق منه بالعرض والتفصيل حال المسلمين اليوم ، وما يجب أن يكونوا عليه فى المستقبل .

ما هو تصورنا لمستقبل الإسلام أو ما نتمنى له أن يكون ؟
لى رؤية أطرحها . .
الإسلام فى القرن الخامس عشر ، أمامه أن :
يخرج من الفردية إلى الجماعية . وتفسير هذا :

إن دول الإسلام بعضها فاحش الثراء المادى ، والبعض الآخر متخلف فقير عاجز . . وهنا ، يتسع معنى الزكاة من الصدقة أو حتى التكافل الاجتماعى فى حدود البيئة الخاصة إلى تكافل أكثر شمولاً . . . فينعقد مؤتمر علمى إسلامى جامع من مختلف التخصصات يشخص الداء من كل ناحية ويضع الحلول . وهنا يتحتم على الأموال الإسلامية الزائدة أن تستثمر فى الوطن الإسلامى بدلا من إيداعها فى البنوك الأجنبية وبعض أصحابها أعداء الإسلام فى الظاهر أو الباطن فترتد إلى صدوره سلاحًا فتاكًا .

الأموال الإسلامية توظف فى البلاد النامية مصانع ومدارس وجامعات ومستشفيات وترميمًا للآثار الإسلامية .

لقد تعمدت ألا أذكر المساجد ، وأنا أعنى هذا ، لأن ما عندنا منها يكفى . وخير من بناء مسجد جديد ، ترميم وإعادة مسجد أثرى فنى إلى ما كان عليه ، فإنه بما يحمل من قيمة فنية ، إنما يترجم معنى حضاريًّا يشرف به المسلمون . .

إن خير تفسير للإسلام ، هو متحف الفن الإسلامى . .

آن للقرن الخامس عشر الهجرى أن يدرك أن أكبر إنجاز للإسلام ، إنما هو ، **الآثار الإسلامية** على امتداد العالم الإسلامى بعامة ، ومصر بخاصة . وهنا يتحتم **تسجيل هذه الآثار تسجيلاً علميًّا** . . يتحتم صيانتها فنيًّا وماديًّا وإعادتها إلى حالتها الأولى المشرفة . .

والتوظيف الذى أقول به ، يجب أن يجرى على سياسة ثابتة تتولاها هيئة دائمة من علماء متخصصين من كافة أنحاء الوطن الإسلامى . . يختارون لهم مقرًّا فى أحد أوطانه لا يخضع لأهواء الساسة فتمضى الأمور رقيقة فى ظل الاستقبالات والقبلات ، وتتعثر فى ظل التلاحى بدلاً من التآخى الواجب والمأمول . .

فى القرن الخامس عشر نريد شخصية إسلامية تتمثل فى **اقتصاد إسلامى** ، **ومجتمع إسلامى وفكر إسلامى** .

رءوس موضوعات للدراسة المتعمقة التى تجعل منها حقيقة واقعة ونافعة .

فى القرن الخامس عشر نريد **استقلال الأزهر** وهو أكبر جامعة إسلامية ، بحيث لا يتأثر بما بين الحكومات الإسلامية . وهنا يكون **اختيار شيخ الأزهر** ، **بالانتخاب لا بالتعيين** . . . ليعود هذا المنصب الجليل كما بدأ ، رمزًا إسلاميًّا

جامعًا .. ليكون شيخ الإسلام « سلطان العارفين » . وهنا يعبر عن رأى الأمة ممثلاً للسلطة الروحية متمثلاً إرادتها الحقة فى الرفض والقبول .

الإسلام فى الأربعة عشر قرنًا حفل بالرجال العظماء أصحاب المواقف والهمة .. يقول عبد الكريم الجيلى فى كتاب « الإنسان الكامل » : « إن الهمة تأتى بيقين معاش . وإنها إذا قصدت شيئًا ثم استقامت على ساقها نالته حسب وفاقها » .

ويقول ويليام جيمس فى كتابه Talks to Teachers أو حديثه للمعلمين : « إن زجاجة الهمة قبل امتلائها يكسرها كل حصاة مختلفة ، ويريق ما بها كل هيئة منافية .. وأما إذا امتلأت وأخذت حدها فلا تحركها الرياح العواصف ولا تكسرها المخاوف » .

هذا الطراز من الرجال أصحاب الهمة نريده فى القرن الخامس عشر .

نريد رجالاً كابن تيمية الذى أذاقوه ألوان العذاب فلم يرجع عن رأى اعتقد صوابه .. لم يحن رأسًا بل قال واثقًا من نفسه ، ساخرًا منهم : « ماذا يمكن أن يصنع أعدائى بى ؟! أنا جنتى وبستانى فى صدرى ... أينما رحت فهى معى ...

إن حبسونى فحبسى خلوة .

وإن أخرجونى من بلدى فخروجى سياحة .

وإن قتلونى فقتلى شهادة فى سبيل الله » .

قوله مؤمن فى نفسه براح رواح .

الإسلام والعلم فى القرن الخامس عشر : تحدثنا عن ماضى الإسلام فى العلم والآن نتحدث عن مستقبله .

فى القرن الخامس عشر الإسلامى ، أتمنى أن يقترن الإسلام فى ذهن المسلمين بالعلم كعصور حضارته .. إن المدارس الدينية فى الإسلام « الشافعية – المالكية – الحنفية » كانت تدرس مع علوم الدين : الفلك والهندسة والموسيقى . وهى رؤية فى العلاقات المتجانسة بين العلم والدين والفن ويسمونها « العلاقات الفاضلة » .

أكرم به من اسم .

ولأمر ما ، قرن الإسلام الصلاة ، **بالتفكر** وهو باب العلم . (**الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض . ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك**) .

تفكر هو سراج القلب ، وتأمل بمعنى القدرة على الاستشفاف . علاقة بين السبب والنتيجة هى دعوة إلى العلم يدعو إليها الدين .

وحين يدعو الإسلام إلى المشاهدة والتأمل والملاحظة ؛ ليصل الإنسان إلى معلومة ، ويصل معها إلى إدراك التناسق والجمال فى الخلق والتكوين .. هنا **احترام للعقل والإرادة وتحقيق الذات** فى تواد مع الكون وتواصل ونفاذ . . .

لا يعرف الإسلام الشعارات ، لأنها ليست أسلوبًا علميًّا أو إنسانيًّا ، إنما هو تسلط وفرض واعتداء « مكتوب » .. على تفكير الإنسان . يقول سارتر متسائلاً : « أيصبح استعباد الإنسان لتحريره على نحو أفضل ؟ قد يقال إن الوسيلة موقوتة . كلا . . . لن تكون كذلك إذا ساعدت على خلق مجموعة من الناس مكذوبة كاذبة » .

(**الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض** . . .) .

هذه الآية تتوج القبلة فى المسجد الإسلامى . والقبلة تجمع قلوب الناس على هدف واحد فى عملية استضاءة روح فى المسجد واستضاءة سلوك خارجه . وهنا المعنى الحقيقى للمسجد . إنه أكبر كثيرًا من مكان للصلاة . إنه بمعناه ومبناه ذى الخطوط الرأسية ، صحوة إلى أعلى تبارك أشواق الصعود وأحلام التسامى التى تجسدها المئذنة وكأنه يسبح باسم ربه الأعلى لا شريك له . .

ومن التسبيح ، **التسامى** فى القول والعمل والعلم . .

والقول فى الإسلام بطلب العلم من المهد إلى اللحد ، إنما قصد به التصعيد فيه كقمة الجبل تصل إليها مرقبًا بعد مرقب . .

العلم فى الإسلام استطلاع دقائق الخلق بتوفيق من الخالق وتأليف المخلوقات . . . يؤيد هذا شرح الغزالى فى « مشكاة الأنوار » للآية : **(الله نور السموا والأرض)** ، أى به نرى السموات والأرض . فى عملية ربط السبب والمسبب .

إن اليونان عندما قسمت المجتمع إلى سادة وعبيد ، السادة يتناقشون ويتسامرون ، والعبيد يعملون ، خلقت بهذا الفصل والانفصال ، مأساة الحرفيين ، والنظرة المتواضعة إليهم . .

انفصل عند اليونان ، الفكر عن العمل .

واليوم بفضل الآلة ، سلبنا الإنسان ، الفكر والعمل معًا . . وهذه مأساة العصر الحديث الذى اعتد واعتز بالعلم وحده أى الذهن وحده . وقبض الثمن : الثروة والقوة ولكنه خسر نفسه ، وفقد « الأسلوب » . والأسلوب هو النفس .

إن أوربا تمر اليوم بمشكلة « غياب الحل » أى إنسانية الرؤية . .

يقول عالم الذرة الألمانى الأصل « بورن » وحامل جائزة نوبل : « كم كنت

أتمنى أن يكون طلبتى أقل ذكاء أو أكثر حكمة ! مما لا شك فيه ، إنه خطأ من جانبى أننى علمتهم فقط مناهج للبحث ولا شيء سوى ذلك ، واليوم نتيجة لذلك فإن الإنسانية تجد نفسها فى حالة تكاد تكون ميئوسًا منها » .

العصر الحديث عندما عزل العمل اليدوى عن العمل الفكرى ، انسخط العمل وتجبر الذهن وهنا مأساة العصر الحاضر . . فالذهن فى ناحية بلا قلب ، واليد فى ناحية بلا فكر . . .بلا روح . . وساءت النتيجتان .

وهنا نفهم قول الدز هكسلى : « من جرائم العصر أنه قتل الحب أى قتل الحرفة . . . فالحرفة ليست عمل اليد وحدها ، بل عمل الكيان كله . . . وهنا يكون العمل الحرفى كغيره من الأعمال الكريمة على أصحابها ، باب العلم ومعراج النفس .

إذا استطاعت **اليد** أن تترجم عن نفس واعية حساسة مثقفة متدينة ، غدت قوة خالقة وطاقة حيوية ، هنا تكون الحرفة « حرفنة » من دقة ورقة . .

وابن البلد يسمى الصانع الماهر الحساس « حريف » وهنا يقترب من محراب الفن بقدر ما فيه من ذاتية خلاقة . فن المعروف أن العلم موضوعى ، والفن ذاتى .

لونية اللون . . كتلية الكتلة . . حجمية الحجم . . . عطرية الزهرة . . .جهاز الإنسان هو الذى يصنع هذا كله . . إذا انفعل به وجدانيًّا فهو فنان . . . وإذا انفعل به يدويًّا فهو صانع . . . وإذا انفعل به ذهنيًّا فهو عالم .

وإذا كان الهدف من العلم هو **إيجاد القانون** ، فهدف الصنعة تيسير الوسيلة ، وهدف الفن تحقيق القيمة ، والقيمة معنى جامع لأشتات العلم والعمل والفن لم يغب عن الإسلام .

لقد قام العلم الحديث بدافع من حب السيطرة لا حب الحب .. لقد نشأ مع تطلع الغرب إلى استعمار الشرق . لهذا أثمر **القوة** ولم يثمر **الرحمة** ... اهتم بالسرعة ، ولم يهتم **بالكينونة** . زهوه كله أن يعبر الإنسان البحر أو يصعد إلى السماء فى زمن قصير ، ولكنه لم يهتم أن **يكون** ..

ولأمر ما ، قال الغزالى بالعلوم القلبية .

فى القرآن الكريم الآية : (**كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئًا ..**) . الكهف آية ٣٣ أى نضجها تم تمامه لم يعجل بضم الياء .

وظلم النفس كما يقول « يونج » هو « عدم استشعار اللاشعور فيها » فيصبح الإنسان مختزلاً أى مختصر إنسان .

لقد تصور برتراندرسل فى كتابه « الأسلوب العلمى » : أن الناس لو طبقوا العلم الحديث لحدثت كارثة .

لقد كان برتراندرسل فى مقولته هذه أقرب إلى الإيمان . البعض يتهم الرجل بالإلحاد . إن ما رفضه هو الإيمان المسطح .

لا أنكر أن حضارة الغرب أضافت إلى تراث الإنسان : « **التنظيم** » الذى يتطلبه العلم الحديث بالفهرسة والتصنيف ، حتى لا يضيع وقت فى جهد مكرر ..

كما أضافت « **التطبيق** » ... تطبيق العلم وهو ما نسميه « تكنولوجيا » ، أى تطبيق العلم بالتصنيع ..

ولسنا ضد التصنيع كما قلت .. إننا مع الآلة حين توفر جهود الإنسان فتطبع الكتاب بدلاً من أن ينسخه ... ويرحم الموتور ، الثور ، أما أن تسيطر الآلة على الحياة فتقصى الإنسان أو تحرمه الخلق والابتكار ، فلا .

وهنا تتجلى إنسانية الإسلام فى احترامه حرية الإنسان ودعوته إلى التفكير . . وبالتالى التصرف باختيار فى كل ما يتعلق به حتى العقيدة . إذ قال : (**وهديناه النجدين**) . . . (**إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء**)[1] .

(**ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء**)[2] .

والمسلم الحقيقى يجمع كيانه كالهرم ، من خبرات السنين ليصعد إلى قمة . . إلى ذروة من عمل أو علم ، بوحى دينه الذى يطب للإنسان جسمه وروحه على السواء . .

إن الفن الإسلامى أخذ القيم التصويرية والقيم النحتية ، والقيم المعمارية من مواطن الحضارات القديمة ، ثم مزج هذا كله بفكر الإسلام وروحه . وعندما ارتوى الإحساس بروح الإسلام ، تهيأ وانبثق عنه تركيبة جديدة يمتد فيها الخط من طرفيه من تشبعه بوصف الله فى القرآن – أنه الأول والآخر . تركيبة تسبى وتسكب فى كيان المشاهد ، السلام الحقيقى الذى منه اسم الإسلام ومعناه .

وهناك اعتبار « **المساواة** » التى اعتنقها الإسلام فى صدق . هذه المساواة الإسلامية التى قربت بين الناس فى مختلف أرجاء مملكة الإسلام وقاربت بين فنونهم ولو أن الفن ابن بيئته الخاصة ، هذا من شأنه أن يعين على التأثر والتأثير فى الأفكار والصناعات والفنون .

إنها روح الإسلام التى تغذى الفن الإسلامى حتى أن أوربا عندما أرادت أن تغذى وعى الصانع الأوربى ، أقامت النمسا ثلاث معارض للفن الإسلامى ، على امتداد عشر سنوات :

---

(١) سورة القصص – الآية : ٥٦ .

(٢) سورة البقرة – الآية : ٢٧٢ .

« ١٨٨٤ للخزف ، ١٨٩١ للسجاد ، ١٨٩٤ للمعادن » .

ومع اعتزازى بهذا كله وإعزازى له ، فإنى لا أكتنى به ، ولكنى **أطالب أن يكون للإسلام حلم ثقافى** فى القرن الخامس عشر .. أى مستقبل .

القرن الخامس عشر والتراث الإسلامى :

حين نطلب أن يقترن القرن الخامس عشر بدراسة التراث الإسلامى ، فإنما نعنى دراسة مضيئة واسعة الأفق تعمد إلى تنقيته وتخليصه من الحشو والفضول والتزايدات والتهويمات والتهويلات والشطحات والتطويحات ... **تنقيته من الإسرائيليات التى يزخر بها** .

ثم دراسة ما يستحق من هذا التراث ، مما لا يزال مخطوطًا وفى تجليته وتيسيره نفع كبير . إن إكرام التراث تفهمه وذكره كما يقول الإمام الغزالى ، لا تجميعه وتشوينه . إكرام التراث استلهامه فى إضافة تثريه بعد أن تستمليه فى انتماء إليه . ووفاء له .

وهذا يحتاج إلى خطة مدروسة ثابتة متخصصة تنفق عليها ميزانية ثابتة المنابع تسهم فيها بالقدر الأكبر الدول الغنية من وطن الإسلام ، وتسهم **فيها بالجهد الأوفى** البلاد المتحضرة من وطن الإسلام ذات السالفة العلمية والحضارية فى البحث والاستقصاء والتعمق والنفاذ والانتخاب الذكى .

إن روح الثقافة الإسلامية ، الاجتهاد لا العنعنة . الاجتهاد يعطى التراث كرامته بتجديده وتحليته وتنميته . أما عن ... عن ... فحسب ، تجميد .

كان برتراندرسل يقول : « أرسطو كارثة على البشرية ، لأن الناس ظلوا طويلاً بعده يكذبون أنفسهم ويصدقون أرسطو » . ونحن لا نريد أن نقبل شيئًا

على علاته ، بل نريد أن نبرئه من علاته ، فى إحساس بالمسئولية إزاء الرفض والقبول .

إن المسئولية هى التى جعلت « نيوتن » . بعد أن وضع قوانينه ، يراجعها مدة عشرين عامًا .

وفى القرن الخامس عشر الإسلامى ، نريد **تمثل التراث المعنوى للإسلام** ، وهو شيء غير إحياء التراث ، فإن مجهود العلماء على اختلاف جنسياتهم أكبر من مجهود أصحاب التراث أنفسهم .

التحرير المعنوى مع استيعاب التراث ، يعين على إعادة بناء الشخصية الإسلامية ، وحمل أمانة تاريخ الإسلام ، والمضى بماضيه خطوة إلى الأمام .

التحرير المعنوى للمسلم جهاد يستضيء بوحى قيم الإسلام فى عملية نزوع إلى المثل الأعلى كما رسمه الإسلام . .

كان « جيته » يقول : « أنت لا ترث ميراثك ، حقًّا ، إلا إذا كسبته من جديد » .

لا نريد أن نمشى ووجوهنا إلى الخلف ، ولكن نمشى إلى الأمام واعين بالخلفية التاريخية . . إن التقدم ليس مظهرًا خارجيًّا كأبله قصة ألف ليلة وليلة ، الذى ألبسته زوجته ملابس تركية ، فى نومه ، فلما استيقظ سافر من توه ، إلى تركيا . .

إن الكساء الخارجى عارية لا يصنع شخصية ، ولا يكسب جنسية ، إلا إذا كان نابعًا منها منسوجًا من خيوطها .

نريد أن يكون المسلمون فى القرن الخامس عشر ، قادرين على العطاء **بدون**

تبعية وبلا رجعية .. وبلا انعزال. بلا نزعة عدائية لشرق أو غرب ... بلا استعلاء أو استخذاء.

بلا تعصب ، فإن من ذكاء الإسلام ، أن اعترف بالأديان السماوية **قبله وهو ما لم يفعله غيره كما أشرت**.

لقد درس الدز هكسلى فلسفات الهنود وبوذا ومصر ويونان والمسيحية والإسلام ، وخرج من هذا كله بأن الكل يلتقون عند وحدة الوجود كما يقول فى كتابه. Perennial Philosophy

إن الضلال هو عدم وجود معنى الوجود فى النفس ..

إن التقوى الحقيقية هى اتقاء نزعات الشر ، ونزغات الشيطان . والشيطان هو الجزء الثائر المحروم المنبوذ فى النفس . والإنسان المتكامل نفسيًّا هو الذى اصطلح فى داخله الوعى واللاوعى ، والتكامل هو شوق الإنسان ، وإن لم يدر ، إلى ذلك اللقاء الداخلى .

خير الناس فى الإسلام ، أنفعهم للناس . لم يعرف الإسلام « الفيتو » لأن الأكرم فيه ، الأتقى . أما الفيتو فهو شريعة الغاب لأنه حق **للأقوى** ..

فى القرن الخامس عشر الهجرى ، **نريد وضع منهج ثابت لتعليم قيم الإسلام يدرس فى المدارس فى جميع أنحاء الوطن الإسلامى** ؛ لأن توحيد النشأة فى الصغر يؤدى إلى التقارب والتعاطف فى الكبر ، فضلاً عما فى الدراسة المتفتحة من خير الإسلام والمسلمين .

نريد فى القرن الخامس عشر **توسيع الوعى الإسلامى** . والوعى رحلة طويلة لا تنتهى .

إن القرآن من الغنى القيمى والفنى والتعبيرى ، بحيث كثرت التفاسير حوله

وما زال فيه الكثير للرؤية المستقبلية . ومقياس العظمة فى العمل ، احتياج الإنسان إلى تجديد رؤيته له . . .

الإسلام ميزته أنه أسلوب حياة . . نمط سلوك . . . من أبسط الأشياء إلى أعلى الأشياء . . .

فى القرن الخامس عشر ، بعد أن ترددت فى مخاطبة البشر عبارات « غفرانك – رضوانك » ومُست الآيات ، نريد أن نتعمق معنى وصف الله فى القرآن (**ليس كمثله شىء**) وهى دعوة من لون آخر ، إلى التوحيد ، أى كما يقول الغزالى فى « المقصد الأسنى » : المنزه عن كل وصف يدركه حس أو يتصوره خيال ، أو يسبق إليه وهم ، أو يختلج به ضمير ، أو يقتضيه تفكير . .

الله فى الإسلام (**ليس كمثله شىء**) .

والعالم على بن محمد الجرجانى فى « تعريفاته » ، يعرف التقديس فى اللغة بالتطهير . والتطهير أخص من التسبيح . إنه تنزيه « الحق » حتى عن الكمالات التى يوصف بها غيره صدقًا أو كذبًا ، أو خبلاً .

عندما لون الجرجانى ، الموت ، أى أعطاه ألوانًا فالموت الأحمر هو الانتصار على النفس ، والموت الأخضر هو الاكتفاء من الملابس بأقل القليل إشارة إلى غنى الذات بنفسها . . .إلخ جعل الموت « الأسود » الانتصار على النفاق . وهنا تكون حرب الأصنام الآدمية موتًا يحيا به الشريف . .

حين كتب إخوان الصفا رسائلهم الإحدى والخمسين ، غطوها برسالة كبيرة تسمى الرسالة الجامعة وهى الرسالة الثانية والخمسون . . إنما أراد إخوان الصفا محاولة إعادة البناء النفسى للإنسان . . وكان هدفهم البعيد الإعداد لبؤرة عقلية

تشمل العالم الإسلامى . وبعيدًا عن تأييدهم أو مخالفتهم فإن فتح الباب للرأى والاجتهاد فضل للإسلام وفضيلة . .

دور رجل الدين اليوم :

الإنسان موقف وسلوك .

ورجل الدين أكثر الناس حساسية موقف بما يستقطب فى ذاته من خصائص أمته ومطالبها وحاجاتها النفسية . إنه رأيها فى الرفض والقبول . وهو بهذا حين يتمثله ويمثله ، **السلطة الروحية** . وحين ترفع الشعوب الإسلامية ، إمامة إلى هذه القمة ، تغدو « **قيمة** » لا تدانيها سلطة أخرى .

هكذا ، الإسلام **قيمة** لا وظيفة .

وفرق كبير بين القيمة والوظيفة .

فرق كبير وخطير بين الحقيقة والخرافة .

الخرافة هى التمسح بالأشياء وهى ليست من الدين .

والحقيقة هى التمسك بالجوهر والباقى . . . وهو الدين .

وهنا يصبح الدين لصاحبه قوة غير محدودة . . . معراجًا للنفس بجدد الكيان ، ويشد البنيان ، ويضاعف السعى ، ويرفع ذاتية الإنسان إلى ذروة أرادها له الله حين كرمه بحمل الأمانة ، وحين زوده بالعقل **فى دعوة إلى التفكير** ، **وإرادة الاختيار** . وهنا يكون رجل الدين إمامة وعلامة .

إن صاحب العزة ليس « **البيك** » ، فالبكوية وسواها إنعام إنسان على إنسان ، ولكن صاحب العزة هو المؤمن الحقيقى ، أى المؤمن بالله وحده لا شريك له ، والتوحيد عزة (**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**) .

إن الصناعة الثقيلة هى صناعة الإنسان.

والفهم الصحيح للدين هو الذى يصنع الإنسان.

عندما يصلح الإحساس بالدين، ينشأ فى داخل الإنسان ميزان دقيق هو الضمير. ويعمر القلب شعور بالارتفاع فوق الأحداث من تعلقه بالله..

والتعلق بالله يكسب عمار القلب فتحل فى الإنسان قوة خارقة. ومن هنا صمود المؤمنين على التعذيب. ومن هنا ندرك العظمة الحقيقية فى اللقب: العارف بالله.

وما أكثر هؤلاء العارفين بالله فى تاريخ الإسلام والمسلمين.

كان الليث إمامًا.. وكان موقفًا..

كان له فى الدين رأى، وله فى المجتمع سمت خاص، رفض الإمام الليث الحكم.. وهو رفض للتبعية ولمن؟ لخليفة المسلمين. ولكنه حكم بأسلوبه هو، إذ جعل له أربعة مجالس: المجلس الأول يراجع فيه أعمال الولاة والقضاة.. ويقيسها على الكتاب والحديث والسنة، فإذا وافقتها اعتمدها، فإن إقراره الشخصى بمثابة اعتماد.. ورفضه لها إبطال وبطلان، أليس فى استطاعته عزل الوالى والقاضى؟

والمجلس الثانى خص به أصحاب الحديث..

والمجلس الثالث اختص به الناس يعرضون مسائلهم..

والمجلس الرابع لأصحاب الحوائج.. وكم فرج الإمام الليث كربات وقضى حاجات... فحياته للإفتاء والإيواء حتى نسجت فى هذا قصص أشبه بالأساطير..

وفى موكب العلماء الأجلاء بحق ، بما لهم من رأى **وشخصية** ، **الإمام البويطى** الذى أكرهه المأمون على القول بخلق القرآن فلم يذعن ، ويحمل فى غل الحديد إلى بغداد فلم يقر ، ويطرح فى السجن مقيدًا إلى أنصاف ساقيه مغلولة **يده إلى عنقه ولكنه لا يتطامن !** ويشفق مريدوه عليه فيأبى قائلا : « والله لأصدقنه ولأموتن فى حديدى هذا حتى يأتى قوم يعلمون أنه قد مات فى هذا الشأن قوم فى حديدهم » .

لم يمت فى أعداد الرجال أعلام الإنسانية ، البويطى ، العالم الإمام ، فإن القيم الرفيعة لا تموت .

زار كرومر ، الشيخ محمد الإنبابى شيخ الأزهر فى عنفوان الإمبراطورية البريطانية . . فظل فى مجلسه لم يأخذه قدومه . فلما خاطبه فى هذا كرومر وكان يملك الحل والعقد ، قال فى هدوء الواثق بنفسه . المؤمن بربه ووطنه :

– **دينى ينهانى عن تعظيمك بوصفك المحتل لبلادى** .. فزاد احترام كرومر له . وقيل إنه كتب الحادث فى تقرير أرسله لحكومته .

نفوس سكنتها السكينة فاستعزت بربها واعتدت بنفسها ، لأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين . لقد آمنت بالحق .

ليس من مهمة رجل الدين الإقبال على الأبواب أو استقبال الأقطاب . لأنه هو – المفروض – قطب أمة . ورجل عقيدة . وعلم دين . وعالم دين . . وهو بهذا كله ، إذا رعاه ، أقرب السلطات إلى الشعب . وأكرمها عنده ، وأبقاها فى ضميره ووجدانه . إن السلطنة للمعرفة فى ميزان القيم الباقية . . طريق كبير سارت فوقه خطى مؤمنه ثابتة : ذو النون – الإمام الليث – الشيخ البويطى – السبكى – الشعرانى – ابن تيمية – سلطان العلماء بن عبد السلام

أبو حنيفة – الشيخ جمال الدين الأفغانى – الشيخ محمد عبده – الشيخ الشرقاوى – الشيخ المراغى . .

دور المسجد اليوم :

ليس المسجد خطبة الجمعة .

إن الشعائر واجبة ومحتومة الأداء . .

ولكن الإسلام يبقى أكبر من هذا بكثير .

إن اليهودية أغلقها أصحابها على أنفسهم ، عامدين .

والمسيحية فى زهدها وخلوصها ، دين ، فحسب .

ولكن الإسلام وحده ، **عقيدة وإمامة** ، **دين ورسالة** ، **دنيا وآخرة** ، **شعائر وشرائع** .

ومن هنا كان المسجد فى الإسلام **قبلة صلاة** ، **ومدرسة علم** ، **ومؤتمر أمة** ، **ودار جامعة** . . . رافعة وجدانية ترفع النفس من حضيض التبعية إلى شرف القمة ، وتنتع الإنسان من قماءة الحشدية إلى عز الفرد وتفرد الشخصية . لقد اصطنعت الحضارات المختلفة لنفسها سمتًا خاصًا فى الحكم من قصور وشارات وتيجان وعروش وهيلمان ، ولكن الإسلام بدأ طريقه الطويل **بالمسجد** ، **ومن المسجد** ، حيث تحلق حول الرسول فى المدينة ، المؤمنون يعرفون أمور دينهم ودنياهم معًا ، وعلى هديه سار خلفاؤه الأربعة . .

وصار الإسلام بعد هذا ملكًا بقيام الدولة الأموية ولكن المسجد لم يتخل عن رسالته . . وكم للعلماء مع الخلفاء من مواقف يشرف بها تاريخ الإنسان على اختلاف مذاهبه وعقائده .

لقد كان رينان وهو الذى ناصب الإسلام العداء ، يقول : « ما دخلت مسجدًا قط إلا انتابنى شعور بالأسف على أننى لم أكن مسلمًا » .

المسجد معنى جامع ، وليست مهمة خطبة الجمعة التقريع والترويع ، يقف الخطيب بين أناس جاءوا للصلاة فإذا بهم يسمعون تحذيرًا ووعيدًا لتارك الصلاة وسردًا مخيفًا لألوان العذاب التى تنتظره فى الآخرة . .

لقد كان واعظ شر بين أكثر ذكاءً ونفاذًا فى خطبته الساخرة التى ضمنها كتابه : « هز القحوف فى قصيدة أبى شادوف » وختمها بقوله : « اللهم اهلك الثلاثة الفجار : العدس والبسلة والبيصار » .

هؤلاء هم الفجار الذين يواجههم الشعب الذى يئوده السلب والنهب والحرمان حين يسعى إلى المسجد ببطون خاوية وأجسام ضاوية لا ينقصها الوعيد والتهديد بالعذاب . . .

إن خطبة الجمعة لا معنى لها إلا أن تعيش فى مشاكل الناس الحقيقية .

شاهدت فى سفرى منذ شهور ، فى التليفزيون الفرنسى قداسًا دينيًا يقيد المشاهد ولعل تأثيره يعود الفضل الأكبر فيه ، إلى أسلوب الأداء . فقد كان رجل الدين هادئ الصوت واضح النبرات . وكثيرًا ما يصل الخفوت إلى قوة التوثيق والتحقيق . .

وعادت ابنتى منذ أيام من مهمة علمية فى أمريكا ، فإذا بالذى استوقفها ليس الأزرار والإلكترونيات ، ولكن أسلوب رجل الدين هناك ومستواه العلمى والثقافى .

وهنا أقول إن أول خطوة إذا أردنا بناء الإنسان المسلم فى بلاد الإسلام جميعًا ، **العودة إلى الدين** . وأول خطوة إذا أردنا العودة إلى الدين ، هى رؤية

جديدة للمسجد بحيث يكون مركز إشعاع ، وملتقى فكر ، وساحة رأى ، ومثابة توجيه صحيح . ومعنى هذا ، أن خطباء المساجد ليس البسطاء الذين يرددون خطبًا محفوظة أو مكتوبة أو بالية ، ولكن **خطباء المساجد يجب أن يكونوا من بين المستويات العليا فى الثقافة والفهم المستنير** ، حتى يثمر القرب المتاح من الناس والصلة الأسبوعية ، أى الدائمة وعيًا جديدًا رشيدًا لا يستقيم بدونه نهضة حقيقية .

وهنا يصير كل مسجد جامعة ، حين يضطلع برسالته الأساتذة الحقيقيون . . إن الأمية ليست أمية القراءة والكتابة ، ولكننا نعانى ألوانًا من الأمية الاجتماعية ، والأمية الدينية ، والأمية الثقافية ، والأمية الفنية . وهؤلاء جميعًا يستطيع المسجد أن يطب لها لو **أحدثنا به تغييرًا شاملا وجذريًا** .

إن الإسلام ليس فى حاجة إلى خطب منبرية بأصوات عالية صاخبة تؤدى ، لأن الجلبة والجهارة ينتفى معها الإيحاء والاهتداء والاقتناع والإمتاع . .

إن المسجد مدرسة ، رسالتها **صناعة النفس**. ، وهى درجة **فوق** التعليم الذى هو تمرين يأتى بالمران كحيوانات السيرك ، ولكن صناعة **تربية وتنمية وتواصل واستشفاف واستشراف** .

وبهذا المفهوم عاش الأزهر فى التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، لأنه ليس مسجدًا فحسب . ولكنه جامعة ... ورسالة ..

لقد اشترك الأزهر فى صنع الأحداث بمصر والمنطقة العربية ، بل والعالم الإسلامى . . ففى رحباته قام الخطباء والزعماء والمصلحون وأهل الفكر من أنحاء العالم الإسلامى بالدعوة إلى إصلاح الدين والدنيا بما يعنيه الإسلام من شعائر وشرائع .

ومن رجال الأزهر : رفاعة الطهطاوى وسعد زغلول وعلى مبارك والشيخ محمد عبده والشيخ المراغى والشيخ شلتوت والشيخ عبد الحليم محمود .

إن النهضة الحديثة تدين للأزهر بروادها كتابًا وأدباء ومفكرين وعلماء ، حتى أولئك الذين انسلخوا فى فورة الشباب وثورة الطموح أمثال الدكتور طه حسين ، وصاحب الرسالة الأستاذ أحمد حسن الزيات ، والأستاذ الزناتى ، ولكنهم لم ينسوا الأزهر فى حياتهم أو فى كتاباتهم . . أيامهم به وآمالهم فيه .

وفى الأزهر تحلقت حول جمال الدين الأفغانى الندوة . . وإلى الأزهر اشرأب الملوك والسلاطين والأباطرة يجسون نبض شعوبهم على وقع كلمات الإصلاح ، تنادى بها السلطة الحقيقية وهى السلطة الروحية ممثلة فى علماء الأزهر ورجال الفكر والعلم ، حتى لقد طلب الشاه وساطة سلطان تركيا عند جمال الدين الأفغانى أن يوقف الحملة عليه ، فقال العالم فى عزة المؤمنين الذين قرنهم الله برسوله فى الآية : (**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**) . قال الأفغانى ردًّا على رسالة سلطان تركيا : « قد عفوت عن شاه العجم » . . .

وكم للأزهر ورجاله من مواقف فى حياة العالم الإسلامى ، وكم للأزهر ورجاله من منازل فى قلوب المسلمين فى مختلف ديارهم .

الأزهر بما هو ملتقى المسلمين من آسيا وأفريقيا وأوربا وجميع أنحاء العالم ، الأزهر هذا ومن ورائه مدينه البعوث الإسلامية ، ينهض برسالة شاملة .

رسالة دينية واجتماعية وسياسية .

به اتصلت حياة الأحرار وأصحاب الدعوات **كالكواكبى** حين جاء من سوريا ، بل من الأزهر **سافر الشيخ محمد عبده** إلى الشام فالتف حوله السوريون

سنة ١٨٨٥ م « يتلقون عنه دروس العلم والحكمة والخير » كما يقول الدكتور أسعد طلس .

كما ترك الشيخ محمد عبده فى بيروت أثرًا عظيمًا . .

بل إن **بعض الدعوات الاجتماعية فى بعض بلاد الشرق** ، **نهض بها أبناؤها ممن تلقوا العلم فى الأزهر** . وليس إلى الشك من سبيل ، أن جزءًا كبيرًا من تاريخ **باكستان** المعاصر ، قد كتب فى رحاب الأزهر . وفى رحابه ، كتبت فصول من قصة تحرير أندونيسيا . .

بل كذلك تونس والمغرب وليبيا والجزائر وكثير من بلاد أفريقيا وآسيا . .

إن الأزهر حلم الملايين فى القارتين .

وفى الأزهر قامت الدعوة إلى **الإصلاح الدينى** على يد الشيخ محمد عبده والشيخ المراغى .

كما يمثل **دور الساهر على الثقافة الإسلامية** .

إن **أضبط مصحف** كتابة ، ورسمًا ، وشكلا ، من عمل الأزهر .

والمصحف المرتل .

والمصحف المجود .

وفى القرن السابع الهجرى عندما كثرت فى الإسلام الفرق والنحل واستشرى الخلاف بينها ، تطلع الإسلام والمسلمون إلى الأزهر ليحسم الموقف كدأبه فى الأزمات الكبرى . فاتفق رأى العلماء على **الشيخ تقى الدين السبكى** ليوفق بين المذاهب الأربعة ويخرج منها ، مذهبًا ينقاد الناس له ويرتاحون إليه ، ويقرون عنده . .

وقام الأزهر بهذا الدور مرة أخرى فى عهد **الشيخ الشعرانى** وهو بلدى السبكى وأصيل فى الفقه فوق كونه صوفيًّا من الطراز الأول . وقد حاول الشيخ الشعرانى ، بدوره ، التوفيق بين المذاهب الأربعة كمحاولته التوفيق بين أهل الكشف والعيان وأهل النظر والاستدلال . ويقول الباحثون الغربيون إنه مصلح يكاد الإسلام لا يعرف له نظيرًا .

وحسب الأزهر تزكية قيامه بهذا **التوفيق الفقهى** ، الذى لا نسمع فيه لهذا العصر صوتًا أجهر من صوت الأزهر .

وممن تصدروا للتدريس بالأزهر من **أعلام الفكر الإسلامى : عبد اللطيف البغدادى وابن خلدون** ..

لقد قام الأزهر بدور كبير فى الثقافة الإسلامية ومعه جامع ابن طولون وجامع عمرو بن العاص ، بل سوق الوراقين ، حيث كانت تدار فى دكاكين الكتب ، المناظرات . لقد **أحصى المقدسى فى المسجد الجامع وقت العشاء مائة وعشرين مجلسًا من مجالس العلم** .

وبعد غارات المغول والتتار فى الشرق ، وحركات الإفرنج فى الغرب - إسبانيا - كثرت الرحلة إلى الأزهر وتجمعت الحركة الفكرية فيه .

وقد حفظ الأزهر ، فى هذه الهزات ، تراث العرب الدينى والأدبى والفنى ونشره بينهم فى مختلف ديارهم .

ولما كان الاحتلال العثمانى فى القرن العاشر الهجرى ، **بقى الأزهر يحمل المشعل ، فحفظ للأمة تراثها من القرآن والسنة واللغة والعلوم** .

وفى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى ، **نهض الأزهر بأعظم كفاح لطرد الغزاة الفرنسيين** ، وها هو ذا اليوم يحمل تبعاته فى نهضة الأمة الإسلامية

كجامعة كبرى لعلوم الدين والدنيا ، من كليات أصول الدين والشريعة واللغة . إلى كليات الحقوق والطب والهندسة والعلوم والزراعة وغيرها .

لقد كان الأزهر وراء النهضة الحديثة ، لأنه من خلال طلابه ، كان قوام البعثات الدراسية التى أرسلها « محمد على » إلى أوربا بعامة وإلى فرنسا بخاصة .

ولعل ألمع هؤلاء ، الشيخ رفاعة الطهطاوى وهو وحده **علامة طريق** .

وتعزو دائرة المعارف الإسلامية ازدهار الأزهر وأثره البعيد ، إلى أن : « غزوات المغول فى المشرق قضت على معاهد العلم فيه ، وأن الإسلام أصابه فى الغرب من التفكك والانحلال ما أدى إلى دمار مدارسه الزاهرة ... وكذلك انقراض الحضارة العربية فى الأندلس ، وتضيف إلى ذلك عوامل أخرى ، هى : وقوع الأزهر فى مكان يتوسط العالم الإسلامى ، وقربه من الحجاز وأهمية مصر الاقتصادية وصبغتها العربية ، وامتداد القارة الأفريقية فيما يلى مصر ، وأهم من هذا كله ما لوادى النيل من ثقافة عقلية قديمة العهد تركت فيه بذورًا صالحة لنمو العلوم والآداب » .

ويقول **ابن إياس** فى جزئيه الثانى والثالث : إن الأزهر فى القرون الوسطى **كان ملجأ اللاجئين** ..

وكان للمتصوفة دارا . وأشهر رواده منهم « **ابن الفارض** » **صاحب التائية** الكبرى .

وهكذا مثل الأزهر رسالة المسجد الحقيقية : **كعبة للعلم** ، **ومحرابًا للدين** ، **ومدرسة للحياة** . **ومنبرًا للأحرار وأصحاب الدعوات** .

هذا هو الدين :

باعتبارنا سادة الكلام ، نتحدث كثيرًا هذه الأيام عن تعليم الدين فى مدارسنا . ولو خلى بين الإنسان وبين الحياة السوية كما خلقه الله الذى سواه فعدله ، لارتقت الحياة ، فإن الإنسان السوى المعدل « يعدل المايل » كلما استطاع وأنّى استطاع .. أما الإنسان المكسور فى داخله ، المحطم أو المطحون ، يجنح ولو لاإراديا إلى التحطيم والتخريب ، لأن نفسه غير عامرة وغير معمورة بالرضا والأمان الذى **يضفيه** النجاح والحرية والطمأنينة .. وهذا يفسر اللامبالاة وشهوة التخريب والتشويه التى تنتاب الناس فى عصور اليأس والظلام . .

يقول هوايت هد فى كتابه Science of Modern World

« ربما إذا تشككنا فيما إذا كان التاريخ يتقدم بالبشرية أم لا ، فإن شيئًا واحدًا يؤكد التقدم هو : **الدين** » .

التعليم الدينى فى المدارس بصورته الراهنة ، ثبت فشله . إذن لابد من رؤية **جديدة تنفذ إلى جوهر الدين** ..

ليتنا نعلم أبناءنا فى المدرسة والبيت ، أن التوحيد فى الإسلام **ذروة من الإدراك الوجدانى والذهنى** . . ولهذا يجب أن يكون التوحيد هو **المحور الثقافى بعامة** .

توحيد **الذات** فلا انفصام ولا تشقق .

وتوحيد **المجتمع** فيبرأ من الشيع والتطاحن ..

وتوحيد **العالم** نحو القيمة الكبرى **أى الله** .

وهو فى **العلم** إجماع وتوثيق .

وهو فى **الفن** يعنى وحدة العمل الفنى .

وهو فى **الصحة النفسية** يعنى تكامل الشخصية كما أشرت من قبل . .

ليتنا نعلم أبناءنا فى المدارس وخارجها موضوعين كبيرين من الدين فى سمته الأعلى . وهما :

● **السماحة** التى تغرس الحب فى القلب ، لكل إنسان أيًّا كان وفى كل مكان .

● **العمل** . لقد أكد الإسلام العمل كما لم يؤكده دين قبله . وفى القرآن الكريم آيات شتَّى تحض على العمل والتأمل والتدبر والتفكير . فالإسلام هوايته عمل دائب ، وغايته إنجاز وتكوين أردد هذا فى اصرار الاقتناع .

الإحسان فيه **هو التجويد** لا الشحاذة .

التجويد فى **القرآن** .

والتجويد فى **العمل « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه »** .

هذا ما يجب أن يعرفه أبناؤنا عن دينهم .

نريد أن تعلمهم المدرسة أن العمل قداسة . .

إن الترف المادى عبء ، ولكن الترف المعنوى جناح يحلق بصاحبه .

لقد نصب المماليك أنفسهم بالقوة ، سلاطين ... وبالقوة استولوا على الثروة نهبًا أو وهبًا أو استيلاءً ، أو ادعاءً ... ولكن انتشار الآثار الإسلامية فى عصرهم ، وازدهار الفنون المصرية فى العصر الوسيط ، يدل على حاجة السلطان إلى الفنان والعالم للتكفير أو التبرير . ويرتفع صوت الحرب والضرب ، ولكن الذى يستقر فى وجدان الناس ويبلغ سمع الزمن ، هو صوت الدين والفن والعلم .

القيم هى الباقية . .

وتنتهى المعركة ويذهب المنتصر والخاسر فيها ، ويمضى المماليك والانكشارية ، وتبقى عطاءات الدين والفن والعلم ، ويبقى أصحابها من الأئمة والفنانين والعلماء .

إن العلم الذى يضيف إلى الحياة والأحياء هو التقوى الحقيقية حين يفهم عباد النصوص من الدين معنى الخوف من العقاب ، والرهبة من الحساب ، والفزع من النار .

ليس الدين الرؤية الخلقية فحسب .

وليس الدين الرؤية الصوفية فحسب .

وليس الدين شكلا من أشكال المعرفة كما يقول « هيجل »

وليس الدين مجرد ظاهرة اجتماعية .

يقول « إقبال » فى كتابه « تجديد التفكير فى الدين الإسلامى » : إن الدين سبق العلم فى اعتماده على التجربة .. أى أن الدين سعى صادق صحيح يمحص مستوى الإنسان ، ويرفعه إلى قيمة وقمة معًا طالما تمنيت أن تعلمها المدرسة المصرية ، أبناءنا .

نحن مشغولون فى الدين بالشرح والتفسير ، فى حين أن الموضوع الحقيقى هو امتناع عن الدنايا ، وارتفاع فى التصرف والسلوك .

ليت المدرسة فى البلاد الإسلامية تعرف كيف تنتفع انتفاعًا حقيقيًّا بالدين فى التربية وهو أسلوب رفيع بعيد عن الأسلوب السيركى الذى هو غسيل المخ . إن « السيركية » أى تفريخ الإنسان عقليًّا ، قد يطمس الحقيقة بعض الوقت ،

ولكنه ما يلبث أن ينكشف ولو كره « بافلوفا » أبو النظرية السلوكية ، الذى كان يردد اعطنى أى إنسان أصنعه لك كما تريد .

ليت المدرسة الإسلامية تنجح فى تأصيل قيم الإسلام فى نفوس أبنائنا تأصيلا تغدو معه ، قلوبهم قادرة على استشفاف المقدس فى الكون أو فى أعمال الإنسان .

القاهرة ١٤٠٤ هـ . — ١٩٨٣ م

د . نعمات أحمد فؤاد

الفهرس

الصفحات

من مؤلفات الكاتبة

- النيل فى الأدب المصرى
- أعيدوا كتابة التاريخ
- شخصية مصر
- خصائص الشعر الحديث
- الجمال والحرية والشخصية الإنسانية فى أدب العقاد
- أدب المازنى
- أحمد رامى (قصة شاعر وأغنية)
- أم كلثوم وعصر من الفن .
- الأدب والحضارة .
- قمم أدبية
- شعب وشاعر (أبو القاسم الشابى)
- رسائل إلى ولدى
- رسائل إلى ابنتى
- مشروع هضبة الأهرام أخطر اعتداء على مصر .

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذا الكتاب

رؤية حضارية للإسلام الذى هو دين ودولة ، وثقافة وحضارة ، ونظام جامع للدين والدنيا .

الإسلام الذى توهج بحب الحياة ، فاعترف بمتاعها ومتعتها وأقر زينتها وطيباتها وطيوبها .

الإسلام بما فيه من إنسانية الإنسان وكونية الكون وقدسية الروح .

شخصية الفرد — شخصية المجتمع — الإسلام والعلم — الإسلام والعلوم الحديثة — الإسلام والحضارات — الإسلام والفنون — الإسلام والمرأة .

نبى الإسلام رسولًا وإنسانًا .

الإسلام والاستشراق .

الإسلام والتبشير .

الإسلام فى القرن الخامس عشر .

القرن الخامس عشر والتراث الإسلامى .

موضوعات وقفت عندها ، طويلًا ، الدراسة فى [illegible] .